حِرْزُ الأَمَانِي فِي تفْسِيرِ السَّبْعِ المَثَانِي

دراسة تحليلية في تفسير سورة الفاتحة

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

الشيخ محمد السيد حسن محمد

دار مشكاة
للطبع والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: حِرْزُ الأَمَانِي فِي تفْسِيرِ السَّبْعِ المَثَانِي
المؤلف: محمد السيد حسن محمد
التصنيف: دراسة قرآنية
تنسيق: منى الغريب
مراجعة: بمعرفة المؤلف
تصميم غلاف: شركة دوام
رقم الإيداع: ٢٠٢٤/١١٤١٢
ترقيم دولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٨٢٥-٠٧-٧

==========
٣٤ شارع يحيي إبراهيم – محمد مظهر – الزمالك - القاهرة
ت/ ٠١١١٤٣٩٨٩٩٤- ٠١٠١٤٤٤٤٦٤٨ - ٠١٠٠٢٢٦٩٥٤٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
هذا العمل وقف لله تعالى
ومن أراد طباعته ونشره مجانا فله ذلك بعد إذن خطي من المؤلف
للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة

الحمد لله رب العالمين،،، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين،،، وبعد،،،

لما كان للعلوم الشرعية المنضبطة الأهمية الكبرى في حياة كل مسلم، وصار العلم الشرعي والحاجة إليه من أساسيات الحياة، وخاصة في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الفتن، والشبهات والمشككين في ثوابت الدين من هنا وهناك، و حيث انتشر الجهل والبعد عن طلب العلم والتفقه في دين الله تعالى، فكانت الحاجة للعلوم الشرعية ونشرها كالشمس للدنيا والصحة للأبدان.

ومن أجل هذا حملت على عاتقي تأسيس هذه المؤسسة العلمية وبمساعدة طيبة من بعض الإخوة المخلصين، والهدف منها نشر العلم الشرعي الصحيح المنضبط المعتدل على منهج أهل السنة والجماعة، حتى نقدم لأبناء الأمة الإسلامية مساهمة طيبة، ولو كانت بسيطة، عدةً لهم وتحصينا أمام الشبهات والفتن بجميع أشكالها. ولقد تعمدنا السهولة واليسر، حتى تكون متاحة لعموم المسلمين ولمحبي دراسة العلوم الشرعية، والتفقه في الدين.

و انطلاقا من حديث رسول الله ﷺعن سيدنا معاوية بن أبي سفيان ﷺ، قال رسول الله: "ﷺ مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ". (صحيح البخاري)

وحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : (يا رسول الله ! أيُّ الناس أحبُّ إلى الله؟ فقال: أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل، سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحبُّ إلي من أن أعتكف في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة شهرا...". (رواه الطبراني في الأوسط والصغير)

ونسأله تعالى بجميل فضله وكرمه أن يجعله عملا صالحا ولوجهه خالصا، وأن يكون زخرا لنا ولكل مسلم، ونورا علي الصراط، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولعموم المسلمين... اللهم آمين يارب العالمين،،،

المشرف العام :

ناصر بن صالح بن حسين السادة

التعريف بالمؤسسة

مؤسسة دعوية لا علاقة لها بالسياسة منهجها الدعوة إلى الإسلام بعقيدة ومنهج سلف الأمة.

جعلنا القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ طريقا وسبيلا ومنهجا.

دعوتنا للناس بالحكمة والموعظة الحسنة واللين والرفق وعدم العنف بكل أشكاله واتباع أيسر الطرق للوصول إلى ذلك،

نبتغي من وراء ذلك وجه الله تعالى.

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام)

شعارنا قول الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

متبعين قول رسولنا الأكرم (بلغوا عني ولو آية)

نريد العودة إلى الإسلام الصحيح والخير لجميع الدنيا فالمؤمن كالغيث أينما حل نفع.

اللهم اجعل بلادنا آمنة مطمئنة رخاءً وسائرَ بلاد المسلمين. تقبل الله منا ومنكم .

أهداف المؤسسة

- نشر العلم الشرعي بسهولة ويسر.
- طبع الأبحاث العلمية النافعة.
- ترجمة الكتب والأبحاث إلي لغات أجنبية.
- طباعة رسائل الماجستير والدكتوراة لغير القادرين علي طباعتها.
- نشر الإسلام الصحيح في بلاد غير عربية.
- الاهتمام بالجيل الصغير وتشجيعه علي الإنجاز وكتابة الأبحاث.
- الدعوة إلي الله تعالي بالحكمة والموعظة الحسنة.
- تربية جيل من الدعاة والمخلصين لنشر الإسلام الصحيح.
- التصدي لحملات المشككين وناكري السنة النبوية.
- إعداد ندوات علمية نافعة.
- إنشاء مدارس للقرآن والسنة النبوية المباركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدا لله تعالى أحمده، وشكرا لربي الحمن أشكره، وتمجيدا لخالقي أمجده، وأصلي وأسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

فإن هذه وقفات، وملح، ولطائف، ومنح، وحين قد ألف ربي الله تعالى قلبي، ووجه بصري، ونحو هذا الكتاب، الكريم، العظيم، الخالد، القرآن، الحكيم.

وحين قد ألفيتي منساقا إلى تأويله سوقا، وحين قد رأيتني مقودا وإلى استكناه الشيء العظيم من أصدافه، وسبر الكثير من أعماقه.

ولأنه كتاب الله تعالى الخالد، ولما كان هكذا عطاؤه، ليس ينفد، وكابرا عن كابر.

أسباب الاختيار

١- ولما كانت هذه فاتحة الكتاب، وإذ كان ولابد، وأنها قد تحملت بين أصدافها، وجواهرها، ومننها، وأفضالها، ما قد جعلها منزل الكتاب، فاتحة كتابه، ومن أجله. ومن هذا الجانب وحده كانت إليها الطلة، وأضحت إليها النظرة.

٢- ويكأنني، وحين كنت أطالع التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى، وإذ ألفيته قد استخرج من هذه فاتحة الكتاب عشرة آلاف فائدة! وحين استعبر ذات نفسه، وحين أكبر جلساؤه ذلك، واستبعدوه!

٣- ويكأن هذه فاتحة الكتاب، ومن هذين الأمرين ألفيتني عازما قصدي، وأن أروح، ولو لشيء، ومن كمثل ما فعل الإمام الرازي رحمه الله تعالى، وإذ قد رأى غيري ولاشك رؤيتي هذه، وإذ ولا ريب قد نحا سواي مسلكا آخر، شبيها، أو مماثلا، أو قريبا.

٤- وإذا انضاف إلى ذلك، وإنها تمثل فاتحة الكتاب، ولما كان قصدنا، أن نأخذ، ومن تأويله، أوفر الحظ وأغزره، وأعظم النصيب وأكثره، ومستعينين بالله تعالى ربنا، أن ييسر ذلكم منحى، وأن يلطف بعبيده، فيأخذه، ومن فؤاده، إلى الحق أخذا، وأن يوفقه إلى سبر عميق البرهان، وإلى سد طاقة، رآها، ومن جد لم تأخذ حظها المرجو المرتقب، ولا نصيبها المأمول المنتظر، ومن هذا اللطف البياني، ومن هذا البيان البلاغي، ولما كان به هذا القرآن متصفا.

ومنه كل ذلك، رأيت البدء بفاتحة الكتاب، ولما قد وسمتها بوسمها، وحين قد أرخيت على نعوتها سدولها، وورفت عليها ظلالها؛ كيما تتبدى؛ ومن جلاء، وكيما تترائى؛ ومن وسامة، وكيما تظَّاهر، ومن قشابه.

التسمية: ووسمت هذا السفر الكريم، ومن كرمه وسمه، ورسمته ومن رسمه، ونقشته ومن نحته ب (حرز الأماني في تفسير السبع المثاني).

وربي تعالى سائله رضاه، وتحويل كل القلب، والفؤاد، والضمير، والنفس، والعقل، والذهن، إلى مدارج سناه. وأن يخرج شيئا قد كان من لمة، وأن يدخل كلا قد كان من منة.

منهج البحث

وإذ ليس يخفى سبيل المفسرين، في تأويل كلام رب العالمين، وإذ لم نخرج عنهم في ذلكم من شيء، وإذا كان الذكر مفسرا، ومن كذكر مثله، أو من قول النبي المجتبى صلى الله عليه وسلم، أو من قول الصحابي، أو ما اقتضته لغة لناطقين بالضاد، فهو سبيلنا، وإن اجتمع كله، فإنه طريقنا ومنهجنا.

المنهج التحليلي: واتبعنا طريقة المنهج التحليلي في بحثنا ه٩ذا وكيما نقتفي الأثر والكمة شيئا وشيئا وكيما نصل بقاريء كريم ومطلع فهيم على هكذا حسن بيان القرآن، وبلاغه، وطلته، وحلاوته معا.

وسوف يكون طريق الأولين منهاجا وبابا وشرحا وتفصيلا وعلى طريقة تبويبهم وعند بدء كل باب ومن قولهم (فصل).

فصل
البرهان في بركة القرآن

هذا القرآن الذي بين أيدينا عظيم كريم مبارك؛ ذلك لأننا نملك به كنوزا، عظيمة القيمة، حميدة السيرة، حسنة الأثر، قد كانت كافية أن نستغني به عما سواه مما في أيدي الناس، وقد فتنوا بغير القرآن زادا، وقد انقادوا إلى سواه معاشا، وعقاب حالٌّ لسببه معادا، وما كان ذلكم إلا لأن الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه قد أسماه مباركا، كما قال تعالى ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[ص:٢٩]. ويكأنه نزل مباركا؛ كيما يدَّبَّروه؛ ويكأنه جاءنا مباركا؛ كيما يعقلوه، ويعرفوا كيف كان يمكنهم إعماله في واقع أفعالهم، مع كونه كذلكم في مقولهم وحركاتهم وسكناتهم، ناطقة بهديه ألسنتهم، ومتفاعلة معه خلجات أفئدتهم وقلوبهم، وإذ كان من شأن تدبره أنه ليس يكون كذلك إلا " ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به. وليعتبر أولو العقول والحِجَا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب"[(١)].

ولما كان هذا القرآن مباركا، فقد كان متحصلا منه أن يكون مباركا في نفسه، بلا دليل آخر منضافا إلى كونه كذلكم، وتلكم هي بركته، وذلكم هو إعجازه المبين، أن يكون مباركا وحسبنا.

---

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ١٨٢/٢٣

ولكننا لأننا لا نكتفي إلا بعرض آخر موسعا؛ ليقف بنا على إثبات أنه كذلكم، فلم يكلفنا الكتاب الكريم جهدا، ولو قليلا، أن نبحث عن أين كان استدلال لكون ذلك الكتاب مباركا! كما سلف ذكره من قوله تعالى ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾.

ودلك على أنه مبارك كونه قرآنا أولا؛ لنص الذكر الحكيم على ذلك، ولأنه لم ينزل ربنا الرحمن سبحانه إلا شيئا مباركا! وكان القرآن أوله، وكان الذكر المبين أجمله وأحسنه وأعظمه، وليس ذلكم بدعا من قول أتيته، وليس يعد ذلك افتئاتا من ذات نفسي ابتدعته؛ وذلكم لأني قد احتسبت أن الله تعالى كريم رحمن، ومن ثم فلقد كان اليقين الحسن به تعالى ألا ينزل كتابا لنا إلا مباركا؛ إذ كيف ينزل الكريم إلا كريما؟! وإلا لقد كان لنا هاديا ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[الأنعام:١٦١]. وإلا وكان نورا لنا ومبينا، كما قال تعالى﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ*يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة:١٥،١٦].

ودلك على أنه مبارك أيضا كونه هدى؛ ذلك لأن الله تعالى قال ﴿**ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة:٢]، وقال تعالى ﴿**وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ**

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦ – ٧٦]، وقال تعالى: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ* هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾** [لقمان: ٢ – ٣].

ذلكم، وأن القرآن هدى! بدلالةٍ تحمل كل شارات الهدى؛ إذ إنه هدى في نفسه، وليس مجرد سبب له وحسب! وهذه من لطائف هذا الكتاب، وتلك من فرائد عظائمه وعطائه ومنحه وهباته، أن كان هدى - في نفسه - ليغترف منه سائر العباد، وليهتدي به كل عاد وغاد! وأنه ليس يدله إلا على هدى، وهذه واحدة أخرى منضافة إلى بركة هذا الكتاب المجيد القرآن العظيم، وإلا فكيف **﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾**[المائدة:١٦]. إلا وقد كان هو الهدى نفسه؟! وإلا فكيف يبين وأنه هو البيان كله؟! ولما كان الهدى هو " ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة "(١). فقد كان مألوفا أن يزكى بأنه هدى، ليمكن تحصل باغ إلى الخير منه رشده وخيره، ولإمكان مريد إلى الهدى أن يغترف منه هداه وبره.

بيد أن معنى لطيفا حسنت الإشارة إليه، وجمل العطف عليه؛ وذلك لأنه ولكونه قد جاء وصفه كونه هدى، وليس سببا له وحسب، فدل على أنه هدى لكل أسبابه، ودل على أنه كاف لسائر أبوابه، وليس يتبقى من بعد ذلك قول لقائل، أن يتحصل نفعا في سواه، وليس سندا موجودا لآحادهم زعما تحصيل خير فيما عداه، أو أن صلاح أمر الناس على غيره ممكن لا في

---

(١) تفسير السعدي:٤٠/١

المعاش، ولا في المعاد. بل إن خسارا لاحقا بمن تنكب وأَعْرَضَ عن هداه، وبل إن بوارا ماحقا لمن تَقاعَسَ عنه وأَهْمَل نوره وضياءه وسناه.

وبطبيعة الحال فإنه ليست هنالك نفرة بين الوحيين، بل تآلف وتكاتف، وتضامن وانسجام، وتكامل وتعاضد؛ وذلك لأن الله تعالى قال ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[النحل: ١٢٥].ولأن "الحكمة هي ما أنزله عليه من الكتاب والسنة (والموعظة الحسنة) أي : بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس"(١). ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال "**ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ ، لا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه ، ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليِّ ، ولا كلِّ ذي نابٍ من السَّبُعِ ، ولا لُقَطةِ معاهَدٍ ، إلَّا أن يستَغني عَنها صاحبُها ، ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه ، فإن لَم يُقْرُوه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاه**"(٢).

هذا ولقد كان القرآن العظيم هدى للمتقين؛ ولأنهم هم المنتفعون بهديه وأحكامه، ولأنهم هم العاملون لما اقتضاه من تحليل حلاله، ولما أحكمه من تحريم حرامه، ولما ألزمه من أمره ونهيه، ولما سنه من فعله وزجره.

---

(١) تفسير ابن كثير، مع أحكام الالباني: ج٢/٤١١
(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٠٤

وليس يقال إن القرآن العظيم هدى للمتقين وحسبه في ذلك أنه قد أدى وظيفة إنما أنزل ليس إلا لها! فإن ذلكم قول ليس صوابا، وإن ذلكم مذهب كان في حس المؤمنين معابا سرابا! وذلكم لأنه إنما كان القرآن العظيم هدى للناس أيضا؛ جنبا إلى جنب كونه هدى للمتقين! وإنما كان ذلك كذلك تشوفا منه تعالى إلى هداهم، ولئلا يحرم أحد من نوره، ولئلا يزعم أحد أنه قد حيل بينه وبين هداه، وهذه كلية قمنة بالبيان، وهذه قاعدة جديرة بالتذكر وعدم النسيان؛ وذلكم لأن الله تعالى قال ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى أيضا ﴿**هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية:٢٠].

ووقفة تأملية بين كلمة (هدى) أول البقرة، وكلمة (هدى)في آية الصيام من سورة البقرة أيضا. ذلك أن كلمة(هدى) الأولى جاءت خالية عن معمولها، وإنما تركت فضاء واسعا؛ كيما تتحمل هي الأخرى بذلكم بيان أنه هدى لكل شيء يمكن أن يطرأ على ذهن، أو أن يجول بخاطر ذي لب راجح، أو أن يخايل كل ذي رأي صائب، وأنه يمكن أن يكون مبينا لكل جانب من جوانب حياة الناس المختلفة المتباينة على اختلاف الناس ألسنة وألوانا، وهذه من ألطاف البيان المبين عن الذكر المبين أيضا! وهو من مقتضى شمول الكتاب، وهو من خصائص قرآن ربنا الله تعالى الوهاب؛ وذلكم لأنه تعالى قال ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى أيضا ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ**

وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام:٣٨].

ومنه فإن دلالة كلمة(هدى) في هذا السياق واقعة على الأشياء، شاملة لكافة الأنحاء والأرجاء، وبعبارة أخرى فإنها جاءت مشيرة إلى كل خير يمكن أن يدل القرآن الحكيم عليه، وأنها كذلكم وردت مبينة لكل شر يمكن أن يقع نهي الذكر المجيد عنه، وذلكم كله جنبا إلى جنب إلى كون القرآن العظيم هو **﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾**.

وأما كلمة (هدى) في آية الصيام فقد جاءت متآلفة متضامة مع معمولها، وهو كلمة(للناس) دلالة على ما لهذا القرآن العظيم من قوة وسلطان في إمكانه هداية الناس أجمعين، وأنه يحمل بين أنوار هداه زادا لكل أحد أن يكون مهتديا بأمره تعالى، شرطا واحدا فقط هو أن يكون متوافرا على استعداد لذلكم الهدى، وتلقيه ومحبته والرضا به والتسليم له! وذلكم يبين شأنه أكثر حين نطلع أن منهجا معينا من مناهج البشر تكون له فئة مستهدفة لإعماله، ومن ثم يخرج منه سائر غير المخاطبين ممن لم تشملهم هذه الفئة المستهدفة! ومن ثم فليس يدخل تحت مظلة هذه الفئة من لم يكن بها مقصودا أبدا، ومن ثم فإن القرآن العظيم بذلكم وصف بأنه هدي مع معمولها كان فائقا كأعمق ما يكون عمق؛ لسبر غوائر المسائل، ولقد كان بعيدا سحيقا كأبعد ما يكون امتداد، حين كان متضمنا لحل أعضل المشاكل! وما كان ذلك كذلك إلا لأنه " هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من

الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم"(١).

وإنما كان القرآن هدى "لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق. فالأشقياء لم يرفعوا به رأسا، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر، لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع"(٢). "مع أنه هداية لهم ولغيرهم ، لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم"(٣).

واقتران الهدى بالبشرى دليل فيض الرحمن، وإنه لموجب رضا الديان، وما كان ذاك كذلك إلا لأن بشراك بالقرآن حين كان منه هداك لواقعة بحصول مرغوبك، واندفاع مرهوبك، أو ترقبهما معا، وذلكم هو الاستبشار، وذلكم هو فيض ربنا الرحمن الغفار - سبحانه - . كما في قوله تعالى ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل: ٨٩].

ودلك على أنه مبارك كونه رحمة؛ وذلك لأن الله تعالى قال﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقوله تعالى ﴿ **وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[الأعراف: ٢٠٣]، وقوله تعالى ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ**

---

(١) تفسير السعدي:٤٠/١
(٢) المرجع السابق:٤٠/١
(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي:٤١/١

وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء: ٨٢]، وقوله تعالى﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ*هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾[لقمان: ٢-٣].

والرحمة كصفة للقرآن الكريم إن هي إلا قاطعة لمادة القلق عما هو آتٍ، إن في عاجل المرء في دنياه، وإن في آجله في أخراه، ومن تمامها نظر المرء بعين قلبه، ونفاذ بصيرته، في مآل نعيمه، فيعلم أنه دائم غير منقطع، فإن لم يتحقق له ذلك، أحيل نعيمُه شقاءً!

ودلك على أنه مبارك كونه واجب الاتباع، وذلك من قوله تعالى ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[الأنعام: ١٥٥]. ومنه فإن امراءً ليس بإمكانه أن ينال بركة هذا الكتاب المبارك إلا حين كان معه في إلف مألوف، فليس يتعبد إلا على هداه، وليس يعيش إلا على نوره وسناه، وهذه كلية قمنة بالدرس أيضا، وهي قاعدة جديرة الوقوف أمامها مليا مليا! وليس يكون ذلك حقيقا إلا حين يراعيه أهله، وإلا يوم أن يقوموا بحقه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه، على وجهه التعبدي لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، وهذا هو الحق، وما دونه هو الباطل، وذلك أيضا لأن خير ذلكم إلى العباد، ولأن بركته ليعم الله تعالى بها العباد والبلاد.

ويوم يكون الكتاب حاكما لتصرفات القوم، فإنه يمكن القول إنه قد حان وقت حصادهم لما فيه من خير، ولأنه قد أزف حينُ طهارتهم مما لحق بهم من زيغ، وأن القرآن الحكيم قد أضحى هو المحرك الأساس لهم، حين نومهم ويقظتهم، وحين ليلهم ونهارهم، وحين نكاحهم وطلاقهم، وحين حياتهم

ومماتهم، وحين كلامهم وصمتهم، وحين جلوسهم وقعودهم وتربعهم، وحين قولهم وفعلهم، وحين علانيتهم وجهرهم، وحين سرهم وخفائهم، وحين طعامهم وشرابهم، وحين كل أمر من أمرهم، وهو من مقتضى قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وإن ذلكم لهو فصل الفصول، وإن ذلكم لهو أيضا أصل الأصول، ليكون مآله إلى أننا مصدقون بالقرآن منهجا، ومتيقنون به سبيلا، مبدؤه إلى هدانا، ومنتهاه إلى مبتغانا، دنيانا وأخرانا، وبدونه ليس يحل قول: إننا على الجادة! وبدونه ليس يكون من الحق قولُ: إن امرأً به كان مصدقا!

وذلك لأن أصل مادة التصديق آتية من الاعتراف بالشيء ومن ثم تحقيقه؛ لأن «صَدَّقَهُ، وصدَّقَ به، تَصْديقاً وتَصْدَاقاً: اعترف بصدق قوله، وحقَّقه. وفي التنزيل العزيز: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ** ﴾ [سبأ: ٢٠]. ولأن مادة الصدق تعني الإقرار بما صدق به؛ ولأنهم قالوا" وَيُقَال صدق على الْأَمر أقره"(١). ومنه « وصادقه ولم يكاذبه، وتصادقا ولم يتكاذبا. وصدقه فيما قال، وقوله مصدق. ورجل صدوق من قوم صدق. ورجل صديق. وعنده مصداق ذلك وهو ما يصدقه من الدليل » (٢). ومنه فإن التصديق مقتض لفعل ما وقع عليه الصدق، بحيث كان به مصدقا، ومنه أيضا كان

(١) المعجم الوسيط:٥١٠
(٢) أساس البلاغة: ٥٢٢

إغفال الأمر، وادعاء بأنه يصدقه كذب، وذلك تأسيسا على قولهم« وصدقوهم القتال: أقدموا عليهم، عادلوا بها ضدها حين قالوا كذب عنه إذا أحجم » (١).

وأخلص إلى أنه يمكن الاستنباط والبناء على ما اقتضته لغة العرب ولسانها على ما أنف ذكره أن الدلالات لهذه المعاني وفق ما قررته المعاجم اللغوية السابقة لكلمة التصديق أنها تتضمن الاعتراف بصدق الشيء. والإقرار عليه. وتحقيقه في واقع الناس، وفي ضمائرهم، وفي الكون، وفي الحياة، وفي سائر أنحائنا، وجميع أرجائنا، بحيث يكون من حقٍ أن يكون متوائما مع قولنا إننا لمصدقون بقوله تعالى ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾[المائدة:٤٨]. وذلك لأن مقتضى كونه مهيمنا ليس يتأتى إلا حين يكون هو المهيمن أي "الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل أو اعتقاد، والمهيمن من أسماء الله الحسنى، وجاء القرآن مهيمنا على لكتاب سماوي آخر: أي مبينا لما فيه من تحريف، ناسخا لبعض شرائعه"(٢). والدَّلالة على كونه صدقا لاريب فيه!

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٩٥/١٠

(٢) تفسير و معنى كلمة ومهيمنا، فهرس القرآن الكريم

وسائر ما سلف من الوجوه فيه معنًى من معاني الرحمة، فإن تفصيل الحلال والحرام رحمةٌ إرشاد، وجعله فصولًا مشتملة على أنواع العلوم والمواعظ رحمةٌ تنويع وتثنيه، وإنزاله مفصلًا منجما رحمةٌ تيسير، وتفصيله على علم رحمة مراعاة المناسبة إذا كان بمعنى فصلناه على علم بما يصلح العباد، وإن كان بمعنى فصلناه على علم أنهم لا يأتون بمثله ففيه رحمةٌ تطمينٍ بصدق المُرسل به، فلا يُتركون نهبًا للشبهات.

ودلك على أنه مبارك كونه شفاء؛ ليُبرِئ سقما، قد حط رحاله في جسد مؤمن به، وليدفع أخلاطا مؤدية إلى الاعتلال، كانت قد أخرجت صاحبها من حدود الاعتدال، قال الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٥٧]. وقال تعالى﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾ [فصلت : ٤٤].

ودلك على أنه مبارك أنه تبيان لكل شيء؛ لأمور المعاش، ولأمور المعاد معا، مما لايدانيه في ذلكم كتاب بشري، ومما لايقاربه في ذلكم منهج إنساني، كان من أمره قصوره، وكان من شأنه عواره، إذ لا ينهض ولو أنملة لإصحاح، وإذ لاينبو إلا عن سوء إفصاح، وذلك لأنه تعالى قد حسم أمره في قوله تعالى ﴿**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**﴾[الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧]؛ والظاهر أن البينة هي

القرآن وهو الحجة الواضحة الدالة النيرة حيث نزل عليهم بلسانهم وألزم العالم أحكامه وشريعته وإن الهدى والنور من صفات القرآن"(١).

ولأن هذا القرآن الذي بين أيدينا إنما نزل بألسنة قوم هم به أعلم لمعانيه، ولأنهم هم به أفهم لمقتضاه ومراميه، وهم بهذا ليختلفون عمن سواهم، ومنه فقد كانوا به ألزم، وعليه فقد كان عليهم حجة أقوم، وشأنه ما أنف، عملا وإلزاما للعالم أجمعه بأحكامه وشرائعه، ومن حيث قد وصل ببلاغه البلغاء، ومن حيث قد أبان عن سلطانه الفقهاء، ومن حيث قد أبلج بيانه العلماء.

وهذا بيان ساطع، وذلك برهان قاطع، على أن هذا القرآن ما كان لينزله الله تعالى ربنا الرحمن إلا رحمة بكشف الريب، وإلا حسما لمادة التردي، وإلا قطعا لدابر التردد في طلب الحق، والأخذ بأسبابه.

(١) تفسير البحر المحيط، أبي حيان الأندلسي: ج ٢٥٨/٤

فصل
حكمة تسمية الفاتحة بهذا الاسم

وهذه فاتحة كتاب ربنا، فاتحة الكتاب، أم القرآن، القرآن العظيم، السبع المثاني. وقد أنف ذكر شيء من ذلك، وحينما يمنح، ويمن، ويتفضل ربنا الرحمن، على عُبَيْدٍ، أن يلج هذه الساحة، وإنما وجب أن يلقي ضوءً، وأن يسلط الخبر، أنها فاتحة الكتاب. وحين قال عليه الصلاة والسلام: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب(١).

جاءت من الفتح، وهو آلة يفتتح بها، ما كان محجوزا أن يرى، كأن يقال: مفتاح الباب، أي: أن الباب مغلق بينك وبين ما وراءه ساتر وحاجز ومانع وحاجب. فجاء الفتح أو المفتاح، وكان بهذه المثابة؛ ليكشف عنك ما وراء الحاجز والستار والمانع والحاجب ومنه كانت فاتحة الكتاب من هذا المعنى.

فكأنما كان فتحا من ربك الرحمن عز وجل، وحين تلج ساحة هذا القرآن العظيم.

فاتحة أي: فما يمكن تسميته بالإيجاز أو الديباجة، التي سار عليها الناس، وحين يلخصون، ويختصرون ما تلا هذه الديباجة، وهذا التفصيل، ومن هذه الديباجة، كما قيل؛ ومنه كانت هذه الفاتحة متضمنة في عمومها، واختصارها، وإيجازها، ويسرها، وسهولتها، ما تضمنه هذا الكتاب العظيم كله.

---

(١) صحيح البخاري: ٧٥٦

وإن جاز التعبير، فهي إجمال، وما أتى بعده يعد تفصيلا؛ ولهذا سميت فاتحة الكتاب.

والواقع أيضا، أن هنا معنى أديبا، أريبا، عجيبا، جميلا، جليل الشأن، وهي فاتحة الكتاب.

لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب: فاتحة جاءت من الفعل فتح، فعل ثلاثي، سهل النطق، ميسور البيان؛ وكيما نقف على حقيقة يسر هذا القرآن العظيم كله، وحينما وصفه ربه تبارك وتعالى منزله، ومن قوله سبحانه وتعالى ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر:٢٢].

فالله تبارك وتعالى في علاه سهل ويسر هذا القرآن العظيم، وحين كانت فاتحته من الفعل الثلاثي، هكذا في هذا الانسياب لذكر هذه الحروف الثلاثة، وهذه واحدة.

فاتحة: جاءت من الفعل الثلاثي فتح)، واسم الفاعل فاتح، من فتح فاتح، فكان اسم الفاعل ها هنا، وحينما ينسب بالطبع الى رب العزة والجلال سبحانه وتعالى، فكان قمنا أن نقف عنده، وحين قد فتح الله على عبيده، وعباده، وخصائص شرعه، ودلائل حكمه، ومما أعده الله تبارك وتعالى للقائمين على هذا الحكم والأمر والنهي، ومن جزاء عظيم، ومن جنات النعيم، وحين قد أعد للناقصين، والمستدبرين لهذا الحكم، وهذا الشرع، وهذا الأمر، وهذا النهي، عقابا أليما، ومن جهنم، وبئس المصير.

هذا استحضار كان قمنا أن يعلق في الذهن، فاتحة الكتاب من الفعل فتح، جاءت على وزن اسم الفاعل، وهو مسند إلى رب العزة والجلال. ولأنه تعالى هو الذي أنزل هذه الفاتحة؛ فتحا علينا.

وأكرر ومن الفعل الثلاثي، المنبسط، السهل، الميسور، فتح ولما يحمله أيضا هذا الفعل فتح، من فعل حسن، وهو من الفتح! وكيما تقف على هذه الحقيقة من الرضا والانسياب، من هذا الرضا، الذي قد امتن به ربنا علينا.

فاستحضر في ذهنك ضد وعكس كلمه فتح! وحين كانت غلق. فالفتح، ولما كان عكسه الغلق.

هذا كان فيه استحضار لهذا الانسياب الملكوتي الرباني الأعلى، عليك أيها العبد، وحين يمنُّ عليك ربك بفتح عظيم، يكون منه الوقوف على هذه النعم، ودلائل العظمة، وبراهين القدرة، لهذا الرب، العظيم، المنان، سبحانه وتعالى، ومن خلقك أول ما تقف عنده، وعليه، ومنه، وحين قد خلقت من مادة تسمى التراب، طين، صلصال، فخار، ماء مهين، من هذا الذي كان من قدرته وعظمته، أن يخلق هذا كله، بل من خلق التراب أصلا، إن هو إلا رب كريم، كان حريا بك ألا تعبد إلا إياه، وألا تقف من ثبات إلا أمام هذا الرب، العظيم، القهار، الجواد، الرحمن، الرحيم أيضا. وحين قد كان هذا بعضا من منه عليك.

وحين جاءت فاتحة الكتاب، من الفعل فتح، واسم الفاعل فاتح، قالوا ملحظا جميلا أيضا، هي جملة إسمية بنص حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فاتح: **لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**(١).

قال لك: هذه التاء للتأنيث، وعندما ألحقت باسم الفاعل فاتح، فدل ذلك على تحويلها من المشتق الذي هو اسم الفاعل فاتح، إلى المصدر، حتى صارت الفاتحة!

قالوا: وما السر في تحويلها من اسم الفاعل فاتح إلى المصدر الفاتحة؟ وهذا ملحظ أريب أديب أيضا، وحين أضيفت إليها هذه التاء للتأنيث، وكأنما نقف أيضا موقفا نحويا، بليغا، أريبا، أديبا، أمام هذه القدرة، وأمام هذا الإعجاز.

قالوا: وما السر في تحويل الفاتح من اسم الفاعل الى المصدر؟ وحين أضيف تاء التأنيث إليه. قالوا في الذهن: إنها علم على هذه السورة، المسماة بالفاتحة، فلا ينصرفن الذهن وحسب إلى اسم الفاعل، وهو الذي يفيد الاستمرار أيضا، وإنما يمتد ويشمل أن يكون مصدرا؛ ليفيد التثبيت، والتأكيد، وهو درجة أقوى، من دلالة المشتق اسم الفاعل، أو غيره من المشتقات.

وكان هذا الملحظ ملحظا، وأكرر أديبا، أريبا، عظيما، منجزا، مبهرا! وحين أسماها نبيك صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، وحين أيضا كان من دلالات هذا المصدر، وحين ألحقت به تاء التأنيث، هذا الاستشراف، وهذا الاستدعاء الداخلي الذي، وحين يسمى فاتحة الكتاب، من الفعل الثلاثي فتح، أي أن هناك أمرا، ولربما كان مستغرقا، فيستثير الذهن،

---

(١) صحيح البخاري: ٧٥٦

ويستدعي دواخل العقول، والألباب، أن تستكشفها، وأن تستكنه هذه اللطائف، التي في فاتحة الكتاب الموجزة، ثم ما عداها، وما تلاها، من هذا القرآن العظيم أيضا، استشراف في الذهن، تمليه حقيقة هذا المصدر، أن تزيل عن نفسك استغلاقا، يمكن أن يوسوس به الشيطان؛ وكيما تلج هذه الفاتحة، فتستشرف عطاءها، ومعناها، ومغزاها، وفحواها، الذي قد أودعه ربك الرحمن فيها، ومن بين حروفها، وكلماتها، وتركيباتها، المعجزة، المبهرة، المدهشة، فكان أيضا هذا إعجازا، والحق يقال، وحين أسماها نبينا عليه صلى الله عليه وسلم: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، ثم لا يكون الأمر عاما، شاملا، غير مخصوص، جاءت مضافة إلى الكتاب! فجاء هذا التركيب: فاتحة الكتاب؛ كيما يكون علما على هذا الكتاب العظيم أولا، وكيما يكون علما على هذه السورة وهذا أولا.

وثانيا: وأنت ترى، هذا من الإعجاز لهذا القرآن العظيم، أنت ترى، وأن الناس، وحين يقولون: فاتحة الكتاب، لا ينصرف الذهن إلا إلى هذه الفاتحة، أم القرآن، القرآن العظيم، السبع المثاني، هذا الذي أودع الله تبارك وتعالى أسرارها، وفي كتابه العظيم، مما وقف عنده أمامه أولاء العرب أنفسهم موقف الذهول، والانبهار، والإعجاز، وحين كانوا أهل عربية قحة، وإلا أنهم وقفوا عاجزين أمام هذه القدرة، وهذه البلاغة، وهذا البيان: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.

وحين استقر في أذهان الناس، وأسماعهم، مؤمنهم، وكافرهم، وحينما يقال فاتحة الكتاب، ليس ينصرف الذهن إلا إلى سورة الفاتحة!

فصل
اللّيَاذَةُ في الاستعاذةِ

الاستعاذة حصن المؤمن: لأن من استعاذ بالله تعالى أعاذه، وهي إشعار لفقر العبد، إذ يستشعر حاجته إلى إجارة ربه، ولما قد استعاذ بربه ومولاه، وهي قرين التوحيد، إذ ليس يجد مسلم في ذات نفسه ملجأ إلى الله إلا إليه تعالى وحده، ولما قد أحاط به شرار ما خلق، أو شر غاسق إذا وقب، أو شر النفاثات في العقد، أو شر حاسد إذا حسد، كما قال تعالى ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ *وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾[الفلق:١-٥].

وهي من خصوصيات هذا الدين: إذ لا أعرف أن دينا سماويا أو آخر أرضيا ضمنته الاستعاذة، غير هذا الدين! وما ذاك إلا لأنه مهيمن على ما سواه.

وهي زاد المؤمن إلى ربه: وإذ لما أيقن افتقاره إليه تعالى، ومن ثم لاذ به واستعاذ، وإذ به وكأن مُلْكاً آخر قد فازه وتملكه، وإذ به تراه وقد حاز القسط الأوفر من العطاء، وإذ به وكأن غنى آخر يكتسيه، لتراه به أغنى الأغنياء، ولأنه قد تلبس غنى قد اصطفاه به ربه وأولاه ﴿**فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الحجرات: ٨].

وهي معقل التحصين: ومصل الأدواء، وهي ملجأ المؤمنين إلى ربهم الرحمن الرحيم رب العالمين، أن يستعيذوا به تعالى من عدوه وعدوهم. وهي علاج الشياطين، وهي حجاب من عداوتهم، وإنها لدثار من غوايتهم، وهي سلاح فتاك في مواجهتهم، وجندهم أجمعين، وهي اعتصام بحبل الله المتين، واستمساك بالطريق المستقيم، والسبيل المستبين، وإنها لدليل حاجة فوق الحاجات، وعنوان عوذ لعونه تعالى رب الأرضين ورب السماوات، وإنها لطريق لإجارته وعصمته ونجاته، من كيد الشيطان ونزغاته.

وإنها لخبر أدى معنى الدعاء: ازديادا في إظهار مدى العوز إلى عونه تعالى، وفي إظهار مدى العوذ به سبحانه، وإمعانا في تحقيق اليقين بالله، إذ لا معيذ لمسلم أو غيره سواه. وفيها معنى الاستجارة بالله وحده، ومن سائر ما خلق، وهي حرز المسلم من إيقاع في كمين، قد نصب له، وهي وقاية لمسلم، من فخ قد حفر له، على جنبات طرقه، وعلى قارعات سبله.

ويالها من مهمة هي الاستعاذة، ولما كان ذا هو شأنها! ولأجل هذا حظيت باهتمام القرآن العظيم، حتى إنك لتجدهم يبدأون بها قراءتهم امتثالا لقول الله تعالى ربهم الحق سبحانه ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:٩٨]. استشعارا لها كل حين، واستحضارا لها كل آن.

وكان من معنى الاستعاذة أنها تحرز وتحصن ونجاة، كما قال أحدهم" اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها يدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا، كما يسمى ملجأ ووزرا، وفي الحديث أن ابنة الجون لما أدخلت على

النبي فوضع يده عليها قالت أعوذ بالله منك، فقال لها: قد عذت بمعاذ الحقي بأهلك"(١). فمعنى أعوذ ألتجيء وأعتصم وأتحرز"(٢).

والاستعاذة: الاستجارة، وتأويل قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويكأنه يقول" أستجير بالله غيره من سائر خلقه من الشيطان، أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق يلزمني لربي"(٣).

وهي الامتناع بالله مما يسوؤه: وهي اعتصام به تعالى مما به ضرره، إذ "ومعنى (استعذ بالله) امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ، والعياذ، والمعاذ؛ وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ**»(٤).

وهي وإن كانت خبرا بمعنى الدعاء، كما قيل: " والظاهر أنه خبر معناه الدعاء يعني: اللهم احفظني من وسوسته وإغوائه وخطواته وخطراته وتسويله وإضلاله، فإنه السبب في الضلالة والباعث على الغواية والجهالة، وإلا ففي الحقيقة أن الله هو الهادي المضل، إلا أنها تختص بالاستعاذة مما به شر، في حين أن الدعاء يعم ما به نفع ليتحصله، أو مما به ضر ليقيه الله تعالى منه، فإن" الدعاء أعم من الِاستعاذة، فهو لجلب الخير أو دفع الشر، والاستعاذة دعاء لدفع الشر"(٥).

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية: ٤٢٦/٢
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير: ج٧٦/١
(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ابن القيم: ٩٥
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق/العظيم آبادي: ج / ١٠٥
(٥) تفسير ابن كثير: ج١٩/١

و" الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير. وقيل مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار . ومنهم من يقول كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب "(١). و"فعيل بمعنى مفعول أي المطرود من باب الله ، أو المشتوم بلعنة الله"(٢).

فهذا هو الشيطان، وهذه هي الاستعاذة، و"من استعاذ بالله صادقًا أعاذه"(٣). ودلك على صدق ما أقول، أن نبي الله نوحا عليه السلام حينما قال: ﴿**أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** [هود:٤٧]، فإنه تعالى أعطاه حين استعاذ خلعتين، السلام، والبركات، كما قال تعالى ﴿**اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**﴾ [هود:٤٨].

ولأن نبي الله يوسف عليه السلام لما قال ﴿**مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي**﴾ [يوسف:٢٣]، فقد أعطاه تعالى أيضًا مزيتين، فصرف عنه السوء والفحشاء، كما قال تعالى ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾[يوسف:٢٤]. ،وأيضًا حينما قال ﴿**مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** ﴾ [يوسف:٧٩]. فإنه تعالى أيضا أعطاه الله سمتين، رفع أبويه على العرش، وخروا له سُجدا.

ومنه قوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام ﴿**أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [البقرة:٦٧]، لما قالوا له: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ [البقرة:٦٧] في أمر القتيل الذي أمرهم بضربه ببعض البقرة كما في قوله تعالى ﴿**فَقُلْنَا**

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق/العظيم آبادي1/496
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، الغرناطي الكلبي: ج ١ /٣٠
(٣) تفسير الرازي، الرازي: ج ١ / ٧٢

اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣]، فأعطاه الله تعالى ميزتين هما، إزالة التُهمة، وإحياء القتيل، ومنه أيضا قوله تعالى على لسانه عليه السلام **﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾** [الدخان:٢٠]، لما قاله لفرعون، وفي الآية الأخرى **﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾** [غافر:٢٧]، فأعطاه الله جائزتين، فأفنى عدوه، وأورثهم أرضهم وديارهم.

ومنه أيضًا امرأة عمران حينما قالت **﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** [آل عمران:٣٦]، فأعطاها الله منحتين، كما قال تعالى **﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾** [آل عمران:٣٧]، وكذلك السيدة مريم عليها السلام، لما رأت ملك الوحي جبريل عليه السلام، في صورة كهيئة البشر **﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا﴾** [مريم:١٨]. فتحصل لها نعمتان، فهذا الولد من غير أب، وكذا قد برأها الله تعالى عن السوء، وعلى لسان ولدها، كما قال تعالى **﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾** [مريم:٣٠](١).

وهاك معنى لطيفا أشار إليه الإمام الطبري رحمه الله تعالى، إذ قال "وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقا، لم يكن للثواب على

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٧٣/٢٤

الاحسان راجيا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة" (١).

فمن لا يرجو إحسانا، فهذا هو المستعاذ منه ومن نفخه، ومن لا يخاف عقابا فهذا هو المستجار بالله تعالى منه ومن نفثه.

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي أسيد رضي الله عنه، قال : **"خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى انطلقنا إلى حائط يقال : له الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين، فجلسنا بينهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اجلسوا ها هنا ودخل، وقد أتي بالجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها، فلما دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: هبي نفسك لي قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ؟ قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: قد عذت بمعاذ ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد، اكسها رازقيتين، وألحقها بأهلها وقال الحسين بن الوليد النيسابوري، عن عبد الرحمن، عن عباس بن سهل، عن أبيه، وأبي أسيد، قالا: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين"** (٢).

---

(١) المرجع السابق: ج ٣٧٣/٢١
(٢) صحيح البخاري : ٤٩٧٦

فصل
رفع الباس بالاستعاذة من الخناس

ولأن الله تعالى قد أمر أن نتخذ الشيطان عدوا، ولأن ذلك من سبب سابق عداوته، ومنه فقد لزمت مواجهته، بالاستعاذة بالله تعالى من وسوسته، كيما يكون العبد على بينة من أمرها ليحذرها، ولفائدة أن يسلك طريقا فيه منه نجاته، وأن يطرق سبيلا فيه منه الفرار.

قال الله تعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[النحل:٩٨].

قال القرطبي رحمه الله تعالى : " أي إذا أردت أن تقرأ ؛ فأوقَعَ الماضي موقع المستقبل ، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ (النجم: ٨) المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله ﴿**ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ**﴾ (القمر: ١) وهو كثير "(١).

ومنه قوله تعالى ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف : ٢٠٠]. فإنه " يعني جلّ ثناؤه بقوله: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدّك عن الإعراض عن الجاهلين ويحملك على مجازاتهم (**فاسْتَعِذْ باللهِ**)

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥٣/١

يقول: فاستجر بالله من نزغه. (**إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزع الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك ولاستعاذتك به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه "(١).

والحمام بيته، لذا وجبت الاستعاذة منه حال دخوله، فقد "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الخَلاَءَ قَالَ : **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ**"(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " فإن الحش مع أنه مظنة النجاسة فإن الشياطين تحضره كما قال صلى الله عليه وسلم (إن هذه الحشوش محتضرة) و أمر عند دخولها بالتسمية والاستعاذة من الشيطان الرجيم، وكذلك الحمام فإنه مع أنه مظنة النجاسة، فإنه بيت الشيطان، كما جاء في الأثر الذي ذكرناه في الطهارة أن الشيطان قال : أي رب اجعل لي بيتا قال: بيتك الحمام . و هو محل للخبث و الملائكة لا تدخل بيتا فيه خبث(٣)

وحديث الحشوش هو "**إنَّ هذه الحُشوشَ مُحتَضرةٌ، فإذا أتى أحَدُكم الخلاءَ فلْيَقُلْ: أعوذُ باللهِ مِن الخُبُثِ والخبَائثِ**"(٤).

وقال المناوي رحمه الله تعالى: " وحضور الشيطان مظنة الوسوسة والطغيان وعصيان الرحمن فناسب التعوذ لدفع ذلك "(١).

---

(١) تفسير الطبري : ج٦/١٥٥
(٢) صحيح البخاري:١٤١
(٣) درء التعارض: ٤/٤٥٥
(٤) سنن أبي داود: ٦. وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: كل ما سَكَتُّ عنه فهو صالح.

والاستعاذة بكلماته تعالى حرز من الشيطان، وأمان من الاعتداء. للحديث **"أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يُعلِّمُهُم منَ الفزَعِ كلِماتٍ: أعوذُ بِكَلماتِ اللهِ التَّامَّةِ، من غَضبِهِ وشرِّ عبادِهِ، ومن هَمزاتِ الشَّياطينِ وأن يحضُرونِ"**(٢).

و" (أعوذ) أي أعتصم (بكلمات الله) كتبه المنزلة على رسله أو صفاته، وقد جاءت الاستعاذة بها في خبر أعوذ بعزة الله وقدرته، والتأنيث للتعظيم، (التامة) الخالية عن التناقض والاختلاف، (من غضبه) سخطه على من عصاه وإعراضه عنه، (وعقابه) عقوبته (ومن شر عباده) من أهل الأرض وغيرهم، (ومن همزات الشياطين) نزغاتهم ووساوسهم، وأصل الهمز الحث، ومنه همز الفرس بالمهماز، ليعدو، وشبه حث الشياطين على الإثم بهمز الراضة الدواب على المشي، وجمعها باعتبار المرات، أو لتنوع الوسواس، أو لتعدد الشياطين، (وأن يحضرون) أي يحومون حولي في شئ من أموري، لأنهم إنما يحضرون بسوء "(٣).

وقال في الفتاوى " و «كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر» هي التي كوَّن بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته. وأما «كلماته الدينية» وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار، وعصاها الفجار "(٤).

---

(١) فيض القدير ٣٨١/١
(٢) صحيح أبي داود: ٣٨٩٣
(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج ٣٧١/١

(٤) الفتاوى ٢٢١/١١

وقال المباركفوري رحمه الله تعالى:" أعوذ بكلمات الله التامة أي الكاملة الشاملة الفاضلة وهي أسماؤه وصفاته وآيات كتبه وعقابه أي عذابه شر عباده من الظلم والمعصية ونحوهما ومن همزات الشياطين أي نزغاتهم وخطراتهم ووساوسهم وإلقائهم الفتنة والعقائد الفاسدة في القلب وهو تخصيص بعد تعميم وأن يحضرون بحذف الياء وإبقاء الكسرة دليلا عليها أي ومن أن يحضروني في أموري كالصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك لأنهم إنما يحضرون بسوء فإنها أي الهمزات لن تضره أي إذا دعا بهذا الدعاء وفيه دليل على أن الفزع إنما هو من الشيطان"(١).

و"(بكلمات الله التامة) أي الخالية عن العيوب أو الوافية في دفع ما يتعوذ منه (وهامة) بتشديد الميم وهي كل ذات سم (ومن كل عين لامة) أي ذات لمم وهو القرب من الشيء "(٢). و(هي الكاملة الشاملة الفاضلة وهي أسماؤه وصفاته وآيات كتبه)(٣). و"الفاضلة التي لا يدخلها نقص"(٤).

وقد" كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعوِّذُ الحسنَ والحسينَ ، يقولُ : **أعيذُكُما بِكلماتِ اللهِ التَّامَّةِ ، مِن كلِّ شيطانٍ وَهامَّةٍ ومن كلِّ عينٍ لامَّةٍ**"(٥). و "الهامة بتشديد الميم : وهي كل ذات سم يقتل كالحية وغيرها ، والجمع : الهوام ، قالوا : وقد يقع الهوام على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالحشرات، ومنه حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه " أيؤذيك هوام

---

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري: ج ٣٥٦/٩
(٢) عون المعبود، العظيم آبادي، ج ٤٥/١٣
(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ج١٠، المباركفوري: ج٣١٣/١٠
(٤) الموطأ، الإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، أبي عبد الله مالك :ج٥٩٦/١
(٥) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٠٦٠

رأسك ؟ " أي : القمل ، وأما العين اللامة بتشديد الميم : وهي التي تصيب ما نظرت إليه بسوء."(١).

وأشد وسواسه حين صلاة العبد، وهو إذ مقبل على مولاه الرحمن سبحانه، والشيطان إنما يغتاظ لذلكم أيما غيظ! للحديث "أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**"(٢). و" أما (خنزب)فبخاء معجمة مكسورة ثم نون ساكنة ثم زاي مكسورة ومفتوحة ، ويقال أيضا بفتح الخاء والزاي ، حكاه القاضي ، ويقال أيضا بضم الخاء وفتح الزاي ، حكاه ابن الأثير في النهاية ، وهو غريب . وفي هذا الحديث استحباب التعوذ من الشيطان عن وسوسته مع التفل عن اليسار ثلاثا ،ومعنى (يلبسها) أي يخلطها ويشككني فيها ، وهو بفتح أوله وكسر ثالثه ، ومعنى (حال بيني وبينها)أي نكدني فيها ، ومنعني لذتها ، والفراغ للخشوع فيها"(٣).

وقال الـخطابـي: قوله " (ساكن البلد) هم الجن الذين هم سكان الأرض، والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل. قال:

---

(١) الأذكار، النووي:١٣١/١
(٢) صحيح مسلم: ٤٢٠٠
(٣) شرح النووي على مسلم: ٣٤٢/٧

ويحتمل أن يكون المراد بالوالد: إبليس، وما ولد: الشياطين، هذا كلام الخطابي، والأسود: الشخص، فكل شخص يسمى أسود"(١).

ودفع وساوس الشيطان إنما يكون بالاستعاذة منه أبدا، وحين حلت وسوسة أو أحاقت إيعازة. ولأن ذلك قطع لطريق إبليس، وحيث يبلغ به وسواسه إلى أن يتساءل على لسان العبد، مالم يؤمن به بداهة، أو لم يركن إليه نهاية.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : " قوله: (من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) أي عن الاسترسال معه في ذلك، بل يلجأ إلى الله في دفعه، ويعلم أنه يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوَسْوَسَة، فينبغي أن يجتهد في دفعها بالاشتغال بغيرها، ، قال الخطابى : وجه هذا الحديث أن الشيطان إذا وسوس بذلك فاستعاذ الشخص بالله منه وكف عن مطاولته في ذلك اندفع . قال: وهذا بخلاف ما لو تعرض أحد من البشر بذلك فإنه يمكن قطعه بالحجة والبرهان قال: والفرق بينهما أن الآدمي يقع منه الكلام بالسؤال والجواب والحال معه محصور، فإذا راعى الطريقة وأصاب الحجة انقطع، وأما الشيطان فليس لوسوسته انتهاء، بل كلما ألزم حجة زاغ إلى غيرها إلى أن يفضي بالمرء إلى الحيرة، نعوذ بالله من ذلك "(٢).

و" الشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الإنتقام ويزينه له فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثر

---

(١) الأذكار النووية: ٢٢٦
(٢) شرح صحيح البخاري (مصابيح الجامع الصحيح)، الدماميني: ج٧/٧٨

الله تعالى وما عنده على حظه العاجل فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** "(١).

والمعوذتان حصن منه منيع، ووقاء منه ذريع. كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى "وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ [الفلق:٥]. فهذا استعاذة من شر النفس، وقال تعالى﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ*مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ [الناس:٦]. فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شأنهما في الشر والفساد، والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقه وينتابه، وأول ما يدب فيه السقم، من النفس الأمارة، من الشهوة، وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب، ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط، فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه، فيعوده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات، ويخيل إليه بسحره أن شفاءه فيها، ويتفق ضعف القلب بالمرض، وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما، وأنه نقد حاضر، ولذة عاجلة، والداعي إليه يدعو من كل ناحية، والهوى ينفذ، والشهوة تهون، والتأسي بالأكثر والتشبه بهم، والرضا بأن يصيبه ما

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية :ج٢/٤٩٠

أصابهم، فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعي الإيمان ومنادي الجنة إلا من أمده الله بإمداد التوفيق، وأيده برحمته، وتولي حفظه وحمايته، وفتح بصيرة قلبه، فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم، وأنها في الحياة الدائمة كغمس إصبع في البحر بالنسبة إليه "(١).

(١) الروح، ابن قيم الجوزية :ج١/ ٢٣٢

فصل

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٨]

نصت الآية الكريمة على أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله تعالى. وعلى هذا كان اعتقاد ذلك دينا فوق أنه حق، ودلك عليه أن الاستعاذة لا تتأتى إلا بقوة قاهرة قادرة، وقد كان في عقد الحنفاء أن هذه القوة القادرة ليست لتكون إلا لله تعالى، ومنه فقد اختصت الاستعاذة به وحده دون سواه -سبحانه-. وقد علم الله تعالى أن عبيده مربوبون، ومن ربوبيته لهم ألا يستعاذ إلا به، ولا أحد في الكون بقادر أن يلاذ به كما الله تعالى، فرارا مما سواه إليه تعالى، ومنه كانت عبودية الخلق متأتية على بابها يوم أن كانت الاستعاذة به سبحانه وتعالى وحده دليل ضعف العبد، وبرهان فقره إلى ربه الرحمن سبحانه، ودليل قوة وقدرة في جانب الرب سبحانه وتعالى.

وقد تركز في أذهان الحنفاء أن الاستعاذة بغيره تعالى إنما هي إلى بوار، كما أن اللجأ إلى سواه تعالى مآله إلى خسار، ألم تر أن الله تعالى قال ﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ [الجن: ٦].

فالاستعاذة بغيره تعالى مما لايقدر عليه سواه سبحانه، تعد من الشرك، الذي نهى الله تعالى عنه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا يستعاذ الا بالله أو بصفة من صفات ذاته"(١).

ومنه الحديث "عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ضع يدك على الذي تألم من جسدك ، وقل باسم الله ثلاثا ، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**"(٢)٠ إذ إنه أمره بالاستعاذة بعزة الله وقدرته، والعزة من صفات الله تعالى، وهي ليست مخلوقة.

وقال الحافظ بن حجر" لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق"(٣). وقال الخطابي" كان أحمد يحتج بحديث(أعوذ بكلمات الله التامات) بأن النبى لا يستعيذ بمخلوق"(٤).

ومن ذلك أيضًا الاستعاذة بأصحاب القبور، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيدًا عنهم(٥).

أما الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فإنها جائزة، وهو مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من**

---

(١) فتح الباري - ابن حجر: ٥٤٦/١١
(٢) صحيح مسلم: ٤١٩٩
(٣) فتح البارى: ابن حجر: ج٣٨١/١٣
(٤) المرجع السابق: ج٤١٠/٦
(٥) مجموع فتاوى ورسائل، ابن العثيمين: ج ٢٤٢/٩

الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد منها ملجأ ، أو معاذا ، فليعذ به"(١).

فالاستعاذة إذاً لا تكون إلا بالله تعالى. فيما لا يقدر عليه سواه سبحانه. وأما ما قدر عليه العباد بينهم البين فالأمر فيه واسع ولله الحمد.

وقد سار الأولون من أهل العلم والصالحين على ذلكم الاعتقاد، وتركوا لنا ذخرا عظيما مما يعتد به سندا في أثناء مسيرة حافلة على طريق الحق والهدى، استعاذة بالله تعالى، من الشيطان الرجيم ومن همزه ونفخه ونفثه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:" فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَلِفَ بِصِفَاتِهِ كَالْحَلِفِ بِهِ كَمَا لَوْ قَالَ: وَعِزَّةِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَوْ: وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ جَوَازُ الْحَلِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ وَنَحْوِهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ؛ وَلِأَنَّ الْحَلِفَ بِصِفَاتِهِ كَالِاسْتِعَاذَةِ بِهَا – وَإِنْ كَانَتْ الِاسْتِعَاذَةُ لَا تَكُونُ إلَّا بِاَللَّهِ فِي مِثْلِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **{أَعُوذُ بِوَجْهِك} {وَأَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ} {وَأَعُوذُ بِرِضَاك مِنْ سَخَطِك}** وَنَحْوِ ذَلِكَ – وَهَذَا أَمْرٌ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ"(٢).

وقال رحمه الله تعالى أيضا: " إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه وصفاته، ولهذا احتج السلف ـ كأحمد وغيره ـ على أن كلام الله غير مخلوق فيما

---

(١) صحيح البخاري: ٦٧٠٥
(٢) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية :٢٧٣/٣٥

احتجوا به بقول النبي صلى الله عليه وسلم:**(أعوذ بكلمات الله التامات)**، قالوا: فقد استعاذ بها، ولا يستعاذ بمخلوق"(١).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: " المستعاذ به هو الله ... وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس إله الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا، فقال حكاية عن مؤمني الجن ﴿ **وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ﴾ جاء في التفسير أنه : كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أي طغيانا وإثما وشرا يقولون سدنا الإنس والجن . والرهق في كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم . فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن "(٢).

ومنه قوله تعالى ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ*وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ [المؤمنون :٩٧-٩٨]، ليدلك على تخصيص الاستعاذة به تعالى وحده، وهو ما يشي به ضمير الخطاب في قوله تعالى(بك)، وتكرار لفظ الفعل المضارع(وأَعُوذُ) فيه ضرب من هذا، إضافة إلى أنه يتناول زمنيه الحال والاستقبال، دلالة على كون استعاذة العبد بربه تعالى وحده تكون

---

(١) المرجع السابق: ج ٣٣٦/١
(٢) بدائع التفسير، ابن القيم: ج٣٩٢/٣

لازمة أبدا، و" الهمزات: جمع همزة وهي المرة من فعل الهمز، وهو في اللغة: النخس والدفع، وهمزات الشياطين: نخساتهم لبني آدم ليحثوهم، ويحضوهم على المعاصي "(١).

وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون ، وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث ، وقد يقال وهو الأظهر إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعا خاصا كنظائر ذلك ثم قال ﴿ **وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ قال ابن زيد : في أموري . وقال الكلبي : عند تلاوة القرآن . وقال عكرمة : عند النزع والسياق . فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوهم منه فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه "(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : " والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز، ويسلط عليه عدوه، فيدعوه إلى الإنتقام، ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه، ولا يحسن، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله تعالى، وما عنده، على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض، فقال فيه﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [فصلت:٣٦] (٣) .

وقال أيضا : " فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي: ج ٥ / ٣٥٣
(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم: ١/ ٩٥
(٣)

الخلقين العظيم شأنهما في الشر والفساد والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقه وينتابه " (١).

(١) الروح، ابن قيم الجوزية:٢٣٢/١

فصل

الحكمة من الاستعاذة

وإنما يستعاذ بالله من الشيطان الرجيم لفتنته: كما قال تعالى ﴿ **يا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ** ﴾ [الأعراف : ٢٧]. ومن فتنته أن كان سببا في إخراج أبوينا من الجنة. ومن فتنته خداعه لبني آدم، بإبداء سوءاتهم، ومن سبب خلع لباسهم! وهو أمر في الفطرة لمجرم، وهو أمر في الشرائع لمحرم! وهو نوع خروج عن مألوف الفطرة السوية، التي خلق الله تعالى عبيد عليها، وهو أمر منكر في حسابات العقلاء، الذين من الله تعالى عليهم تمييزا بين ما هو من أصول الأدب والأخلاق وبين ما هو خارج عن معهود ذلكم أبدا. وهو من مثل ما قال الطبري رحمه الله تعالى " يا بني آدم لا يخد عنكم الشيطان فيبدي سوآتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختباره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخدعه من الجنة، ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس ليريهما سوآتهما بكشف عورتهما وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة "(١). ومنه فكان حريا بستر العورات والاحتشام؛ لأن ذلك من مروءات أهل الشيم النبيلة، ولأن ذلك من نعوت أهل القيم الأصيلة.

---

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٨ / ١٩٩

وإنما يستعاذ بالله من الشيطان الرجيم لعداوته: وما ينشأ عنها ضرورة من نصب حبائله، وما ينتج عنها من إحداث كمائنه، ومن أنه غايته ماكرة، ومن أن وسائله فاجرة، إذ كان مبتغاه إضلال عبيده تعالى ليحشروا معه في زمرة الكافرين، كما قال تعالى ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر :٦] ، ولأنه عدو" فاتخذوه عدوا. أي فعادوه ولا تطيعوه "(١).

ومن عدواته لكم " إخراجه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم في قول: " **ولأضلنهم ولأمنينهم** " [النساء: ١١٩] الآية. وقوله: " **لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم** " [الأعراف: ١٦ - ١٧] الآية. "(٢). ومنه قوله تعالى ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف :٥٠].

وإنما يستعاذ بالله من الشيطان الرجيم لكذبه: وإنما كانت جريرة كذبه أعظم؛ لأنه كذب على الله تعالى، ولما أقسم له تعالى أنه لآدم عليه السلام لمن الناصحين، وقد كذب، وقد افترى، كما قال تعالى ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص : ٨٢-٨٣]، وإن كان قد كذب على الله تعالى، فكيف به مع عبيده من خلقه، وكيف به مع أصفيائه من عباده؟!

وإنما كانت عداوته لاتباعه طرقه: والوقوف في وجوههم على كل سبيل، وقد أقسم على ذلك إمعانا في التحدي لله تعالى الذي خلقه، والله المستعان،

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٤ / ٣٢٣.
(٢) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٤ / ٣٢٣.

كما قال تعالى ﴿ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف:١٧]، و" الشيطان عدو. وحذر الله منه إذ لا مطمع في زوال علة عداوته. وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم. فيأمره أولا بالكفر ويشككه في الإيمان فإن قدر عليه وإلا أمره بالمعاصي. فإن أطاعه وإلا ثبطه عن الطاعة. فإن سلم من ذلك أفسدها عليه بالرياء والعجب"(١).

وإنما كانت الاستعاذة احترازا من شر وسوسة إبليس: "ومعلوم أن الوسوسة كلام خفي في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأن العبد يقول: يا من يسمع كلَّ مسموع، ويعلم كلَّ سر خفي أنت تعلم وسوسة الشيطان، وتعلم غرضه منها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك؛ فلهذا السبب كانت الاستعاذة يقترن بها كثيرا اسما السميع العليم {**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**} [الأعراف:٢٠٠]. {**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**}[فصلت: ٣٦](٢).

ومن حكمتها طهارة الفم: مما يمكن أن يتعاطاه المرء من اللغو والرفث، ومن أجل ذلك كانت في مقام تطييبه، وتهيوئه لتلاوة كلام الله تعالى.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي:ج٤٧/١

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي (٧٧٥ هـ - ٨٨٠ هـ): ج ١٠/١

وإنه لما كانت "القواطع عن الله أربعة: الشيطان والنفس والدنيا والخلق فعلاج الشيطان الاستعاذة، والمخالفة له، وعلاج النفس بالقهر، وعلاج الدنيا بالزهد، وعلاج الخلق بالانقباض والعزلة"(١).

ومن حكمتها استعانة العبد بالله تعالى: واعتراف له بالقدرة، واعتراف للعبد بضعفه أمام قدرة ربه سبحانه، وإقرار بعجزه عن مقاومة عدوه وحده إلا بمعونة ربه ومولاه، ولما كان عدوا خفيا غير ظاهر، وقد علم العبد أن " الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعه، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، وقال تعالى: {**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا**} [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طرِيدًا، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجورًا، ومن قهره العدو الباطن كان مفتونا أو موزورًا، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان(٢).

وقال أحدهم " ومن لطائف الاستعاذة أن قوله: أعوذ باللهَّ من الشيطان الرجيم إقرار من العبد بالعجز والضعف، واعتراف من العبد بقدرة الباري عز وجل وأنه الغني القادر على رفع جميع المضرات والآفات، واعتراف العبد أيضاً بأن الشيطان عدوّ مبين. ففي الاستعاذة التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغويّ الفاجر وأنه لا يقدر على دفعه عن العبد

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، الغرناطي الكلبي: ج ١ / ٣٠
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير القرشي الدمشقي: ج١/١١٤

إلا الله تعالى "(١).

وقال في التسهيل لعلوم التنزيل " من استعاذ بالله صادقا أعاذه فعليك بالصدق ألا ترى امرأة عمران لما أعاذت مريم وذريتها عصمها الله ففي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**ما من مولود إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا إلا ابن مريم وأمه**) " عن أبي هريرة ، **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه** }"[٩].

(١) تحفة الحبيب على شرح الخطيب، البجيرمى على الخطيب: ج ٢١٧/٢

فصل
الفرقان في بيان عداوة الشيطان

ولأن الشيطان عدو، وقد كانت عداوته مبتدأة بأنبياء الله تعالى ورسله، كما قال تعالى ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾[الأنعام:١١٢]. ومنه فإنه يكون عدوا وبكل حال لمن هم دونهم من أقوامهم، ولمن هم من غيرهم، من شرائح الجن، وفئات الإنس، كما قال تعالى ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[الناس: ٤ ـ ٦]. فإنه وبنص الآيتين يكون عدوا لجنس الإنس قاطبة، ولطرائق الجن القدد كافة.

ومن حيث عداوة الشيطان فإن أصل معناه يستلزم أن يكون خادما لهذا المعنى أيضا. وذلك بقطع النظر عن أن المراد به جنسه أو أن المراد به عهده.

وإنما كان الشيطان عدوا، ولذا فقد حذر الله تعالى منه، إذ لا يطمع أحد في زوال سبب هذه العداوة، وما ذاك إلا لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما في الحديث أن" **أن النبي صلى الله عليه وسلم أتته صفية بنت حيي فلما رجعت انطلق معها، فمر به رجلان من الأنصار فدعاهما، فقال: إنما هي صفية، قالا: سبحان الله، قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم** "(١).

---

(١) صحيح البخاري: ٦٧٨٨

وإن من بادئ عداوته أنه يأمر أول ما يأمر أتباعه فإنما يأمرهم بالكفر أولا، ومن ثم يبعث في قلوبهم الشك في الإيمان بالله تعالى، فإن قدر عليه فقد أدى، وإلا فإنه يوسوس لهم بالمعاصي، ويزين لهم صنوف الفسق والآثام والخطايا، إمعانا في إذلالهم وإخضاعهم، والله المستعان.

فإن أسلم العبد نفسه لهوى الشيطان وأطاعه، فقد قام بموجب ما امتهنه له، وقد أدى ما أغواه به، وإلا إنه يثبطه عن الطاعة، فلا يكون في فؤاده محبة لذكر، أو رغبة في خشوع، أو بقية من أمل يأخذ العبد إلى مراق الصعود والعلو والرفعة، فإن سلم من ذلك أفسدها عليه بالرياء والعجب.

ولما كان الشيطان مرادا به جنسه، ومنه فتكون الاستعاذة من جميع الشياطين، أو أن المراد به العهد، فتكون الاستعاذة من إبليس...

وانظر إلى كيده، وكيف أن عداوته تكون نابعة من تزيين قوله، ومن زخرفة وسواسه، كما قال تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام:١١٢].

ومنه فإن الشيطان ليس خاصا بإبليس وحده كما قد يتبادر، بل إن معناه أوسع وأعم، وإن فحواه أشمل وأتم، فإن كل عاتٍ متمردٍ من الإنس أو الجن أو الدواب ليعد شيطانا، وهو الذي تنص عليه الآية سالفة الذكر، فإن أعداء الرسل هم من جنس الناس، كما أن منه أعداء الدعوات عموما، فإنهم أناس ينطقون، وإنما هم في زي قوم يتكلمون. وإنما كان تزيينه إيحاءً، وإنما كان وحيه زخرف القول غرورا! كما قال تعالى ﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام:١١٢]. وإنما كان وسواسا، كما قال تعالى

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[الناس: ٤ ـ ٦]. وإبليس هو إمام الشياطين وقائدهم.

وثمة وقفة تأملية؛ ذلك أنك تلحظ عجبا! إذ أسمى الله تعالى إيحاء الشيطان زخرف القول؛ وليس يمكن إلا أن يكون هذا ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾!

وأزيد إيضاحا فأقول: إنه كان يمكن أن يكون نص النظم هكذا(من زخرف القول) أي مسبوقا ب(من) التبعيضة، أو يمكن أن تكون هي (من) الجنسية، ولكنه لما قد علم الله تعالى أن إيحاء الشيطان يكون متلبسا بصنوف التزيين والإيعاز على اختلافها، فقد جاء النظم متوافقا مع ذلك، بحيث كان ذلكم هو زخرف القول (كله)، بحيث يمكن القول إنه لم يتبق زخرف لقول إلا وقد زينه، وإنه لم يترك بابا للشر إلا وقد حسنه، وبحيث قد أتى الشيطان على ما للمعاني من تزيين في عيون من أوحي إليهم بخيله ورجله، حتى ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩]. ، وإلا فقل لي بالله عليك كيف كان يمكنه ذلكم الاستحواذ إلا أن تكون له سبله التي بها يستحكم على عقول القوم، ويستغلق عليهم قلوبهم وأفئدتهم، وذلك بقطع النظر عما يرونه حقا أو باطلا، ولطالما قد أخرج في زي مزين ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾[النور:٣٩]. ، أو هكذا قد تشكل في عيونهم من سحره وخيله ورجله، والله المستعان. وهو ما يوجب حذرا، وهو ما يحتم انتباهة من كيده، ولاغرو فإنه كيد الشيطان!

هذا؛ وملحظ آخر جدير بالوقوف والتأمل؛ ذلك لأن الشيطان ولما قد زخرف، وبكل ما يحمل معنى الزخرفة، من صنوف الإيعاز والتخييل، إلا أنه أيضا لينسحب على ما للقول نفسه من ذلكم حظ أو نصيب؛ فإن قلت : كيف؟ قلت لك: إن ذلكم التزيين، وإن ذلكم الزخرف إنما قد انسحب على القول كله هو الآخر، وبحيث يمكن القول ألا ثمة بقية من قول إلا وقد أتى الشيطان علي تلبيسها على الناس. والله المستعان!

ولعل قولا مقتضاه: ولم كل ذلك؟!

وأقول: كفى بقوله تعالى (غرورا) أن يكون سندا لاتخاذ الشيطان الرجيم عدوا، ومن باب أنه شيطان، ومن باب أنه رجيم، ومن باب أنه يزين للناس قوله زخرفا، وما كل ذلك إلا لأن غروره بالناس ليغتروا بقوله، وليتأثروا بتزيينه، فينشر لهم حبائل وسواسه، وينصب لهم كمائن إضلاله، فيقعوا بسببه في الغواية، ويبتعدوا من موجبه عن الهداية.

وما كل ذلك إلا من كونه كان شيطانا رجيما، كما قال تعالى﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ** ﴾ [التكوير: ٢٥]. وقد أراد للأغيار أن يكونوا من مثله مرجومين، وإلا من كونه كان لعينا، وقد أراد لمن سواه أن يكونوا من الملعونين، وإلا من كونه صار طريدا، وقد أراد لغيره أن يكونوا من المطرودين، وهذا مما يناسبه وضعا لوظيفته، وهو مما يلائمه محلا لمهنته، ولذا؛ فلا غرو أن يخلق الله تعالى من خلقه ما كان له رجما وردا، كما قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا**

لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك:٥]. وذلكم فضلا عن أمره تعالى إذ يقول﴿ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾** [ص: ٧٧].

ولما كان أصل الرجم هو الرمي بالحجارة، والمطرود إنما يرجم بالحجارة، لإبعاده أو قتله أو التخلص من شره؛ ذلك لأنه مكروه لسوء فعله، فإن الناس إذا نبذوا أحداً وكرهوه وأرادوا إبعاده والتخلصَ منه وإهلاكَه رجموه بالحجارة، ومنه استعير الرجيم.

والرجيم هو المهان، وهو المحتقر، وهو المطرود من كل خيرٍ، والمحروم من كل كرامةٍ، وهو المبعد عن منازل الملأ الأعلى؛ كما قال تعالى﴿ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** ﴾ [ص: ٧٧]، وهذا إنما يدل على أنه قد بلغ غاية الإجرام، ولذا كان محتقرا مكروها، ومنبوذا مطرودا من كل خير، ومن كل رحمة، ومنه وجب الحذر أن يسلك أحد سبيله، أو أن يأخذ أحد طريقه، فيصير مرفوضا مطرودا ملعونا مبعدا، كما كان مصير سلفه إبليس محروما من منازل الملائكة، وجعل رجيما ملعونا.

ورجيم: فعيل بمعنى مفعول صرف من مفعول إلى فعيل كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، وكفٍّ خَضِيبٍ، أَيْ: مَخْضُوبٌ، وفعيل أبلغ من مفعول لأنه يدل على الثبوت وقوة الوصف مع أنه واقع.

ومن استعاذ بالله صادقا أعاذه، فعليك بالصدق، ألا ترى امرأة عمران لما أعاذت مريم وذريتها عصمها الله تعالى ربها الرحمن سبحانه؟ للحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ،

فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : { **وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** }(١).

والشيطان هو المتمرد العاتي العصِيُّ الآبي الممتلئ شراً ومكراً المتمادي في الطغيان الذي بعُد بطبعه وتمرده عن كل خير وصلاح ورشاد وعن الحق والخير والهدى والرحمة، فهو شرير. و"الشيطان: معروف، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب"(٢).

(١) صحيح مسلم: ٤٤٨٩
(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢٣٨/١٣

فصل
محل الاستعاذة

أمر الله تعالى القارئ بالاستعاذة، قبل القراءة، لقوله تعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:٩٨]. وظاهره قد يُفهم أن الاستعاذة إنما تكون بعد القراءة، وقد نقل عن جماعة من أهل العلم، ونُقل عن حمزة من القُراء(١). وتوجيهه أن الاستعاذة بعد القراءة تكون دافعة للعُجب، حين استشعار القارئ أنه قد قام بعمل صالح، فهذه الاستعاذة تدفع عنه العُجب، وتبقى معه ثمرة القراءة.

وقد حكى الإجماع على ذلك أنها قبل القراءة جمع من أهل العلم كالإمام مكي بن أبي طالب، وخاتمة المُقرئين ابن الجزري، قالوا: إن هذا بالإجماع، وضعفوا ما نُقل عن هؤلاء من السلف وغيرهم، وأن ذلك لا يثبت عن أحد منهم، ولا يصح عنهم شيء من ذلك. سواء ابتدأ أول سورة، أو جزء سورة، على الندب.

وحمل قوله تعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:٩٨].على أن المطلوب أن يستعيذ بعد القراءة، فإنما هو نظير ما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا**﴾ [المائدة:٦]، يعني: أردتم القيام فالوضوء يكون قبل الصلاة، فكذلك إذا أردتم قراءة القُرآن إذا أردت القراءة؛ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم،

---

(١) تفسير ابن كثير (١١٠/١)

وكما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [الأنعام:١٥٢]، يعني: إذا أردتم القول، وكقوله: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الأحزاب:٥٣]، يعني: إذا أردتم سؤالهن فسألوهن من وراء حِجاب، وكقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ [المجادلة:١٢]، يعني: إذا أردتم المُناجاة، وليست الصدقة بعد المُناجاة؛ لأنه كان المقصود بهذه الصدقة كما هو معلوم التخفيف عن رسول الله ﷺ من كثرة النجوى.

فأوقع الماضي يعني: فَإِذَا قَرَأْتَ أوقع الماضي مكان المُستقبل، وقد دلت السنة على أن الاستعاذة قبل القراءة، لحديث أبي سعيد الخدري "**كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ كبَّرَ ثمَّ يقولُ: سُبحانَكَ اللَّهمَّ وبِحمدِكَ، وتبارَكَ اسمُكَ، وتعالى جدُّكَ ولا إلَهَ غيرُكَ، ثمَّ يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ ثلاثًا ثمَّ يقولُ: اللهُ أَكْبرُ كبيرًا ثلاثًا أعوذُ باللهِ السَّميعِ العَليمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ مِن هَمزِهِ، ونَفخِهِ ونَفثِهِ ثُمَّ يقرأُ**"(١).

وهذا أنها تكون بعد القراءة، قول لا يعول عليه، وقد نص بعض أهل العلم على شذوذه، وإنما المقصود أن تكون الاستعاذة قبل القراءة من أجل أن القارئ بحاجة إلى ذلك؛ ليدفع عنه خواطر الشيطان يدفع وسواسه، ليتهيأ للقراءة، ليتطهر لسانه، كما قد تطهر قبل ذلك بالوضوء، فيجمع بين الطهارتين، والله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ [الحج:٥٢]، وقد فُسر ذلك

(١) نخب الافكار، العيني، الصفحة أو الرقم: ٥٢٠/٣. وقال عنه العيني: صحيح.

بالقراءة، يعني: في قراءته، والمخرج من ذلك بالاعتصام بالله تبارك وتعالى من الشيطان، فلا يُفسد عليه قراءته، ولا يُلقي في قلبه الخواطر والوساوس، فيكون القلب محلًا صالحًا للقرآن، وينتفع به .

فتحصل مما سبق أن مَحَلِّ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ الْقِرَاءَةِ على ثَلَاثَةُ أقوال :

١- **أَنَّهَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ:** وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَذَكَرَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ، وَنَفَى صِحَّةَ الْقَوْلِ بِخِلَافِهِ .وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِحديث أبي سعيد الخدري السابق الذكر وكذلك بحديث نَافِعٍ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ [**أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ: أَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**]. وقد دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ التَّقْدِيمَ هُوَ السُّنَّةُ .وأن اَلَّذِينَ نَقَلُوا صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام ذَكَرُوا تَعَوُّذَهُ بَعْدَ الِافْتِتَاحِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ .

٢- قال ابن العربي: قال أبو بكر بن العربي: " انتهى العي بقوم إلى أن قالوا: إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ". وقد روى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة، وهذا نص. فإن قيل: فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا: فائدتها امتثال الأمر، ليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها في امتثالها أمرا أو اجتنابها نهيا، وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة، كما قال تعالى: " ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ [الحج:٥٢] "(١).

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١ / ٨٨

وقال ابن العربي أيضا: " ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:٩٨].قال: ذلك بعد قراءة أم القرآن لمن قرأ في الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يعضده نظر، فإن كان هذا كما قال بعض الناس: إن الاستعاذة بعد القراءة كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن في الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه، فالله أعلم بسر هذه الرواية" (١).

قال القرطبي رحمه الله تعالى : " أي إذا أردت أن تقرأ ؛ فأوقَعَ الماضي موقع المستقبل، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ (النجم: ٨) المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: ﴿ **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ** ﴾ (القمر: ١) وهو كثير"(٢).

---

(١) المرجع السابق: ج ١ / ٨٨
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥٣/١

فصل

الحكمة من الأمر بالاستعاذة قبل القراءة

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : " إن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى " (١).

وقال رحمه الله تعالى أيضا " إن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارئ به فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه . ومنها : أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه والله تعالى أشد أذنا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته . ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته والسلف كلهم على أن المعنى إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته قال الشاعر في عثمان :

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر.

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم: ٩٤/١

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه "(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " الاستعاذة ليست بقرآن ولم تكتب في المصاحف وإنما فيه الأمر بالاستعاذة وهذا قرآن " (٢).

". قَالَ الجصاص: قوله: {**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** } يقتضي ظاهره أن تكون الاستعاذة بعد القراءة، كقوله: { **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا** } [النساء:١٠٣] ولكنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف الذين ذكرناهم الاستعاذة قبل القراءة. وقد جرت العادة بإطلاق مثله. والمراد إذا أردت ذلك كقوله تعالى: { **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** } [الأنعام:١٥٢] وقوله: { **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** } [الأحزاب:٥٣] وليس المراد أن تسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم، وكقوله تعالى: { **إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** } [المجادلة:١٢] وكذلك قوله { **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** } معناه: إذا قرأت فقدم الاستعاذة قبل القراءة، وحقيقة معناه: إذا أردت القراءة فاستعذ، وكقول القائل: إذا قلت فاصدق وإذا أحرمت فاغتسل يعني قبل الإحرام، والمعنى في جميع ذلك إذا أردت ذلك"(٣).

---

(١) المرجع السابق: ٩٣/١
(٢) الفتاوى، ابن تيمية ٣٥١/٢٢
(٣) كتاب أحكام القرآن، للجصاص، ط العلمية:ج٢٤٨/٣

وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر: كذلك قوله: { **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ** } معناه: إذا أردت قراءته وقال تعالى: (**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**) [النحل:٩٨]، معناه: إذا أردت قراءته(١).

٣- أن الِاسْتِعَاذَةُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ وَبَعْدَهَا ، ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ ، وَنَفَى ابْنُ الْجَزَرِيِّ الصِّحَّةَ عَمَّنْ نُقِلَ عَنْهُ أَيْضًا .

(١) أحكام القرآن، الجصاص: ج ١ / ٤٨١

فصل

فضل التعوذ

قال الله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وأمام قراءة أولية للنص القرآني الكريم السابق سنجد أن هناك علاقة بين الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وبين قراءة الذكر الحكيم، وهو القرآن العظيم، ذلك لأن القرآن العظيم نور، والشيطان ليس من طبعة محبة النور! وذلك لأن القرآن الحكيم هدى، والشيطان الرجيم لا يركن إلى الهدى! وذلك لأن القرآن العظيم شفاء، والشيطان الرجيم لا يريحه أن يكون أحد في صحة وعافية، وذلك لأن القرآن المجيد رحمة، والشيطان الرجيم مطرود من كل أبواب الرحمة، فكيف به يهدأ له بال إلا أن يصرف الإنسان عن أسباب الرحمة، وأولها القرآن العظيم، تلاوة، وتدبرا، واقتداء بآدابه، وتأسيا بأخلاقه، وعملا بأوامره، وانتهاء عن زواجره!

بيد أن الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم لها أسرارها، والتي ما فتئت أن تكون منحا ربانية للعباد، وهبة إلهية للحاضر منهم والباد، يستعينون بها ربهم الحق أن تهدأ بها قلوبهم، أن ربا رحيما سيعيذهم، لتمتلىء قلوبهم من خوفهم أمنا وسلاما وطمأنينة وسكينة. وذلك لأنهم يوقنون ألا ملجأ من الله تعالى إلا إليه رغبة ورهبة إليه سبحانه.

ولقد كان منه أنها سبب لرضا الرب، وأنها تذهب غضب العبد، وتطفيء نار ذلك الغضب المتأجج سعاره ليهدأ من بعدها، وليصفو من ورائها، كما أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث عدي بن ثابت ، قال : "سمعت سليمان بن صرد ، رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فغضب أحدهما ، فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأعلم كلمة ، لو قالها لذهب عنه الذي يجد فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم وقال : تعوذ بالله من الشيطان فقال : أترى بي بأس ، أمجنون أنا ، اذهب"(١).

ولقد كان منها التغلب على وسوسة الشيطان عموما، و في الصلاة خصوصا، وذلك لأن الصلاة يذهب الله تعالى بها الخطايا، ومنه كان حضور الشيطان، وأشد ما يكون حضوره عند إقامة عبد الصلاة بين يدي ربه، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى، أن عثمان بن أبي العاص ، **أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل على يسارك ثلاثا قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عني** "(٢).

---

(١) صحيح البخاري: ٣٢٨٢
(٢) صحيح مسلم: ٢٢٠٣

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال: وهو الأظهر إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعا خاصا كنظائر ذلك"(١).

ولطيفة حسن بيانها؛ ذلك وأن همزات الشياطين لتفعل في الإنسان فعل الخنق حين يتلبسه إبليس بخيله ورجله، وكأن قواه قد خارت، وكأن عزائمه قد انهارت، وكأن صدره قد تحشرج، فكان كالمخنوق، كما قال ابن زيد، في قوله : «وَقُل رب أعوذ بك من همزات الشياطين» قال: همزات الشياطين : خنقهم الناس، فذلك همزاتهم"(٢).

ودلك على عظيم أهميتها في دفع الوساوس، أنها دليل صدق التجاء إلى الله تعالى في طرد نزغات الشياطين، وأنها دليل إخلاص في لجؤ العبد إلى رب العالمين، ومنه فإنه لولا ذلكم لأفسد عليه الشيطان سائر عباداته، ولولا ذلكم لأبطل عليه إبليس عموم خلواته وجلواته.

بيد أن لطيفة ثانية حسن الإشارة إليها، وذلك أن نزغا ولو واحدا يمكن أن يطرأ على الإنسان، وذلك أن دفعه والحال ذلك واجب بنص الآية الكريمة ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[الأعراف: ٢٠٠]، وذلك لأن نزغا واحدا من إبليس يمكن أن يعكر صفو قلب امريء مسلم، فضلا على أن يكون سببا موجبا لتراكم النزغات على قلبه حتى يصير عليه كالران، وهو ما أو جب القرآن الاستعاذة من

(١) التفسير البسيط، ابن القيم: ١٦ /٥٧
(٢) تفسير الطبري: ج٩/٢٤٢

نزغات إبليس، ولو كانت نزغة واحدة! فأَمْرُهُ - سبحانه - بالاستعاذة به تعالى عند ورود الوساوس الشيطانية، والهواجس النفسية واجب الأداء.

ولقد كان منها دفع الضرر المحيق لعبد إذا نزل منزلا، وذلك لأن نزوله منزلا ما مظنة مفاجآت، ولا عهد له سابقا بها، فكان استشعاره لزوم الاستعاذة بالله تعالى مولاه الحق المبين عندها من أكمل وجوه التوحيد، وذلك لأن هذه الاستعاذة علاوة على أنها من دلالات التوحيد الخالص لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، إلا أنه تعالى قد جعل منها حجابا للعبيد، مما يمكن أن يفجأهم من شر، أو يحيق بهم من ضرر، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث سعد بن أبي وقاص ، يقول : "سمعت خولة بنت حكيم السلمية ، تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء ، حتى يرتحل من منزله ذلك**"(١).

و"لما كان الشيطان على نوعين: نوع يرى عيانا، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يرى، وهو شيطان الجن، أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه، والعفو، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعاذة بالله منه، والعفو، وجمع بين النوعين في سورة الأعراف، وسورة المؤمنين، وسورة فصلت، والاستعاذة في القراءة والذكر أبلغ في دفع شر شياطين الجن، والعفو والإعراض والدفع بالإحسان أبلغ في دفع شر شياطين الإنس "(٢).

---

(١) صحيح مسلم: ٥٠١٠

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية :ج٢/٤٢٠

و" إن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطان لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل "(١).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : " والهمزات : جمع همزة كتمرات وتمرة وأصل الهمز الدفع قال أبو عبيد عن الكسائي : همزته ولمزته ولهزته ونهزته إذا دفعته والتحقيق : أنه دفع بنخز وغمز يشبه الطعن فهو دفع خاص فهمزات الشياطين : دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب قال ابن عباس والحسن : همزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم وهذا قول مجاهد وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون"(٢).

وقال تعالى:﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** ﴾ [فصلت : ٣٦]،قال ابن جرير رحمه الله تعالى : " يقول تعالى ذكره: وإما يلقين الشيطان يا محمد في نفسك وسوسة من حديث النفس إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، ودعائك إلى مساءته، فاستجر بالله واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما

(١) تفسير ابن كثير: ج٢٦/١
(٢) إغاثة اللهفان - ابن قيم الجوزية:٩٥/١

ألقى في نفسك من نزغاته، وحدَّثتك به نفسك ومما يذهب ذلك من قبلك، وغير ذلك من أمور وأمور خلقه "(١).

قال الرازي رحمه الله تعالى : " إن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة ومعلوم أن الوسوسة كأنها حروف خفية في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأن العبد يقول: يا من هو على هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع، ويعلم كل سر خفي أنت تسمع وسوسة الشيطان وتعلم غرضه فيها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك، فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضع من سائر الأذكار "(٢).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " فإن الاستعاذة به منه ترجع إلى معنى الكلام قبلها مع تضمنها فائدة شريفة وهي كمال التوحيد وأن الذي يستعيذ به العائذ ويهرب منه إنما هو فعل الله ومشيئته وقدره فهو وحده المنفرد بالحكم فإذا أراد بعبده سوءا لم يعذه منه إلا هو فهو الذي يريد به ما يسوؤه وهو الذي يريد دفعه عنه فصار سبحانه مستعاذا به منه باعتبار الإرادتين (**وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُۥٓ إلا هُوَ**) فهو الذي يمس بالضر وهو الذي يكشفه لا إله إلا هو فالمهرب منه إليه والفرار منه إليه واللجأ منه إليه كما أن الاستعاذة منه فإنه لا رب غيره ولا مدبر للعبد سواه فهو الذي يحركه ويقلبه ويصرفه كيف يشاء "(٣).

ألا وإن للشيطان لمة، ومنها يستعاذ به تعالى، وقد أورد الإمام ابن القيم حديثا عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه "إنَّ للمَلَكِ الموكَّلِ بقَلبِ ابنِ آدَمَ

---

(١) تفسيرالطبري:ج١١/١١١/٣٠٥٥٠
(٢) تفسير الرازي: ج٧٢/١
(٣) طريق الهجرتين و باب السعادتين، ابن القيم جوزية: ٤٣١/١

لَمَّةً، وللشيطانِ لَمَّةً، فلَمَّةُ المَلَكِ إيعادٌ بالخَيرِ وتَصديقٌ بالحقِّ ورجاءُ صالحِ ثوابِه، ولَمَّةُ الشيطانِ إيعادٌ بالشرِّ وتَكْذيبٌ بالحقِّ وقُنوطٌ منَ الخَيرِ، فإذا وَجَدْتم لَمَّةَ المَلَكِ، فاحْمَدوا اللهَ وسَلوه من فَضْلِه، وإذا وَجَدْتم لَمَّةَ الشيطانِ فاستَعيذوا باللهِ فاستَغفِروه"(١).

(١) تخريج زاد المعاد : ٤٢١/٢. وقال المحدث : إسناده منقطع.

فصل
مواضع الاستعاذة

(١) قبل تلاوة القرآن: لقول الله تعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[النحل:٩٨].

قال القرطبي رحمه الله تعالى : " أي إذا أردت أن تقرأ ؛ فأوقَعَ الماضي موقع المستقبل ، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾ (النجم: ٨) المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله ﴿**ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ**﴾ (القمر: ١) وهو كثير "(١).

(٢) في الصلاة قبل قراءة الفاتحة: "عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ **إذا قامَ منَ اللَّيلِ كبَّرَ ثمَّ يقولُ سبحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدِكَ وتبارَكَ اسمُكَ وتعالى جدُّكَ ولا إلَهَ غيرَكَ ثمَّ يقولُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ثلاثًا ثمَّ يقولُ اللَّهُ أَكبرُ كبيرًا ثلاثًا أعوذُ باللَّهِ السَّميعِ العليمِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ من همزِهِ ونفخِهِ ونفثِهِ ثمَّ يقرأُ** "(٢).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « **تَعوَّذوا باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، مِن هَمزِه، ونَفخِه، ونَفثِه. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وما هَمزُه،**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥٣/١
(٢) صحيح أبي داود، الألباني:٧٧٥

ونَفخُه، ونَفثُه؟ قال: أمَّا هَمزُه، فهذه المُوتةُ التي تأخُذُ بَني آدَمَ، وأمَّا نَفخُه، فالكِبرُ، وأمَّا نَفثُه، فالشِّعرُ"(١).

(٣) عند الغضب: فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ، قَالَ : **كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ ، فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَقَالَ : وَهَلْ بِي جُنُونٌ"**(٢).

(٤)عند دخول الخلاء: فعن عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَنَسًا ، يَقُولُ : **"كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الخَلاَءَ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ تَابَعَهُ ابْنُ عَرْعَرَةَ ، عَنْ شُعْبَةَ ، وَقَالَ غُنْدَرٌ ، عَنْ شُعْبَةَ إِذَا أَتَى الخَلاَءَ وَقَالَ مُوسَى عَنْ حَمَّادٍ إِذَا دَخَلَ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ"**(٣).

وقال ابن حبان رحمه الله تعالى : " الخُبُثُ: جمع الذكور من الشياطين، والخبائث: جمعُ الإناث منهم. يقال: خبيث وخبيثان وخُبُث، وخبيثة وخبيثتان وخبائث"(٤).

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢٥٢٢٧. خلاصة حكم المحدث: حسن لغيره.
(٢) صحيح البخاري: ٣١٣٣
(٣) صحيح البخاري: ١٤١
(٤) صحيح ابن حبان ٢٦٣/٢

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " فإن الحش مع أنه مظنة النجاسة فإن الشياطين تحضره كما قال صلى الله عليه وسلم (إن هذه الحشوش محتضرة) و أمر عند دخولها بالتسمية والاستعاذة من الشيطان الرجيم، و كذلك الحمام فإنه مع أنه مظنة النجاسة، فإنه بيت الشيطان، كما جاء في الأثر الذي ذكرناه في الطهارة أن الشيطان قال : أي رب اجعل لي بيتا قال: بيتك الحمام . و هو محل للخبث و الملائكة لا تدخل بيتا فيه خبث" (١).

وحديث الحشوش "**إنَّ هذه الحُشوشَ مُحتَضرةٌ، فإذا أتى أحَدُكم الخلاءَ فلْيَقُلْ: أعوذُ باللهِ مِن الخُبُثِ والخبَائثِ**"(٢).

(٥) عند نباح الكلاب، ونهيق الحمير: لحديث جابر بن عبدالله – رضي الله تعالى عنه – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**إذا سَمِعتُمْ نِباحَ الكِلابِ ، ونَهِيقَ الحَمِيرِ بِالليلِ فتَعَوَّذُوا بِاللهِ من الشيطانِ ، فإنَّهُنَّ يَرَيْنَ ما لا تَرَوْنَ ، وأَقِلُّوا الخُروجَ إذا هَدَأَتِ الرِّجْلُ ؛ فإِنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يَبُثُّ في لَيْلِهِ من خَلْقِهِ ما يَشاءُ ، وأَجِيفُوا الأبوابَ ، واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ علَيْهَا ؛ فإِنَّ الشَّيطانَ لا يَفتَحُ بابًا أُجِيفَ وذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليْهِ، وغَطُّوا الجِرارَ، وأَوْكِئُوا القِرَبَ ، وأَكْفِئُوا الآنِيَةَ**"(٣).

وقال المناوي رحمه الله تعالى : " وحضور الشيطان مظنة الوسوسة والطغيان وعصيان الرحمن فناسب التعوذ لدفع ذلك "(٤).

---

(١) درء التعارض، ابن تيمية: ٤٥٥/٤
(٢) سنن أبي داود: ٦. وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.
(٣) صحيح الجامع الألباني:٦٢٠
(٤) فيض القدير، المناوي: ٣٨١/١

(٦) عند الأرق والفزع: لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما " أنَّ رسولَ اللهِّ صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ كانَ يُعلِّمُهُم منَ الفزَعِ كلِماتٍ : **أعوذُ بِكَلماتِ اللهِّ التَّامَّةِ ، من غَضبِهِ وشرِّ عبادِهِ ، ومن هَمزاتِ الشَّياطينِ وأن يحضُرونِ**"(١).

و" (أعوذ) أي أعتصم (بكلمات الله) كتبه المنزلة على رسله أو صفاته، وقد جاءت الاستعاذة بها في خبر أعوذ بعزة الله وقدرته، والتأنيث للتعظيم، (التامة) الخالية عن التناقض والاختلاف، (من غضبه) سخطه على من عصاه وإعراضه عنه، (وعقابه) عقوبته (ومن شر عباده) من أهل الأرض وغيرهم، (ومن همزات الشياطين) نزغاتهم ووساوسهم، وأصل الهمز الحث، ومنه همز الفرس بالمهماز، ليعدو، وشبه حث الشياطين على الإثم بهمز الراضة الدواب على المشي، وجمعها باعتبار المرات، أو لتنوع الوسواس، أو لتعدد الشياطين، (وأن يحضرون) أي يحومون حولي في شئ من أموري، لأنهم إنما يحضرون بسوء " (٢).

وقال في الفتاوى " و «كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر» هي التي كوَّن بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته. وأما «كلماته الدينية» وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار، وعصاها الفجار "(٣).

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٨٩٣
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج ٣٧١/١
(٣) الفتاوى، ابن تيمية: ٢٢١/١١

وقال المباركفوري رحمه الله تعالى: " « أعوذ بكلمات الله التامة أي الكاملة الشاملة الفاضلة وهي أسماؤه وصفاته وآيات كتبه وعقابه أي عذابه شر عباده من الظلم والمعصية ونحوهما ومن همزات الشياطين أي نزغاتهم وخطراتهم ووساوسهم وإلقائهم الفتنة والعقائد الفاسدة في القلب وهو تخصيص بعد تعميم وأن يحضرون بحذف الياء وإبقاء الكسرة دليلا عليها أي ومن أن يحضروني في أموري كالصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك لأنهم إنما يحضرون بسوء فإنها أي الهمزات لن تضره أي إذا دعا بهذا الدعاء وفيه دليل على أن الفزع إنما هو من الشيطان"(١).

(٧) عند الرقية: لحديث عبدالله بن عباس- رضي الله تعالى عنه – " **كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعوِّذُ الحسنَ والحسينَ ، يقولُ : أعيذُكُما بِكلماتِ اللهِ التَّامَّةِ ، مِن كلِّ شيطانٍ وَهامَّةٍ ومن كلِّ عينٍ لامَّةٍ**"(٢).

وقال العلماء : "الهامة بتشديد الميم : وهي كل ذات سم يقتل كالحية وغيرها ، والجمع : الهوام ، قالوا : وقد يقع الهوام على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالحشرات، ومنه حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه " أيؤذيك هوام رأسك ؟ " أي : القمل ، وأما العين اللامة بتشديد الميم : وهي التي تصيب ما نظرت إليه بسوء."(٣).

---

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري: ج ٣٥٦/٩
(٢) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٠٦٠
(٣) الأذكار، النووي:١٣١/١

(٨) عند دخول المسجد: لحديث عبدالله بن عمرو "أعوذُ بالله العظيمِ ، وبوجهه الكريمِ ، وسلطانِه القديمِ ، من الشيطانِ الرجيمِ . قال : أَقَطُّ ؟ قلتُ : نعم . قال : فإذا قال ذلك ؛ قال الشيطانُ : حُفِظَ مني سائرَ اليومِ"(١).

(٩) عند الوسوسة في الصلاة: للحديث "أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : **يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**"(٢).

و" أما (خنزب)فبخاء معجمة مكسورة ثم نون ساكنة ثم زاي مكسورة ومفتوحة ، ويقال أيضا بفتح الخاء والزاي ، حكاه القاضي ، ويقال أيضا بضم الخاء وفتح الزاي ، حكاه ابن الأثير في النهاية ، وهو غريب . وفي هذا الحديث استحباب التعوذ من الشيطان عن وسوسته مع التفل عن اليسار ثلاثا ،ومعنى (يلبسها) أي يخلطها ويشككني فيها ، وهو بفتح أوله وكسر ثالثه ، ومعنى (حال بيني وبينها)أي نكدني فيها ، ومنعني لذتها ، والفراغ للخشوع فيها"(٣).

(١٠) عند إقبال الليل: فعن ٱبن عمر رضي الله عنهما قال: " كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ **إذا سافَرَ فأقبلَ اللَّيلُ قالَ يا أرضُ ربِّي وربُّكِ اللهُ أعوذُ باللهِ من شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ وشرِّ ما خَلقَ فيكِ ومِن شرِّ ما يدُبُّ**

---

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ١٦٠٦
(٢) صحيح مسلم: ٤٢٠٠
(٣) شرح النووي على مسلم: ٣٤٢/٧

عليكِ وأعوذُ باللهِ من أسدٍ وأسوَدَ ومنِ الحيَّةِ والعقربِ ومِن ساكنِ البلَدِ ومِن والِدٍ وما ولَدْ"(١).

وقال الـخطابـي: قوله " ساكن البلد " هم الجن الذين هم سكان الأرض، والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل. قال: ويحتمل أن يكون المراد بالوالد: إبليس، وما ولد: الشياطين، هذا كلام الخطابي، والأسود: الشخص، فكل شخص يسمى أسود(٢).

(١١) عند النزول: لحديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:« خولة بنت حكيم السلمية ، تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء ، حتى يرتحل من منزله ذلك** »(٣).

و"(بكلمات الله التامة) أي الخالية عن العيوب أو الوافية في دفع ما يتعوذ منه (وهامة"(٤).

و(هي الكاملة الشاملة الفاضلة وهي أسماؤه وصفاته وآيات كتبه)(٥). و[الفاضلة التي لا يدخلها نقص]. [الموطأ، الإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،أبي عبد الله مالك :ج١/٥٩٦].

---

(١) ضعيف أبي داود، الألباني: ٢٦٠٣
(٢) الأذكار النووية ، يحيى بن شرف النووي: ٢٢٦
(٣) صحيح مسلم: ٥٠١٠
(٤) عون المعبود، العظيم آبادي، ج ٤٥/١٣
(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ج١٠، المباركفوري: ج٣١٣/١٠

(١٢) عند وسوسة الشيطان: لحديث أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: « **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك ، فليستعذ بالله ولينته**»(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : " قوله: (من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) أي عن الاسترسال معه في ذلك، بل يلجأ إلى الله في دفعه، ويعلم أنه يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوَسْوَسَة، فينبغي أن يجتهد في دفعها بالاشتغال بغيرها، ، قال الخطابى : وجه هذا الحديث أن الشيطان إذا وسوس بذلك فاستعاذ الشخص بالله منه وكف عن مطاولته في ذلك اندفع . قال: وهذا بخلاف ما لو تعرض أحد من البشر بذلك فإنه يمكن قطعه بالحجة والبرهان قال: والفرق بينهما أن الآدمي يقع منه الكلام بالسؤال والجواب والحال معه محصور، فإذا راعى الطريقة وأصاب الحجة انقطع، وأما الشيطان فليس لوسوسته انتهاء، بل كلما ألزم حجة زاغ إلى غيرها إلى أن يفضي بالمرء إلى الحيرة، نعوذ بالله من ذلك "(٢).

ومنه قوله تعالى ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف : ٢٠٠] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى : " يعني جلّ ثناؤه بقوله: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدّك عن الإعراض عن الجاهلين ويحملك على مجازاتهم (**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**) يقول: فاستجر بالله من نزغه. (**إِنَّهُ**

---

(١) صحيح مسلم:٢٢٢

(٢) شرح صحيح البخاري (مصابيح الجامع الصحيح)، الدماميني: ج٧/٧٨

سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزع الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك ولاستعاذتك به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه "(١).

و" الشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الإنتقام ويزينه له فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عنده على حظه العاجل فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم"(٢).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

قال ابن القيم رحمه الله تعالى "وقال تعالى **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ*وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ*وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾** [الفلق:٥]. فهذا استعاذة من شر النفس ، وقال تعالى**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ*مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾** [الناس:٦]. فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة

---

(١) تفسير الطبري : ج٦/١٥٥
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية :ج٢/٤٩٠

من هذين الخلقين العظيم شأنهما في الشر والفساد، والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقه وينتابه، وأول ما يدب فيه السقم، من النفس الأمارة، من الشهوة، وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب، ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط، فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه، فيعوده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات، ويخيل إليه بسحره أن شفاءه فيها، ويتفق ضعف القلب بالمرض، وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما، وأنه نقد حاضر، ولذة عاجلة، والداعي إليه يدعو من كل ناحية، والهوى ينفذ، والشهوة تهون، والتأسي بالأكثر والتشبه بهم، والرضا بأن يصيبه ما أصابهم، فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعي الإيمان ومنادي الجنة إلا من أمده الله بإمداد التوفيق، وأيده برحمته، وتولي حفظه وحمايته، وفتح بصيرة قلبه، فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم، وأنها في الحياة الدائمة كغمس إصبع في البحر بالنسبة إليه "(١).

(١٣) والاستعاذة من الشيطان من أذكار الصباح والمساء: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ أبو بَكْرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : **يا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علِّمني شيئًا أقولُهُ إذا أصبحتُ ، وإذا أمسيتُ ، وإذا أخذتُ مَضجَعي . قالَ : قل : اللَّهُمَّ فاطرَ السَّمواتِ والأَرضِ ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ - أو قالَ : اللَّهمَّ عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ ، فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ - رَبَّ كلِّ**

(١) الروح - ابن قيم الجوزية :ج١/ ٢٣٢

شيءٍ ومليكَهُ ، أشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا أنتَ ، أعوذُ بِكَ من شرِّ نَفسي ، وشرِّ الشَّيطانِ وشِركِهِ"(١).

و" قوله: «وشركه»، روي علـى وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من الإشراك: أي: ما يدعو إلـيه ويوسوس به من الإشراك بـالله تعالـى. والثانـي: شَرَكه بفتـح الشين والراء: أي: حبـائله ومصائده، واحدها: شَرَكه بفتـح الشين والراء، وآخره هاء "(٢).

وإنه" فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان وغايته إما أن تعود على العامل أو على أخيه المسلم فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما "(٣).

وقال رحمه الله تعالى أيضا: " فذكر مصدري الشر، وهما النفس والشيطان، وذكر موردیه ونهايتيه، وهما عوده على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظه وأخصره وأجمعه وأبينه "(٤).

وقال رحمه الله تعالى أيضا : " ولما كان الشر له مصدر يبتدي منه وغاية ينتهي إليها وكان مصدرها إما من نفس الإنسان وإما من الشيطان وغايته أن يعود على صاحبه أو على أخيه المسلم تضمن الدعاء هذه المراتب الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأبينه "(٥).

---

(١) مسند أحمد، ت: أحمد شاكر: /٤٣، وقال المحدث(أحمد شاكر): إسناده صحيح.
(٢) الأذكار، النووي:٨٠
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم:٩١
(٤) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزي:ج٣٥٢/٢.
(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ١٦٢/١

(١٤) عَن عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إن للشَّيطانِ للمَّةً بابنِ آدمَ ، ولِلمَلك لَمَّةٌ ، فأمَّا لَمَّةُ الشَّيطانِ فإيعادٌ بالشَّرِّ وتَكْذيبٌ بالحقِّ ، وأمَّا لَمَّةُ الملَكِ فإيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالحقِّ . فمَن وجدَ ذلِكَ فليعلم أنَّهُ منَ اللهِ ، فليحمَدِ اللهَ ، ومن وجدَ الأخرى فليتعوَّذ منَ الشَّيطانِ . ثمَّ قرأَ:﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا**﴾[البقرة :٢٦٨](١).

و"لمة بالفتح : قرب وإصابة من الإلمام، وهو القرب، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك .. ونسب لمة الملك إلى الله تعالى تنويهاً بشأن الخير وإشادة بذكره في التمييز بين اللمتين لا يهتدي إليه أكثر الناس والخواطر بمنزلة البذر، فمنها ما هو بذر السعادة، ومنها ما هو بذر الشقاوة"(٢).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَـنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: "يخوفكم أولياؤه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة، كشيطان الإنس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل"(٣).

---

(١) عمدة التفسير، أحمد شاكر: ٣٢٥/١]. خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح .
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج ٢ /٦٣٣
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية:ج١٠/ ٢٣٩

فصل

الاستعاذة (١)

قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[النحل:٩٨]. ومنه جرى عمل الناس، حين يبتدؤون قراءة كتاب ربهم الرحمن، أن يبدأوا بهذه الاستعانة، ومن قولهم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وعلى وجوه وردت فيها، ومن قولهم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومن قولهم: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. **والاستعاذة هي:** الالتجاء، وأنت حين تستشعر بنفسك حاجة الالتجاء، وإنما يكون هذا الالتجاء بركن ركين، يعتمد عليه، ويستند إليه، في إمدادك بطلاقات وطاقات خلابة، تستعين به تعالى أن يعينك على قضائها، وليس من جد ما يستعاذ به إلا هو ذلك الرب؛ ولذلك نعوذ به تعالى ونلوذ إليه، بأن نقدم استعاذتنا بربنا تبارك وتعالى، واعتصامنا به تبارك وتعالى؛ ولأنه سبحانه وتعالى هو ذو الفضل، والمن، والجود، والكرم، وحده، أن يلهمك رشدك، وأن يسديك هداه، وتوفيقه، ورضاه.

عظم شأن الاستعاذة: وإذ كان من عبوديتنا لربنا تعالى، أن نتعبده، بطلب الاستعاذة منه تبارك وتعالى، وهذه الاستعاذة؛ ولعظم شأنها جاءت في القرآن العظيم غير مرة، وعن نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين قال ربنا الرحمن وكما أنف ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾.

فإن ذلك أمر، وحين يقرأ العبد الكتاب أن يستعيد العبد بالله تعالى، وحين جاءت المعوذتان أيضا، ومن معناهما هي هذه الاستعاذة بالله تعالى.

إن هذه الاستعاذة، وأنت ترى مقرونة بربوبيه الله تبارك وتعالى لخلقه؛ دلاله استلهام، واستحضار هذه الربوبية لربنا أولا.

وحين تستحضرها هذه الربوبية، ومن كونه تبارك وتعالى خلقنا وبرأنا وأبدعنا على غير مثال سابق، ومن لا شيء ابتداء.

ومنه، فكانت هذه الاستعاذة إذًا مقرونة بربوبيته شيئا جيدا جميلا جليلا.

ثم تأتي الاستعاذة مقرونة بالألوهية: أيضا ومن قولنا: أعوذ بالله، ومن أمره تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾. لتجمع بين ربوبيتنا لربنا، وألوهية ربنا لنا.

وانت حين تستشعر من نفسك الضعف والذلة، أي العبودية لله تعالى، وإنما تأتي بضمير المتكلم، ومن قولك: أعود (أنا)، مقدما بين يدي ربك الرحمن هذا الاستذلال له تعالى.

وعندما تستحضر أيضا ضعفك أمامه تعالى، وذلك له، وخضوعك له، تبارك وتعالى.

ومن مقتضاه كان قولك هذا ممهورا بالعوذ وبالعزو، أن كنتُ أنا العبد الفقير، بين يديك ربي، مستعيذا بك، أن تعيذني؛ ولأنني لم أجد غيرك، ألتجئ إليه، ومن قوتك، وجبروتك، وعظمتك، وإلا أن أنطرح بين يديك وحدك لا سواك.

فكان فضلا منك ربي أن تلهمني رشدي وهداي، ولا رشد ولا هدى تشرئب إليه نفسي وتستدعيه جوارحي إلا هداك وإلا سناك.

سبحانك أعوذ أنا بالله وحده، وهذا مطلق العبودية لربنا الرحمن سبحانه وتعالى.

خيالات وأوهام: وبه يكون العبد معتصما؛ ولأن العبد محاط، وكما قلت بكثير من الاعتقادات الزائفة الباطلة، التي تسولها الشياطين ، ومن إنس أو من جن.

وكذلك خيالات العمل نفسه: فإن العبد محاط بركيزتين شريريتين عظيمتين: خيالات في اعتقاد واهم، وخيالات في عمل واهم أيضا.

فكم يظن العبد أنه يأتي هدى، وليس بهدى؛ ولهذا السبب كان التجاؤه إلى الله تبارك وتعالى وحده، لا غيره، في أن يستعيذ به سبحانه، من هذه الشرور الاعتقادية، والخيالات العملية، أو القولية أيضا.

ولذا لا يجدن ربا كريما عظيما يعيذه. وإلا هو هذا الرب الكريم الجبار القهار، وحين يكون، ولا يكون التجاء العبد إلا إليه تعالى وحده لا سواه.

فمن استعاذ بالله أعاذه، ومن لاذ بالله لاذه، ومن راح إليه قبلهن ومن اطمأن به، وإليه، فإلى الخير ساقه، وعلى الرشد أعانه.

ولم الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؟ ولأنه هو ذلكم الذي أقسم بين يدي ربه استكبارا وعتوا، أنه لن يدع أحدا من عباده، إلا وحين تبجح، **﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ**

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

ويكأنه يعاند الألوهية، في سلطانها، وقوامتها، وعظمتها، وأبهتها!

فكان الاندحار بين يدي استكباره، وحين أمرنا ربنا استعاذتنا به منه، فيعيذنا رحمة منه تبارك وتعالى بنا، ورجما لهذا الشيطان الرجيم.

وكفاه أن يسميه ربه تبارك وتعالى، ربنا الرحمن: (الرجيم، المطرود، الملعون).

موجز ما أنف: فإن هذه منظومة موجزة، نخلص فيها إلى أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله، وأن معناها الالتجاء بالله تبارك وتعالى، وأنها جاءت بضمير المتكلم؛ إذلالا للنفوس وخضعانا، أمام ربها تبارك وتعالى، وأنها دالة على الالتجاء، والارتماء بين عتبات العبودية لله تبارك وتعالى وحده، وبما فيها من خوف، وما يكتنفها من ذل، وتعبدن وحب لله رب العزة والجلال.

إن هذه الاستعاذة، وحين قدمت بين يدي رب العزة والجلال، معترفا ذلك العبد بربوبيته تعالى له،وفيما قال الله **﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾**

وإنها لمقدمة أيضا؛ اعترافا بألوهية ربنا الرحمن، آمرا وناهيا، وحين قال الله **﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾**. انه ليس له سلطان على الذين امنوا

سبب التقدمة: والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم وإنما قدمت ؛ لأنه ذلكم الذي تكبر واستكبر وأطلق عنان غيه وضلاله، وحين يستكبر، ومجاهرا بخطابه أمام ربه، الذي خلقه! وحين كان قوله هذا: ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا**﴾

وهذا أيضا من منتهى العداوة والجبروت، أن يجاهر الله بهذا الكبر، وهذا الاستكبار.

ومنه نتعلم نحن مقابلته، وهو ذلكم الإذلال والإذعان والاستسلام، أمام ربنا تعالى؛ ليعزنا أمام غير ربنا.

فصل

الاستعاذة (٢)

لماذا كانت الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؟

وثمة سؤال يتبادر إلى أذهاننا، لماذا كانت الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؟ وبتوجيه آخر، لهذا السؤال، ما الحكمة من جعل الاستعاذة بالله ربنا تبارك وتعالى من هذا الشيطان الرجيم؟

وأقدم بين يدي هذه الأطروحة مقدمة واعية، مقتضاها أنك بين طرفين أو أنك بين أمرين:

الأمر الأول: هو ذلكم الضعف لنا معاشر البشر.

وأما الأمر الثاني: هو تلكم القدرة المطلقة والهيمنة والعظمة لربنا الرحمن تبارك وتعالى؛ ومنه كانت العلاقة قوية ومنسجمة ومنضبطة، وحين عوزنا- نحن الضعفاء- لربنا، هذا القوي العزيز سبحانه وتعالى.

وهذا فيه إظهار الافتقار لربنا تبارك وتعالى، وإن نحن إلا تحت مظلة سلطانه تبارك وتعالى ورحمته وجوده ومنه وكرمه واحسانه إلينا وعلينا.

وإنما كانت؛ وإظهارا لغنى ربنا تبارك وقدرته.

وهذه مقدمة بديهية، بين يدي الموضوع.

وأما ما حكمة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: وإنما تتلخص فيه عداوته وفتنته وولايته وكذبه.

فإن عداوة الشيطان ولما كان الشيطان عدوا، فكان احتراز منه بالاستعادة بالله تبارك وتعالى منه، ولها. ولقول ربنا الرحمن سبحانه وتعالى في علاه ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:٦].

دلت هذه الآية على أن الشيطان عدو، يقف من مرصاد، لكل عبد مؤمن، قانت، ليضله، ويغويه.

ومنه كان اتخاذنا له عدوا؛ لمجابهة هذه العداوة، وحين لم نجد إلا الاستعاذة بربنا تعالى من هكذا الشيطان الرجيم؛ لعداوته.

إن الله تبارك وتعالى أمرنا، وكما أمرنا أن نتخذ الشيطان عدوا؛ وبسبب عداوته.

فكذلك أمرنا ربنا تبارك ومن قوله سبحانه ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٧].

وانظر دائما في قرآن ربك الرحمن، وفيما أمكن الاطلاع عليه، يأتيك ألا تتخذ، وألا يكون الشيطان لك عامل صد. وبسبب ﴿**لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾

إن الله تعالى يأتيك بالحكم وسببه، فالحكم هنا الا تتخذ الشيطان وليا، أي ألا يكون الشيطان لك عامل فتنة، ومن قوله تعالى ﴿**لَا يَفْتِنَنَّكُمُ**

الشَّيْطَانُ﴾، وبسبب ﴿ **كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾**، فإنه يمكن أن يخرجك أنت أيضا، أيها العبد الضعيف، عن مسارك المستقيم الصحيح، نحو مرضاة ربك الرحمن تبارك وتعالى.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: هذا نهي من الله تبارك وتعالى، وجب الانقياد له، وإنما يكون الانقياد له، بجهاد النفس، والتوكل على الله تعالى، والأخذ بأسباب مرضاة ربنا تعالى، ثم الاستعادة به تعالى من هذا الشيطان الرجيم، بعداوته.

وانظر كيف كان خطر الولاية، وحين ليست تكون منبثقة عن شرع وهدى؟!

ولأن الله تعالى قال **﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**: فإن الله تبارك وتعالى، وحين يعلم من عبد، وهذه كلية قمنة بالدرس والفحص والوقوف والتحصيل، أن يكون العبد على جادة، لا يجعل الله تبارك وتعالى الشيطان له وليا.

وتنعقد فيما بين هذين الطرفين ولاية، يكون من مقتضاها الخروج عن القضبان، فيهلك العبد، وكما هلك شيطانه.

وحين كانت منه عداوته وفتنته وولايته وكذبه، وإذ كيف يتخذ الكاذب وليا؟ وإلا أن يتخذ عدوا.

ولأن من صفاته الكذب، فوجب الانخلاع والانصراف عن طريقه، بالاعتماد، والتوكل على ربنا الرحمن، أن يعيذنا منه؛ ولكذبه هذا أيضا.

وانظر، كيف كذب إبليس، وحين كان مكتوبا عليه انه هو ذلكم الشيطان الرجيم؛ وحينا أخرج أبانا آدم من الجنة، وهو إذ يتضلع ويتبجح، ويعلن على الملأ كذبه هذا.

وحين قال الله تعالى عن لسانه: ﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف:٢١].

واحذر أن يكون عدوك متلبسا برداء نصحه، وكثيرا ما يكون هذا واقعان في حياه القوم، فهذا نوع من الأبلسة، ومن الشيطنة.

ومنه وجب الانخلاع عن هذا الطريق بالاستعاذة بربنا الرحمن من الشيطان الرجيم.

ثم إن هذا الشيطان ومن أصل تعريف كلمة الشيطان، أي من شرطه البعد، ومنه وجب أن يكون بينك ايها العبد الصالح وبينه امد واسعز

وليس ثمة نقطة تقاطع ولو واحدة تربط بينه ومن بينه!

وبحيث لا يلتقي طريقك مع طريقه، ولأنه ومن حيث لا تكون هناك نقطة تقاطع ولو واحدة، بين سبيل المؤمنين وسبيل الشياطين، وأولياء الشياطين، وهذه واحدة.

ثم ولما جاءت على وزن فعيل، يعني صيغة مبالغة، يعني أنه مرجوم، أي مطرود من رحمة ربنا الرحمن، وهذه واحدة أخرى.

وعاقل هو ذلك الذي لا يتخذ هذا الشيطان وليا، وبأي نوع من أنواع الولاية، وبأية درجة من درجاتها.

وذلك خشية سبيل نكد مؤكد أن يأخذه ومعه في الهلاك، وكما قد هلك.

ومنه نستحضر معا مثل الجليس الصالح والجليس السوء، وللحديث، لماذا؟ لأن الجليس الصالح طاهر مبرأ من الشيطان، ولأن الجليس السوء فاسد خبيث، هو والشيطان وليان، بعضهما لبعض.

مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد؛ لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة(١).

وثمة سؤال يفرض نفسه على بساط البحث: اذا كان الشيطان اذا كان الشيطان بهذا الضعف، وهذا الخور؛ ومما استقيناه من قول ربنا الرحمن تبارك وتعالى، ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٧٦].

فكيف يتسنى أن نعدها هذه العدة كلها؛ ولمجابهة مخلوق كان من شأنه هذا الضعف وهذا الخور؟!

وأقول، إن هذا أولا فتنة، وابتلاء، من ربنا سبحانه وتعالى. **وهذا أولا.**

وأما ثانيا: فان الاحتراز أمر واجب؛ وللحديث: الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في

---

(١) صحيح البخاري:٢١٠١

الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب([1]).

فإنه وإن كان كيده ضعيفا حقا، وإلا أنه وجب الاحتراز من هذا الكيد؛ فإن كيدا إلى كيد يصير كيد مركبا!

ولربما لم يستطع المرء مجابهته، وحين يبسط يده وسلطانه عليه، هو ذلك الشيطان الرجيم، وحين يستصغر ذنبا، ولأنهم قالوا:

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر.

فاحتقار الشيطان، والاستعاذة منه، وإن كان كيده ضعيفا، فإن هذا من باب الاحتراز، وفوق أنه وإن كان كيده ضعيفا، وإلا أنه لا يتنازل عن كيده، ولا عن عدم عداوته، ولا عن فتنته، ولا عن ولايته، ولا عن كذبه.

ومنه كانت الحكمة من قولنا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٢

فصل
الاستعاذة(٣)

قال ربنا الرحمن ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ [المؤمنون: ٩٨.

هذا أمر ربنا الرحمن تبارك وتعالى لنبيه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم يبعثون.

وهذا أمر الله تبارك وتعالى له، وتبعا فإنه أمر لأولياء الله تبارك وتعالى، أن يستعيذوا بربنا الرحمن تبارك وتعالى من همزات الشياطين.

والهمزات: هي اللمات، وهي النفثات، وهي النفخات، وهي النفخات؛ وكما أنها الوساوس.

وعلى أي حال يكون عليه العبد، زكما كان حال نبينا محمد عليه الصلوات والتسليمات والزكوات والتبريكات إلى يوم تقوم الساعة، وحين كان يستعيد بالله تبارك وتعالى من الشيطان الرجيم، من همزه ومن نفخه ومن نفثه. ولحديث: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه قال همزه الموتة ونفثه الشعر ونفخه الكبر([1]).

ومنه حديث: أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: **يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي؛**

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٦٦٥

يلبسها علي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثا. قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني(١).

وهذا في الحقيقة ترياق نبوي، وعلاج قرآني، واتباع صحابي، ويقين أتباع هذا النبي، وحين يسبقهم إليه يقين هذا النبي.

وهو ذلكم الاتباع، وهو ذلك اهتمام الصحب الكرام، بصلاتهم، وعلاقتهم بربهم، وصلاتهم بخالقهم تبارك وتعالى.

حتى إنهم ذهبوا، كيما يستخرج كنوز الترياق، والعلاج النفسي، والبدني، وحين كان منه قوله صلى الله عليه وسلم، **إن الله تعالى، وحين يقول العبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنه سيصرفه عنه، وكان بالتبع؛ يقين الصحابة الكرام، ولما قالوا ذلك، فصرفه الله عنهم.**

وهذا تحقيق لمقام اليقين بربنا تعالى.

وحين نقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وبه قضي الأمر!

لا تجرب! فإنه وعندما يقول ربك الرحمن سبحانه وتعالى ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومنه فلا نأخذ القرآن على سبيل التجريب، وإنما نأخذ الترياق النبوي، والتنزيل الإلهي، على أنه يقين.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٢٠٣

سبق أن ذكرنا استعاذة العبد بالله تعالى من الشيطان الرجيم ورغم ضعف كيده هذا!

ولكن ذلك ليس يخلو منها همزاته ونفخاته ولمزاته.

ومنه كانت هذه المجابهة النبوية، ومن قبلها الآيات القرآنية، لهذه النفخات، والنفثات، والهمزات، واللمزات، لتكبها، ولتحبطها، ولتكبتها؛ يقينا بالله تعالى.

وكما سبق وأكدنا أيضا على هذه الحقيقة، وإذ وإنه، وحين تستحضر عظمة الربوبية، وقدرة ربك الرحمن أنه، وحين تقول (أعوذ)، فتلتجئ إليه تعالى.

وحين ذلك، فاعلم أن عندك ركنا ركينا، هو ربك الرحمن، فيعيذك.

وأقول رب أعوذ بك، وحدك يا ربي، فقدمت بين يدي ربك الانطراح والالتجاء والتضرع.

ومنه كن على يقين أن ربك سوف لا يخذلك. بل سوف تجده معينك، وناصرك، ومؤزرك، وكاشف عنك ضرك؛ ومن موجب أنه رحيم، وأنه رؤوف، سبحانه وتعالى.

فنحن عبيده، ونستكين به، ونطمئن به، ونلوذ إليه، ونعوذ به تبارك وتعالى، من همزات الشياطين، من إنسهم، ومن جنهم، ومن أوليائهم، ومن جنودهم، وجنود إبليس.

وحين كان، لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى وحده.

وحين يعلك الله تعالى من عبده هذا، ولينصرنه الله تبارك وتعالى.

إنه كان نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، من أذكاره في صباحه، ومسائه، أن يقول أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، وأعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامه، اللهم إني أعوذ بك من الهرم ومن الغرق والهدم وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت.

إلا ليعبدون: وبه قضي الأمر أيضا، ومن هذه العبادة، وذلك التذلل، وهي تلكم الحاجة، وهو ذلكم الانطراح، بين يدي ربك الرحمن، فيغيثك، وحين كان منه قوله تعالى ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩].

وبه، فإنه وعندما يعلم الله تعالى عن عبده الاضطرار، وإنه ليغيثه. وحين يستعيذ به، فيعيذه،

وحين يروح العبد إليه تعالى وقلبه وكله، ويرجع إليه، فيقبله، ولما يتحنن إليه بطاعاته، ومرضاته، فإنه تعالى لسوف يوفقه. واعلم هذا يا عبد الله! وكن منه على يقين.

ونكرر، وإنه لمن موجب رحمته تعالى ولطفه ورأفته ويسره سبحانه وتعالى، فإن هذه كلها منظومة الإعاذة الربانية؛ لك أيها العبد الفقير الضعيف المحتاج ‘لى عون ربك وإعاذته.

ومنه وحين يقول العبد: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، ومن كل ما خلق ربنا الرحمن سبحانه وتعالى، في صباحك ثلاثا، وفي مسائك ثلاثا، اعلم أن الله سيعيذك، اعلم أن نبيك صلى الله عليه وسلم قد قدم بين يديك

ترياقا وعلاجا وحصنا حصينا مكينا متينا من كل الشرور والأوهام والخيالات التي يزينها ذلكم إبليس الشيطان الرجيم.

ومنه قوله تعالى ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [آل عمران: ٣٦].

فصل
الاستعاذة (٤)
من أحكام الاستعاذة

قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:٩٨]. هذه الآية الكريمة راح منها أهل العلم في مسائل شتى.

﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ**﴾: فعل ماض، فهل يعني ذلك أننا نستعيذ بالله تبارك وتعالى من الشيطان الرجيم، بعد القراءة؛ دلاله مجيء هذا الفعل الماض؟

وأما المسألة الثانية: هل الاستعاذة آية من القرآن العظيم؟

المسألة الأولى: هي نقرأ الاستعاذة قبل أو بعد القرءة؟

وكما أنف كانت مثار أخذ ورد بين أولي العلم والنهى.

١- فمنهم من أخذ بظاهر الآية من القرآن العظيم، وأخذها على الماضي، وخرجوها على: فإذا انتهيت من قراءة القرآن، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وقالوا من حكمة، ذلك لينفي الإنسان عن نفسه العجب.

وحين قام بعمل صالح كقراءة القرآن العظيم، وليطرد عن نفسه وساوس الرياء، وأنه قد أتى بعمل جدير!

٢- **أما الآخرون:** فقالوا إن المقصود بالقراءة ها هنا أن الاستعاذة أن تكون قبل قراءة القرآن، إذ وما الفائدة من الاستعاذة من بعد القراءة في طرد أوهامه، ووساوسه، ونفثاته، وهمزاته، ولماته، هو هذا الشيطان الرجيم.

٣- **ثم قالوا قولا جميلا:** قالوا إن مجيء القرآن ها هنا بالفعل وحين جاء ماضيا، فإن هذا من باب تقديم وتأخير؛ ولأن الزمنين، وحين يتقاربان، فدل على إمكان المبادلة بينهما.

٤- وخرجوا تخريجا آخر لعله يفيد في هذا المضمار، وحين قال رب العزة والجلال في آية الحجاب ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾: فالأصل أن هذه الآية فيها تقديم وتأخير؛ لأن الأصل أن نقول اسألوهن من وراء حجاب، حين تريدون أن تسألوهن متاعا، وهذا هو الحق، وإلا فكيف نسألهن متاعا قبل أن يكون هناك حجاب.

٥- وخرجوا تخريجا آخر في قول رب العزة والجلال سبحانه وتعالى ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[القمر: ١]. فقدم الله تبارك وتعالى هنا اقتراب الساعة، وهو وهو لا شك آت بعد انشقاق القمر، فإن انشقاق القمر، وكما أنف من حياة نبينا محمد عليه صلوات الله وسلامه، كان انشقاق القمر يومه حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم من بعد انشقاق القمر يأتي يوم القيامة. وهذا تخريج معقول.

٦- ومنه قوله تعالى ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾ [النجم: ٨]. فإن ههنا تأخير أيضا، فتدلى أولا، ثم دنا! ثم خرجوا حديثا عن نبينا محمد عليه صلوات الله

وسلامه، أنه وحين كان يقوم من نومه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقول الله أكبر ثلاثا، ولا إله إلا الله ثلاثا، صلى الله ثم يستعيذ بالله من همزه ونفخه ثم يقرأ.

وإنما همزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر؛ ولحديث: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه قال همزه الموتة ونفثه الشعر ونفخه الكبر(١).

وبه دل على تقدم الاستعاذة على القراءة، وعلى ما أنف، وكيف خرجوا قوله تعالى ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾

٧- توسط قوم، وأرادوا أن يخرجوا، وكما يقال من الخلاف، وقالوا لا مانع أن يبدأ بالاستعادة قبل القراءة، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم من بعد القراءة أيضا. وخروجا من الخلاف.

٨- وهذا مبدأ أصولي، يسمونه هكذا الخروج من الخلاف.

٩- ولكن جمهور القراء على أن الاستعاذة، وإنما تكون قبل القراءة؛ لفعل النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٦٦٥

فصل

وأما المسألة الثانية: هل الاستعادة آية من القرآن العظيم؟

إن الاستعاذة ليست آية من آيات الذكر الحكيم؛ دلالة أنها لم توجد فيه، ولم يأت بها دليل.

وحين لم توجد في بدايات السور، على أنها آية، كالبسملة، وعلى خلاف فيها أيضا، ومما سوف يأتي إن شاء الله تعالى.

ثم ليس هنالك ثمة دليل على أن الاستعاذة آية، وإنما نحن مأمورون بها من أمر ربنا تعالى وحين قال ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾.

ومن هدي نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين كان يقوم من الليل فيقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم يبدأ قراءته.

نخلص ونقول إن الاستعاذة، وإنما تكون قبل القراءة؛ للدليل عليها، وأن الاستعاذة ليست آية من الذكر الحكيم القران العظيم؛ لعدم وجود أو ورود نص يفيد ذلك.

فصل

بسم الله الرحمن الرحيم [الفاتحة: ١].

(١)

عظم شأن البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه البسملة مما أتحف به ربنا تبارك وتعالى العباد، وحين يبسملون، وحين يتبركون، بذكر اسم ربهم الرحمن عز وجل، وحين يبدأون عملا، كائنا ما كان هذا العمل، من حياتهم، في ليلهم وفي نهارهم، وفي جلوسهم وفي قعودهم، وعند شرائهم وعند بيعهم، وعند طعامهم وعند شرابهم، وعند وضوئهم، وعند تناسلهم، وعند دخولهم المسجد، وعند خروجهم من المسجد .

وإذ تراه قد احتوى، وتضمن ذكرا حسنا، وهو هذه البسملة.

وبه دلك على كم كانت أهمتها وعظمتها.

واكرر؛ ولما احتملته من بركة، ولما كان هذا أولا، وهذا توقيف.

وثانيان ولأنها قد تضمنت ثلاثة أسماء من أسماء ربنا الرحمن الحسنى، الله ولما كان علما على ربنا الرحمن تبارك وتعالى، والرحمن والرحيم.

تاريخ البسملة: دلنا على عظم شأنها هو هذه البسملة، هو ذلكم التسلسل التاريخي لها، فقد كانت في عقد الأولين، وكما أنها في عقد الناس أجمعين، ولسوف تظل ايضا في يقين، وعقد المؤمنين المسلمين، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين، إفرادا لهذا الرب العظيم التواب بألوهيته، وربوبيته، وتنزيهه، تبارك وتعالى، عن الولد.

وأنتم ترون، ونحن نرى بسملة، ما أنزل بها من سلطان، ولا ثمة دليل عليها، وحين يقول الناس شيئا يسمونه بسملة، خليا عن بركة، وخليا عن ذكر، وبركة!

وهذه بسملتنا، تهيمن على اللب هيمنتها، وتخلع على الفؤاد خلعتها، بحيث وحين يقول العبد: بسم الله الرحمن الرحيم فقد خلع الأرباب كلهم، وإلا ربه ومولاه تبارك وتعالى ربا وإلها موحدا مفردا ربه عز وجل، بهذا التوحيد، الذي هو ذلكم الإذعان والاستسلام لربه الرحمن تبارك وتعالى، في كل شيء، دق أو جل.

وهذا هو مطلق عبودية العبد لربه الرحمن؛ ولذا يعلن في كل شأن من شؤونه، بسم الله الرحمن الرحيم.

أعود لأقول: إن هذا التسلسل التاريخي، الذي امتنت به، واحتفت به هذه البسملة، يدل على عظم شأنها، وحين كان من قولهم أولا: باسمك اللهم، وكما يقولون، فجرت بذلك مجراها، وحين أخذت عهدا من العهود، طال أم قصر، عندما يكتبون أو يتراسلون أن يقولوا: باسمك اللهم. وهذا له دلالته؛ لأنه فيه البسملة، وبركتها، وفيه ذكر اللهم وحده، وإن كان الكفار حتى في مكة، ورغم شركهم، ومن أسف يقولون: باسمك اللهم.

ودل أيضا على ضرورة العلم بالله تبارك وتعالى، أنه الرب الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ولا شريك له، ومن ثم فلا شريك له في أمره ولا نهيه.

ثم حين نزل قول الله تبارك وتعالى ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم وحين أراد ان يكتب بسم الله الرحمن الرحيم يوم الحديبية، وانظر كيف كان الاقتداء، وهو نبي الأمه صلى الله عليه وسلم، حينما يتنزل عليه الذكر الجميل، الحسن، الكريم، العظيم، القرآن، المبين من ربه، وإنما يكون عنده وقافا، وعلى قوله تعالى، وعلى لسان نبيه نوح عليه السلام ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.

وها هو يقول بسم الله اتباعا واقتداء وابتهاجا لهذا القرآن العظيم، الذي هو حياه الناس، وهو سعادة الناس، وهو طمأنينة الناس، وأمنهم، وسلامهم، ورغدهم في عيشهم، وترحالهم، وقيامهم، وقعودهم، ونومهم، وفي كل شأن من شؤونهم.

ثم جرت مجرى على هذا النحو تاريخيا، بعدا زمانيا، على هذا (بسم الله)، ثم حين نزل قول الله تبارك وتعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

ومن بعدها كتب نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن، ثم لما نزل قول الله عز وجل ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الإسراء:٣٠]. وقف عندها صلى الله عليه وسلم وانتهج معه العباد المسلمون هذه التسمية، الجميلة، المباركة، المنة، الفضل الحسن من ربنا عز وجل، وأن نقول بسم الله الرحمن الرحيم، في نطق وذكر حسن ممتن به ربنا الرحمن علينا.

وحين كان ذلك الوصل بين لسان لاهث بذكر ربه الرحمن، ومتصل بقلب أيضا متصل هذا القلب أيضا بربه الرحمن؛ لتلتئم وتلتحم منظومة هذا الذكر، في حلقة متصلة بين لسان وقلب ذاكرين، لربهما الرحمن عز وجل، ومن قولهما بسم الله الرحمن الرحيم.

وحين اشتكى نبينا صلى الله عليه وسلم، ويوم أ نزل إليه جبريل عليه صلوات الله وسلامه وبركاته: أتشتكي يا محمد قال له صلى الله عليه وسلم قال عليه الصلاة والسلام جبريل وأن نعم، وليرشده الملك جبريل ويسديه ومن قوله: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك صلى الله عليه وسلم، وهو إذ يفارق أمة ترك لها منهجها وسبيلها وسعادتها في يومها وغدها ومستقبلها.

وهكذا يرقيه جبريل عليه السلام، بذكر البسملة في منظومة ذكر نزل بها الملك جبريل، أجل خاطر هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وهو إذ يختار الرفيق الأعلى.

فعن أبي سعيد الخدري: **أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك**(١).

(١) صحيح مسلم: ٢١٨٦

فصل
بسم الله الرحمن الرحيم (٢)
القول السهل الرخيم في باء ﴿ بِسْمِ ﴾

من المعهود أن القرآن العظيم إنما حوى من البلاغة والإعجاز البياني ما عجز أمامه البلغاء، ووقف أمامه الفصحاء ذهولًا واستشرافًا لمكامن الدُّرِّ فيه، حتى أضحى ذُخرًا سخيًّا للعطاء اللغوي، وحتى أصبح مَعِينًا غنيًّا بالزاد البياني.

ومنه سرُّ الأدب في مجيء حرف الباء مقدَّمًا في قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه: ﴿ بِسْمِ ﴾؛ مما حدا بأهل البيان أن يتحلَّقوا حولها شرحًا ودرسًا، وبيانًا وتفسيرًا، وتجزيئًا وتفصيلًا، وإيجازًا وإطنابًا؛ لاستفراغ وُسْعِهم في اسكتناهِ كنوزها، وبذل جُهْدِهم في استنطاق جذورها.

وطاف بهم عملهم، وراح بهم بيانهم إلى جميلِ قولٍ، واعتبار بيان، أنها متضمنة لمعاني الاستعانة في قول، وإلى أنها متناولة لمعاني المصاحبة في اختيار.

وأقول: إن تلكم السياحة شرحًا وإفهامًا لهذه الباء، وهي في ابتدائها مبنًى لَبَاءٌ (ب)، وهي في انتهائها إعرابًا لَحَرْفُ جَرٍّ - لَقَمِنٌ وحده أن نقف أمامه إخباتًا واستشعارًا للخضوع لمنزل القرآن العظيم، أن جعل من حَبْكِهِ لحرف الجر الباء أنَّ قومًا يدورون ويبحثون عن علة ورودها، وآخرون يسهرون وينقبون عن سر وجودها!

ووجه اللغة فيها هو اتصالها بكونها من لغتنا العربية المجيدة؛ إما جزءًا من بنية كلمة كقولنا: كتب، وإما زائدة على بناء الكلمة لمعنًى فيها، وهو الذي نعنيه ابتداءً بقولنا: ﴿ بِسْمِ ﴾.

وحرف الباء من حيث هو حرف هجاء أعجمي لا يُفْهَم بإفصاح مجردًا، ولا يفهم منفردًا بحاله إلا عند اتصاله بغيره، فها هنا - وها هنا فقط - يمنحك من دُرَرِهِ، وعندئذٍ - وعندئذٍ فقط - يهبُك من أصدافه، فتعرف من بعده معنًى مقصودًا مطلوبًا، وتدرك من ورائه مرمًى وهدفًا محبوبًا مرغوبًا.

وإنما كُسرت الباء لتكون حركتها شبيهة بعملها، كونها تجر الاسم بعدها، أو فرقًا بين ما لا يكون إلا حرفًا، وهو الباء كالتي معنا الآن، وبين ما قد يكون مآله اسمًا نحو حرف التشبيه الكاف، فإنها تكون دالة على اسم؛ نحو قولنا: محمد كالأسد، فتكون في الذهن أن الكاف دلت على اسم الأسد، فكانت بمثابته.

وتميِّزُها المشاكلة؛ إذ لما كانت الباء تخرج من بين الشفتين فسميت شفوية لأجل ذلك، ولما أن كانت تخرج من بينهما بالتصاق - فشاكلت بذلك كل ملتصق بالدلالة عليه.

ولعل سرًّا في اجتبائه دون غيره؛ إذ لما كان متمتعًا بصفات الحروف القوية من الجهر والشدة والاستفال والانفتاح والإذلاق والقلقلة، فناسب أن يذخر بسموٍّ، ولاءم أن يُرْفَعَ بعلوٍّ!

والباء لها نظم طبيعي ونسق ترتيبي؛ إذ لما كانت الباء من مبدأ الفم لفظًا، وكذا البسملة نطقًا، واتحادهما بمبدأ الفم، منحهما المناسبة بينهما في أدق

مبانيها، وأرفع معانيها، فسبحان منزل القرآن؛ وقد قال فيه: ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩]، وبه فمجيء الباء أبدًا في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ﴾؛ لزيادة معنًى متضمن فيها من تبرُّكٍ وتيمُّنٍ وتعريف وزيادته معه؛ بحيث يمكن القول: إنه لو زالت الباء، لزال هذا المعنى الزائد.

وإنَّ جَعْلَها للاستعانة يُشعِر بأن ضعفًا ملازمًا للإنسان حال عزمه على قيامه بفعل ما، وقد اضطره ضعفه أن يستعين، وقد وجد في قرارة نفسه أن يستكين إلى ربه الرحمن سبحانه وحده، وهذه من ألطاف العبودية لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، وهي أيضًا من دلالات الخشوع، وهي نبأ من شارات الخضوع لمولانا الله تعالى.

والباء فيها احتكام إلى صفاء قلب، فليس يكون عامرًا إلا بذكر مولاه، وليس يكون إلا راجيًا عفوه، ومبتغيًا عونه وهداه سبحانه، وأنه من ثَمَّ لا يستعين إلا بربه الحق المبين سبحانه، فقدَّم بين يديه الباء عند قوله: ﴿ بِسْمِ ﴾، مما دلَّ على ما لحرف الباء بهذا المعنى من زيادة مدخل في الفعل، حتى وكأنه - أي: الفعل - لا يتأتى ولا يوجد دون اسم الله تعالى، وحتى وكأنه ليس يدلي بهذه المعاني الفضفاضة في الفضاء البياني الواسع المديد إلا مستمدًّا ذلكم الفيض من ملابسة حرف الجر الباء مع اسم الله تعالى ربنا الرحمن؛ ليعطيَنا تفاعلًا خيرًا، ويمنحنا عطاء وجودًا وكرمًا، وهو من لطف المعاني التي منحها الله تعالى للحروف، ومنها حرف الباء حال اتصاله بقولنا: ﴿ بِسْمِ ﴾.

ولئن كان من معانيها استعانةٌ به تعالى وحده، فإنه أيضًا معنًى مفضٍ بكل وسع إلى إسقاط أحدنا حولًا له أو قوة، وهو مستشعر تمامًا فقره أمام

سلطانه تعالى وقيوميته، حتى وجد من صدق لجوئه أنْ تبرأ من كل حَولٍ سوى حَولِ ربه، وإلا أنه قد أناخ رحاله أمام باب قوته تعالى منطرحًا ألَّا قوة له إلا به سبحانه، وسائر ذلك من لطف قوله: ﴿ بِسْمِ ﴾.

وليس يعجب أحدنا عند إفراده تعالى بالاستعانة به وحده؛ فكم من مأزق وُضعنا فيه، ولما لم نجد سواه حين استعانتنا به وحده، ليخرجنا منه بسلام آمنين مطمئنين.

وليس يعجب أحدنا حين يرى خُيلاء من نفسه الأمارة، وأنه بإمكانه الخروج عن معاني الاستعانة بالله تعالى ربنا الرحمن وحده، ولو طرفة عين، إلا لكي يجد نفسه وكأنه كان مرتكنًا إلى جُرُفٍ هارٍ، فانهار به ومعه معًا.

وثمة معنًى لطيف آخر أنبأنا عنه حرف الباء؛ إذ يعد استعمالها في معنى المعاني القلبية أكثر من كونها أداة للأفعال، وهو ما يناسب كونها للتبرك باسم الله تعالى تأدبًا معه، وتعظيمًا له سبحانه.

إذ لما كان ابتداء المشركين بأسماء آلهتهم قائمًا على وجه التبرك، وبحرف الباء، ومنه فكان ملائمًا أن يرد عليهم في ذلك بقولنا: ﴿ بِسْمِ ﴾.

وحرف الباء دالٌّ على ملابسة جميع أجزاء الفعل لاسم الله تعالى حين تلبَّس العبد بذلكم الفعل، وحيثما أقول فعلًا، فإن بيانه كل فعل قد عقد أحدنا عزمه على القيام به، ومنه فهذه حيثية امتلاء قلبٍ بالإخبات لربه واعتماره به؛ وعليه فهي شارة طمأنينة فؤادٍ لذكرِ مولاه تعالى؛ إذ جعل قلبه مملوءًا من أسماء الله تعالى وتوحيده، ومن ثَمَّ فلا يجد في ذات نفسه افتقارًا إلى أحد سواه سبحانه.

ولما أن كان التبرك والتيمن باسمه تعالى كمعنًى ظاهر مركوز في فِطَرِ الحُنفاء، فدلَّ على لزوم حرف الباء قيامًا لدواعي الافتقار، ودليلًا على معاني الالتجاء إليه سبحانه وتعالى وحده.

والباء في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ﴾ دالة على إيجاز المباني تحصيلًا لكثير من المعاني، ولقد كان منها ذلكم الاصطفاء بكشف الضر كله، واجتلاب النفع كله من لدنه تعالى، ولقد كان من بركة ذلك قولنا: ﴿ بِسْمِ ﴾، وذلكم بجعل اسمه تعالى مقدمًا على سائر أفعالنا وجميع أقوالنا، ومتلبسًا بحرف الجر الباء؛ ليمنحه صفاءً ونقاءً فوق زينته وقَسَامَتِهِ وبَهْجَتِهِ، وليضفيَ عليه وضاءة وبهاء في حُلَّتِهِ ومَلاحَته ونَضْرته.

وذلكم هو العهد بذكره تعالى، وتقديمه على كل ما سواه، فردًا صمدًا، ليكون اللَّجَأُ إليه وحده تعالى، ولقد كان عهدًا أن نقول: (بسم الله) تيمنًا وتبركًا، وجلبًا لنفع، ودفعًا لضرٍّ، وذلك ببركة قولنا: ﴿ بِسْمِ ﴾، وذلكم أيضًا تضامنًا مع الوحي الكريم على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، حين قال من حديث عثمان بن عفان: ((**من قال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم تصبْهُ فجأةُ بلاءٍ حتى يُصبحَ، ومَن قالها حين يصبح ثلاث مرات، لم تُصبْه فجأةُ بلاءٍ حتى يُمسيَ**))(١).

وانطراحُ عبدٍ بين يديه تعالى متذللًا مستعينًا باسم الله الذي لا يضر مع ذكر اسمه شيء؛ إذ مَن كان ذلكم شأنه أعانه، ومن لاذ ببابه حفظه وصانه، ومنه فلا مسوِّغَ لقول قائل من أن المراد بالحديث الإخبارُ بأنه لا يضر مع ذكر

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٠٨٨

اسمه شيء من مخلوق، وذلكم لأنه تعنُّتٌ في الشرح، ولأنه تلبس بعناد ينأى به فأل حسن، حين قولنا: إن البدء باسمه تعالى سبب لحلول البركات - كل البركات - تيمنًا به، وأنسًا بذكره، وشرفًا بمعيته تعالى.

ونظرة أولية إلى النص لا يُنتهَض لها قول قائل: إنه خبر، فإن النص يقول: (من قال)، ولو عُرِّيَ عنه، لكان هناك مجالٌ لمثل ذلكم تَمَحُّلٍ، فتأمل.

والأصل أن مقصد مبتدئ بقوله: ﴿ بِسْمِ ﴾ أن يكون جميع عمله، وسائر قوله مقترنًا ببركة اسم الله تعالى، وهو قصد أوليٌّ أيضًا، تُمليه حقيقة العبودية الخالصة لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

ولأن القرآن ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ولأنه قد دلت القرائن على استعمال عرب الجاهلية الباءَ في مناسباتهم المختلفة، دلالة على يُمْنٍ وتبرك، ومنه قولهم في أعراسهم (بالرِّفاء والبنين) - فدلَّ ذلك على مدى التناغم بين نص التنزيل ومحاكاة الإرث اللغوي للاستخدام القرآني، وإعماله للألفاظ بحيث تكون تراكيبها مُبِينَةً عن إعجازه، كما أنها ناطقة ببلاغته وبيانه، وأنه أيضًا ليتناغم مع قولنا: إن القرآن إنما قد نزل بلغتهم التي هم يعرفونها؛ كيما يمكن لأحد ادعاء - ولو من طَرْفٍ خفي - أنه ليس يفهم البيان، وأنه ليس محيطًا بأغراض القرآن.

وقولي السابق من مناسبة اللغة لا غير، وإلا فأذكار رسولنا صلى الله عليه وسلم في هذه المناسبات غير أقوالهم، وليس المقصود بسط ذلك ها هنا على كل حال.

والباء هي باء الملابسة، وهي باء المصاحبة، وهي باء الإلصاق أيضًا، لمعانٍ مترادفات في الدلالة على هذا المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿ **تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ** ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، واستعمالها بهذا المعنى هو أكثر معانيها ذيوعًا وانتشارًا؛ كما قال ابن هشام: "الباء المفردة حرف جر لأربعة عشر معنًى؛ أولها: الإلصاق، قيل: وهو معنًى لا يفارقها، فلهذا اقتصر عليه سيبويه"(١).

وقال سيبويه: "وباء الجر إنما هي للإلصاق والاختلاط"(٢).

ودلَّك على عظيم لطف الباء تعدد معانيها كما سلف، ولعلمك السابق أن تعدد الاسم دال على شرف المسمَّى، ومنه فقد استشرفت فضلها من تلبُّسِها باسم ربها الرحمن سبحانه، فتأمل.

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، (١/ ١٣٧)
(٢) كتاب سيبويه (٢/ ٣٠٤)

فصل

بسم الله الرحمن الرحيم(٣)

المسألة في حكم البسملة(١)

سبب الخلاف: قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى(التسمية لو كانت من القرآن لكان طريق إثباته إما التواتر أو الآحاد والأول باطل ، لأنه لو ثبت بالتواتر كون التسمية من القرآن لحصل العلم الضروري بأنها من القرآن ، ولو كانت كذلك لامتنع وقوع الخلاف فيه بين الأمة . والثاني : أيضاً باطل؛ لأن خبر الواحد لا يفيد إلا الظن ، فلو جعلناه طريقاً إلى إثبات القرآن لخرج القرآن عن كونه حجة يقينية ولصار ذلك ظنياً ، ولو جاز ذلك لجاز ادعاء الروافض في أن القرآن دخله الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف ، وذلك يبطل الإسلام) (١).

ملخص المسألة: أولى أهل العلم عناية خاصة بالبسملة وذلكم لتعلقها بالقرآن الجيد من جانب ومن ثم بارتباطها بالصلاة، وباعتبارها قرآنا كريما من جانب ثالث.

ولورود أحاديث جد غفيرة بشأنها مما أضفى عيها أهميتها، إلا أنه قد نشأ عن هذه الأحاديث أقوال عدة في شأنها وذلكم لتعلق الأمر بحكمها عموما ومدى اندراجها تحت أي منها نتيجة ذلك.

---

(١) تفسير الرازي(مفاتيح الغيب)، الرازي: ج ١ :١٩٥

وقد حفلت كتب أهل العلم ببيان أربعة أوجه حولها تعلق الأول منها ببيان أنها آية من سورة الفاتحة فقط، في حين تعلق الوجه الثاني بكونها آية أو بعض آية من كل سورة سوى سورة براءة، وكان الوجه الثالث مكرسا لبيان أنها تعد آية مستقلة في أول كل سورة لا منها. وخص الوجه الرابع لذكر أنها ليست بآية ولا بعض آية من أول الفاتحة، ولا من أول غيرها، وإنما كتبت للتيمن والتبرك، والفصل بين السور.

وسوف أتناول كلا بدليله. ثم أردف بما رأيته حقا في المسألة. والله تعالى أسأله الصواب فيما إليه نحوت، وإلى ما إليه ذهبت.

والبسملة من حيث إنه قد تواتر نقلها كتابةً في المصحف، وأنها قد تواتر نقلهـا شفاهة على الألسنة في بداية كل سورة - ما عدا سورة براءة، ومنه تكون آيـة من القرآن الكريم فيما عدا سورة النمل، وهذا هو قول جمهور أصحاب المذاهب الثلاثـة الحنفيـة والشافعية والحنابلة .

أولا: إنها آية من سورة الفاتحة فقط. وهو قول الإمام الشافعي.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال الشافعي: هي آية في الفاتحة ؛ وتردد قوله في سائر السور ؛ فمرة قال : هي آية من كل سورة ، ومرة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها(١).

الأدلة:

١- قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى(حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ ، عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : **سُئِلَ أَنَسٌ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ**

(١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج٩٣/١

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ : كَانَتْ مَدًّا ، ثُمَّ قَرَأَ : { بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } يَمُدُّ بِبِسْمِ اللهِ ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ)(١).

وجه الاستدلال: إن قراءة النبي ﷺ للبسملة مدا دل على أنها من القرآن العظيم، وإلا ما قرأها مدا كما هو الشأن في قراءته للقرآن المبين. إثباتها في المصاحف مع الفاتحة وعدها من آياتها.

٢- عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها(كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا قرأَ يُقطّعُ قراءتَهُ آيةً آيةً بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِينِ)(٢).

وجه الاستدلال: أن الرسول قرأ البسملة مع الفاتحة، قالوا: فدل هذا على أنها آية منها.

٣ - إثباتها في المصاحف مع الفاتحة وعدها من آياتها.

ثانيا: إنها آية أو بعض آية من كل سورة سوى سورة براءة

وهذا قول: (الشافعي، ومن وافقه، ورواية عن أحمد، ونسب إلى أبي حنيفة.

الأدلة

١ –عن أَنَسٍ، قَالَ : **بَيْنَما رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، فَقُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٧٧

(٢) سنن الدارقطني: ٦٥١/١، وقال الدارقطني المحدث: إسناده صحيح، وكلهم ثقات.

{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ : مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ زَادَ ابْنُ حُجْرٍ ، فِي حَدِيثِهِ : بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ . وَقَالَ : مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ ، عَنْ مُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يَقُولُ : أَغْفَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِغْفَاءَةً ، بِنَحْوِ حَدِيثِ ابْنِ مُسْهِرٍ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ : نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ حَوْضٌ وَلَمْ يَذْكُرْ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ)(١).

وجه الاستدلال من الحديث: أن البسملة آية أنزلت مع سورة الكوثر فهي كذلك آية أو بعض آية من كل سورة تنزل معها وتعد منها.

٢ - ثبوت البسملة في المصاحف مع كل سورة، سوى براءة، مما يدل على أنها آية أو بعض آية من كل سورة.

وقال الآمدي رحمه الله تعالى: (اتفقوا على أن التسمية آية من القرآن في سورة النمل)(٢).

وقال أبو حيان الغرناطي الأندلسي رحمه الله تعالى(أنه لا تصح الصلاة إلا بها في أول الفاتحة ، ولا يكون قارئا لسورة بكمالها إلا إذا ابتدأها بالبسملة سوى براءة ، لإجماع المسلمين على أن البسملة ليست بآية فيها)(١).

---

(١) صحيح مسلم: ٦٤٥
(٢) الأحكام، الآمدي: ج ١ / ١٦٣

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: (الثاني، أنها آية من كل سورة؛ وهو قول عبد الله بن المبارك)(٢).

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى: فالبسملة آية من كل سورة غير (التوبة) لإجماع الصحابة على كتابتها في المصاحف، وإجماع القراء على قراءتها غير (التوبة)، ويؤيد هذا التواتر الخطي والقولي كثير من أحاديث الإثبات الصحيحة، فوجب إرجاع ما ورد من أدلة النفي الظنية إلى الإثبات وإلا فلا يعتد بها، وإن صح سندها؛ لأن أحاديث الإثبات أقوى دلالة من أحاديث النفي، وأولى بالتقديم عند التعارض(٣).

ويؤيد أنه قوله الفقرة التالية:

وقال أيضا رحمه الله تعالى: (فذهب إلى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة فقهائهم وقرائهم ومنهم ابن كثير، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي من القراء، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة، والشافعي في الجديد وأتباعه، والثوري وأحمد في أحد قوليه، والإمامية، ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة: علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة، ومن علماء التابعين سعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وابن المبارك، وأقوى حججهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة {التوبة} مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، ص: ٢١٨

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج٩٣/١

(٣) كلام منسوب إلى الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى، ومنشور على موقع إسلام أون لاين بعنوان: هل البسملة آية من كل سورة؟

ليس منه، ولذلك لم يكتبوا {آمين} في آخر الفاتحة، وأحاديث منها ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " أنزلت علي آنفا سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم " وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس " أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان لا يعرف فصل السورة – وفي رواية انقضاء السورة – حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم ". وأخرجه الحاكم في المستدرك، وقال صحيح على شرط الشيخين. وروى الدارقطني من حديث أبي هريرة قال: " "قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إذا قرأتم الحمد لله (أي سورة الحمد لله) فَاقْرَءُوا{بسم الله الرحمن الرحيم} فإنها أم القرآن والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها "(١).

ومنه وعلى قول أصحاب هذا الرأي تكون البسملة أول آية من سورة الفاتحة، وهي أيضا آية من أول كل سورة من القرآن الكريم، كما وأنها جزء من آية في سورة النمل، كما قال تعالى(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ).

ثالثا: تعد البسملة آية مستقلة في أول كل سورة لا منها

الأدلة:

١ – عنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ **كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُّ عليْهِ وسلَّمَ لا يعرِفُ فصلَ السُّورةِ حتَّى تنزَّلَ عليْهِ بسمِ اللهِّ الرَّحمنِ الرَّحيمِ**(٢).

---

(١) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار (تفسير محمد رشيد رضا): ج٣٧/١
(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٧٨٨

قالوا: كونها تنزل من قوله ﷺ (أُنْزِلَتْ) يدل على أنها آية من القرآن، وكونها للفصل بين السور يدل على أنها ليست من السور وإنما آية مستقلة.

٢ - إجماع الصحابة على إثباتها في المصحف، وكتابتهم لها بخطه وقلمه، فنقلت نقله كما نقلت في سورة النمل، فلا يجوز الخروج عن إجماعهم وذلك لأنهم جردوا المصحف من غير الآيات القرآنية كالتفسير وغيره.

ويلاحظ أن هذا هو نفسه استدلال الشيخ محمد رشيد رضا في القول(ثانيا).

٣ - قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى (فعند هؤلاء هي آية من كتاب الله في أول كل سورة كتبت في أولها وليست من السور وهذا هو المنصوص عن احمد في غير موضع ولم يوجد عنه نقل صريح بخلاف ذلك وهو قول عبد الله بن المبارك وهو أوسط الأقوال وأعدلها)(١).

رابعا: أنها ليست بآية ولا بعض آية من أول الفاتحة، ولا من أول غيرها، وإنما كتبت للتيمن والتبرك، والفصل بين السور

وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والثوري، ومن وافقهم. مع إجماعهم على أنها بعض آية من سورة النمل.

الأدلة:

١ - عمدة القائلين بهذا القول: كان اعتمادا على حديث صحيح رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، **عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ .**

---

(١) القواعد النورانية الفقهية، تقي الدين أبي العباس أحمد الحراني/ابن تيمية:ص١٧

فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: { الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ قَالَ: سُفْيَانُ، حَدَّثَنِي بِهِ الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ يَعْقُوبَ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَرِيضٌ فِي بَيْتِهِ. فَسَأَلْتُهُ أَنَا عَنْهُ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا السَّائِبِ، مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ح وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي العَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ يَعْقُوبَ، أَنَّ أَبَا السَّائِبِ، مَوْلَى بَنِي عَبْدِ اللهِ بْنِ هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ صلَّى صَلَاةً فَلَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ بِمِثْلِ حَدِيثِ سُفْيَانَ وَفِي حَدِيثِهِمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**)(١).

---

(١) صحيح مسلم: ٦٣٣

ووجه الاستدلال من الحديث أنه لم يذكر ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، فدل على أنها ليست آية من الفاتحة.

وأعل ذلكم القول، لورود رواية أخرى وهي: "يقول عبدي: إذا افتتح الصلاة بسم االله الرحمن الرحيم فيذكرني عبدي.

وأجيب بضعف روايته. حيث: قال الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى(**فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنِّي قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لَهُ ، يَقُولُ عَبْدِي إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ : { بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فَيَذْكُرُنِي عَبْدِي ، ثُمَّ يَقُولُ : { الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } فَأَقُولُ : حَمِدَنِي عَبْدِي ، ثُمَّ يَقُولُ : { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فَأَقُولُ : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، ثُمَّ يَقُولُ : {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } فَأَقُولُ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، ثُمَّ يَقُولُ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، وَآخِرُ السُّورَةِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** . ابْنُ سَمْعَانَ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ زِيَادِ بْنِ سَمْعَانَ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ ، وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ جَمَاعَةٌ مِنَ الثِّقَاتِ ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْهُمْ : مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَابْنُ جُرَيْجٍ ، وَرَوْحُ بْنُ الْقَاسِمِ ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ ، وَابْنُ عَجْلَانَ ، وَالْحَسَنُ بْنُ الْحُرِّ ، وَأَبُو أُوَيْسٍ وَغَيْرُهُمْ عَلَى اخْتِلَافٍ مِنْهُمْ فِي الْإِسْنَادِ وَاتِّفَاقٍ مِنْهُمْ عَلَى الْمَتْنِ ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَدِيثِهِ { **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } وَاتِّفَاقُهُمْ عَلَى خِلَافِ مَا رَوَاهُ ابْنُ سَمْعَانَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ(١).

---

(١) سنن الدارقطني:١٠٢٦

٢ – أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانُوا يَفْتَتِحُونَ الصَّلاَةَ بِ {**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ** })(١).

ووجه الدلالة من الحديث أنه لم يكن يبدأ ب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فدل على أنها ليست آية من الفاتحة أيضا.

٣- وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَيْهِ يُخْبِرُهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ قَالَ : صَلَّيْتُ خَلَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِـ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا يَذْكُرُونَ { **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ مِهْرَانَ ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ ، أَخْبَرَنِي ، إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَذْكُرُ ذَلِكَ(٢).

والشاهد من الحديث قوله ﷺ (لَا يَذْكُرُونَ { بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا). فدل على أنها ليست منها كذلك.

٤ –أخرج الإمام النسائي رحمه الله تعالى: عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَوْفٌ قَالَ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ الْفَارِسِيُّ قَالَ : قَالَ لَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ : قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ : مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي ، وَإِلَى بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ ، فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ تَكْتُبُوا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ ، فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ عُثْمَانُ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ

---

(١) صحيح البخاري: ٧٢٢
(٢) صحيح مسلم: ٦٤٤

يَكْتُبُ عِنْدَهُ فَيَقُولُ : ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا ، وَتُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَقُولُ : ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا ، وَكَانَتِ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا أُنْزِلَ وَبَرَاءَةٌ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهًا بِقِصَّتِهَا ، وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا فَمِنْ ثَمَّ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا بِسَطْرِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١).

٥ – من المعلوم أن آيات سورة الكوثر ثلاث آيات: وأن عدد آيات سورة الإخلاص أربع آيات، فلو كانت البسملة آية من هاتين السورتين لكانت سورة الكوثر عدد آياتها أربعاً، وسورة الإخلاص عدد آياتها خمساً، فلما لم يكن ذلك فهذا يدل بوضوح على أن البسملة ليست آية من هاتين السورتين، فلما ثبت ذلك ثبت نفسه في غيرها من سور القرآن الكريم، فلا معنى لثبوتها – أي البسملة في سورة وعدم ثبوتها في سورة أخرى أي في أوائل كل سورة من سور القرآن الكريم .

٦ – إن البسملة لو كانت آية من أوائل سور القرآن الكريم بدءًا من الفاتحة إلى سورة الناس لتواتر هذا الأمر، ولم يحصلْ فيه خلاف مطلقاً، ولعرفته الكافة بتوقيف من النبي ﷺ، وبيانه الشافي أنها من الفاتحة، ومن غيرها من سور القرآن الكريم، كما بين ذلك النبي ﷺ في بقية الآيات ومواضعها من السور والتي لم يحصل فيها خلاف لا في قرآنيتها أو موضعها، ولما كان سبيل معرفة قرآنية الآيات واحدا وهو النقل المتواتر وليس الآحاد وجب

(١) السنن الكبرى للنسائي: ٦٧٨٢، وأُعِلَّ بضعفه. قال العلامة المحدث شعيب الأرناؤوط رحمه الله تعالى: فيه يزيد الفارسي، وهو مجهول .[تخريج المسند: ٤٩٩]. وقال رحمه الله تعالى: ضعيف.

أن يكون ذلك حكم مواضعه وترتيبه ، أي أن يكون ثابتا بالنقل المتواتر ، كما لا يصح لأحد أن يغير ترتيب الآيات ولا أن ينقل أي منها عن موضعه أو نقل سورة عن موضعها، وفاعل ذلك كمن رام إزالة شيء من القرآن، فلو كانت البسملة من أوائل السور لعرفت الكافة موضعها منها كسائر الآيات، وكموضعها من سورة النمل ، فلما لم ينقل أن البسملة آية في أول كل سورة نقلاً متواتراً لم يجز القول بأنها آية في أول كل سورة من سور القرآن الكريم.

٧- إن كتابة البسملة في القرآن الكريم لم يكن متصلا بالسورة وإنما كتبت في سطر مستقل، وفي هذا دلالة واضحة على أنها ليست من السورة ،إذ لو كانت كذلك لوجب أن تتصل البسملة بالسورة، إذ كيف تكون جزءاً من السورة، وتكون منفصلة عنها؟

إن الفصل بين السور يمكن أن يتحقق بدون البسملة، فهو ممكن تحقيقه عن طريق اسم كل سورة، فيكون اسمها فاصلاً بينها وبين السورة السابقة، وهذا أمر متحقق في سورتي براءة والأنفال حيث تم الفصل بين هاتين السورتين، فلو كانت للفصل كما ذكرتم لوجدت للفصل بين هاتين السورتين.

قال ابن العربي: ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يُختَلَف فيه(١).

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي،ج٦/١

وقال رحمه الله تعالى أيضا: وذلك أن مسجد رسول الله ﷺ في المدينة انقضت عليه العصور، ومرت عليه الأزمنة، من لدن زمن رسول الله ﷺ إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد قط بسم الله الرحمن الرحيم اتباعا للسنة، بيد أن أصحابنا استحبوا قراءتها في النفل، وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها(١).

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه(٢).

وقال القرطبي أيضا: والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها(٣).

وقال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: (التسمية لو كانت من القرآن لكان طريق إثباته إما التواتر أو الآحاد والأول باطل ، لأنه لو ثبت بالتواتر كون التسمية من القرآن لحصل العلم الضروري بأنها من القرآن ، ولو كانت كذلك لامتنع وقوع الخلاف فيه بين الأمة . والثاني : أيضاً باطل؛ لأن خبر الواحد لا يفيد إلا الظن ، فلو جعلناه طريقاً إلى إثبات القرآن لخرج القرآن عن كونه حجة يقينية ولصار ذلك ظنياً ، ولو جاز ذلك لجاز ادعاء الروافض

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي،ج٧/١
(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج٩٤/١
(٣) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج٩٤/١

في أن القرآن دخله الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف ، وذلك يبطل الإسلام([1]).

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى (فعند هؤلاء هي آية من كتاب الله في أول كل سورة كتبت في أولها وليست من السور وهذا هو المنصوص عن احمد في غير موضع ولم يوجد عنه نقل صريح بخلاف ذلك وهو قول عبد الله بن المبارك وهو أوسط الأقوال وأعدلها)([2]).

(١) تفسير الرازي: ٢٠٠/١
(٢) القواعد النورانية الفقهية، تقي الدين أبي العباس أحمد الحراني/ابن تيمية:ص١٧

فصل
بسم الله الرحمن الرحيم(٤)
البسملة عند القراء[١]

بيان: هذا المبحث مستفاد من كتاب(النشر في القراءات العشر)للإمام ابن الجزري رحمه الله تعالى.

الآخذون بالوصل بين السورتين كحمزة وأبي عمرو، وابن عامر، أو يعقوب، أو ورش اختار كثير منهم لهم السكت بين(المدثر، ولا أقسم بيوم القيامة - وبين - الانفطار وويل للمصلين - وبين والفجر، ولا أقسم بهذا البلد - وبين والعصر، وويل لكل همزة) واختار كثير لهم البسملة لبشاعة الوصل(أهل المغفرة لا).

تخصيص السكت والبسملة في الأربعة الزهر مفرع على الوصل والسكت مطلقا. فمن خصها بالسكت، فإن مذهبه في غيرها الوصل، ومن خصها بالبسملة فمذهبه في غيرها السكت، وليس أحد يروي البسملة لأصحاب الوصل كما توهمه المنتجب، وابن بصخان.

وانفرد الهذلي بإضافته إلى الأربعة الزهر موضعا خامسا، وهو البسملة بين الأحقاف والقتال عن الأزرق، عن ورش وتبعه في ذلك أبو الكرم.

انفرد صاحب " التذكرة " باختيار الوصل لمن سكت من أبي عمرو، وابن عامر، وورش في خمسة مواضع وهي: الأنفال ببراءة، والأحقاف بالذين

كفروا، واقتربت بالرحمن، والواقعة بالحديد، والفيل بـ " لإيلاف قريش ".
قال الحسن: ذلك بمشاكلة آخر السورة لأول التي تليها.

طول زمن السكت بقدر البسملة، وروي، عن أبي عمرو إسرارها، أي: إسرار البسملة.

قال ابن الجزري قلت: والذي قرأت به وآخذ: السكت عن جميع من روي عنه السكت بين السورتين سكتا يسيرا من دون تنفس قدر السكت.(النشر في القراءات العشر، ابن الجزري).

كل من الفاصلين بالبسملة والواصلين والساكتين إذا ابتدأ سورة من السور بسمل بلا خلاف عن أحد منهم، إلا إذا ابتدأ (براءة)، سواء كان الابتداء عن وقف أم قطع، أما على قراءة من فصل بها فواضح، وأما على قراءة من ألغاها فللتبرك والتيمن، ولموافقة خط المصحف.

قال حمزة: القرآن عندي كسورة واحدة. فإذا قرأت (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول فاتحة الكتاب أجزأني، وهو محمول على حالة الوصل لا الابتداء؛ لإجماع أهل النقل على ذلك.

لا خلاف في حذف البسملة بين الأنفال وبراءة، عن كل من بسمل بين السورتين. وكذلك في الابتداء ببراءة على الصحيح عند أهل الأداء، وممن حكى بالإجماع على ذلك أبو الحسن بن غلبون، وابن القاسم بن الفحام، ومكي، وغيرهم، وهو الذي لا يوجد نص بخلافه، وقد حاول بعضهم جواز البسملة في أولها.

يجوز في الابتداء بأوساط السور مطلقا سوى (براءة) البسملة وعدمها لكل من القراء تخيرا.

وعلى اختيار البسملة جمهور العراقيين، وعلى اختيار عدمها جمهور المغاربة وأهل الأندلس.

كان الشاطبي يأمر بالبسملة بعد الاستعاذة في قوله تعالى: الله لا إله إلا هو، وقوله: إليه يرد علم الساعة ونحوه لما في ذلك من البشاعة. وينبغي قياسا أن ينهى عن البسملة في قوله تعالى: الشيطان يعدكم الفقر، وقوله: لعنه الله ونحو ذلك للبشاعة أيضا.

الابتداء بالآي وسط براءة قل من تعرض للنص عليها، ولم أر فيها نصا لأحد من المتقدمين، وظاهر إطلاق كثير من أهل الأداء التخيير فيها، وعلى جواز البسملة فيها نص أبو الحسن السخاوي في كتابه " جمال القراء "

إذا فصل بالبسملة بين السورتين أمكن أربعة أوجه:

الأول: قطعها عن الماضية ووصلها بالآتية.

والثاني: وصلها بالماضية وبالآتية.

والثالث: قطعها عن الماضية وعن الآتية.

والرابع: وصلها بالماضية وقطعها عن الآتية، وهو ممنوع ؛ لأن البسملة لأوائل السور لا لأواخرها.

المراد بالقطع المذكور هو الوقف.

تجوز الأوجه الأربعة في البسملة مع الاستعاذة من الوصل بالاستعاذة والآية، ومن قطعها عن الاستعاذة والآية، ومن قطعها عن الاستعاذة ووصلها بالآية.

إن هذه الأوجه على سبيل التخيير والجواز بكل منها على وجه الإباحة لا على وجه ذكر الخلف، فبأي وجه قرئ منها جاز.

يجوز بين الأنفال وبراءة إذا لم يقطع على آخر الأنفال كل من الوصل والسكت والوقف لجميع القراء. أما الوصل فظاهر ؛ لأنه كان جائزا مع وجود البسملة، فجوازه مع عدمها أولى عن الفاصلين والواصلين، واختاره ابن غلبون في قراءة من لم يفصل، وهو في قراءة من يصل أظهر، وأما السكت فلا إشكال عن أصحابه

الخلاف بين السورتين عام بين كل سورتين سواء كانتا مرتبتين، أو غير مرتبتين، فلو وصل آخر الفاتحة مبتدئا بآل عمران، جازت البسملة وعدمها على ما تقدم، أما لو وصلت السورة بأولها كأن كررت مثلا كما تكرر سورة الإخلاص فلم أجد فيه نصا، والذي يظهر البسملة قطعا.

فصل
بسم الله الرحمن الرحيم(٥)
البسملة عند القراء[٢]

بيان: هذا المبحث مستفاد من كتاب(النشر في القراءات العشر)للإمام ابن الجزري رحمه الله تعالى.

والبسملة أول آية من سورة الفاتحة، وهي جزء من آية في سورة النمل كما قال تعالى(**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**).

أجمع القراء على البسملة في أوَّل سورة الفاتحة سواءً ابتدأ بها القارئ أو وصلها بسورة الناس.

وكانت سورة الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت سورة براءة من أواخر ما أنزل من القرآن، قال فكانت قصتها شبيهاً بقصتها فظننا أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال». أي أن النبي لم يبين لهم من شأنها شيءًا، وكانت قصتها تشبه قصة سورة الأنفال، فلم يكتبوا بينهما: بسم الله الرحمن الرحيم، واختار هذا القول الطحاوي وصححه ابن عربي. وقيل: إن ذلك من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه كتبوا كتابًا ولم يكتبوا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد

الذي كان بين الرسول وبين المشركين بعث النبي علي بن أبي طالب فقرأها عليهم في الموسم ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم. وقيل: لأن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة وبراءة سخط، قال عبد الله بن عباس: «سألت علي بن أبي طالب: لم لم يكتب في براءة "بسم الله الرحمن الرحيم"، قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان». وقيل: تركت التسمية إعظامًا لبسم الله الرحمن الرحيم من خطاب المشركين. وقيل: لأنهم اختلفوا هل هما سورتان أو سورة واحدة، فتركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال إنهما سورة واحدة، فرضي الفريقان، وثبت حجتهما في المصحف. وقال القرطبي: «والصحيح أن التسمية لم تكتب لأن جبريل عليه السلام لم ينزل بها في هذه السورة، قاله القشيري».

وأجمع القرَّاء على ترك البسملة في أوَّل سورة براءة، سواء ابتدأ بها أو وصلها بسورة الأنفال.

وكذلك اتفقوا على البسملة في ابتداء كل سورة غير براءة.

أما الابتداء بالأجزاء فالقارئ بعد الاستعاذة مخير إن شاء بسمل بعد الاستعاذة وإن شاء اقتصر على الاستعاذة.

أما الوصل بين السورتين والفصل بينهما بسكتة لطيفة دون تنفس والبسملة بينهما وتركها، فالقراء اختلفوا في ذلك.

أما بين كل سورتين غير الفاتحة فلم يرد عنهم نص بالبسملة، ولكن يبسملون على سبيل الاستحباب.

وأما الوصل والفصل فحمزة يصل بين كل سورتين، وورش وأبو عمرو وابن عامر اختلف عنهم في الوصل والفصل، وعلى هذا يكون لمن يبسمل بين كل سورتين قولًا واحدًا وهم: ابن كثير وعاصم والكسائي وقالون وورش، وإن كان له خلاف في البسملة ثلاث أوجه: وصل الطرفين مع البسملة، وقطع الطرفين مع البسملة وقطع الطرف الأول، ووصل الطرف الثاني مع البسملة. باقي القراء وهم: ورش وأبو عمرو وابن عامر لهم خمسة أوجه: هذه الثلاثة، بالإضافة لوصل الطرفين مع عدم البسملة، وقطع الطرفين مع عدم البسملة، والمقصود بالطرفين: آخر السورة وأول السورة التي بعدها.

أما الوصل بين السورتين والفصل بينهما بسكتة لطيفة دون تنفس والبسملة بينهما وتركها، فالقراء اختلفوا في ذلك، فقالون وابن كثير المكي وعاصم الكوفي والكسائي يبسملون بين كل سورتين إلا بين سورة براءة والأنفال، ووافقهم حمزة في الفاتحة خاصة، ولا يبسمل فيما عدا الفاتحة بين كل سورتين، وكذلك باقي القراء، وهم: ورش وأبو عمرو البصري وابن عامر الشامي يوافقونه في الفاتحة على البسملة.

أما بين كل سورتين غير الفاتحة فلم يرد عنهم نص بالبسملة، ولكن يبسملون على سبيل الاستحباب، وأما الوصل والفصل فحمزة يصل بين كل سورتين، وورش وأبو عمرو وابن عامر اختلف عنهم في الوصل والفصل، وعلى هذا يكون لمن يبسمل بين كل سورتين قولًا واحدًا وهم: ابن كثير وعاصم والكسائي وقالون وورش، وإن كان له خلاف في البسملة ثلاث أوجه: وصل الطرفين مع البسملة، وقطع الطرفين مع البسملة وقطع

الطرف الأول، ووصل الطرف الثاني مع البسملة. باقي القراء وهم: ورش وأبو عمرو وابن عامر لهم خمسة أوجه: هذه الثلاثة، بالإضافة لوصل الطرفين مع عدم البسملة، وقطع الطرفين مع عدم البسملة، والمقصود بالطرفين: آخر السورة وأول السورة التي بعدها.

أما الابتداء بأواسط السور فيجوز الإتيان بالبسملة وتركها، لا فرق في ذلك بين سورة براءة وغيرها، واستثنى بعضهم وسط براءة فألحقه بأولها في عدم جواز الإتيان بالبسملة لأحد من القراء، وذهب بعضهم إلى أن البسملة لا تجوز في أوساط السور إلا لمن مذهبه الفصل بها بين السورتين. وأما من مذهبه السكت أو الوصل بين السورتين فلا يجوز له الإتيان بالبسملة في أواسط السور. وعلى هذا المذهب تكون أوساط السور تابعة لأولها، فمن بسمل في أولها بسمل في أثنائها، ومن تركها في أولها تركها في أوساطها؛ والمراد بأوساط السور ما بعد أوائلها ولو بآية أو بكلمة.

فصل

بسم الله الرحمن الرحيم(٦)

الله

وكان كافيا وعلى كل حال أن أقف مخبتا أمام لفظ الجلالة (الله) من باب واحد أجده ربما كان وافيا لإنهاء الكلام حوله. ذلك لأني وجدت تصديق أنه ليس في الوجود أحد قد تسمى بذلكم الاسم الكريم أبدا. وذلك مذ أن برأ سبحانه نسماته. ولما كان ذلك كذلك ، وقد قال سبحانه ﴿**رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥]. فوقفت مشدوها أمام تيكم عظمة لا يتبارى أحد أن يقف مانعا من تصديقها فيتسمى بها أو غيره فعرفت أنه (الله)سبحانه.

وكان يمكن لنفر من أولئك الذين ادعوا الألوهية أن يركبوا هذا السطو ، ولربما وجدوا سندا من غير ذي علم قد زعم فقال: ها أنا ذا (الله) بدليل أن قد تسميت بما تحدى به الإله ! ولكن لما لم يكن ذلكم قد وقع - ومحال أن يقع - فدل حقا على أنه الله تعالى وحده سبحانه.

ولما لم يكن على مر التاريخ الضارب في القدم من قد تجرأ على تيكم تسمية. لا في تاريخ الحنفاء ، ولا في تاريخ الأشقياء ، حيث لم يرصد لنا التاريخ من ذلك شيئا. وإلا فقد كان يمكن تسجيله بسهولة إثخانا في الادعاء ، وتكذيبا لله تعالى رب الأرض والسماء ، فيما قد قال(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)؟!

فدل على أنه الله تعالى الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

ولست أريد الكلام من جانب أن الإسم (الله) هل هو مشتق أو جامد؟. ذلك لأن المحصلة واحدة. كون الاسم دالا على ربنا الرحمن سبحانه بلا مشاركة لغيره ألبته . ولما كان ذلك كذلك أيقنت لماذا قال الله تعالى عن نفسه سبحانه أنه(أحد)؟!

وكأنه إذن قد انضاف إلى تحصين اسم الذات بالأحدية عوامل آخر ، علاوة على كونه ليس له سمي. فالعلمية ، وعدم التسمي بها ، وعدم قبولها للتسلسل ، ومغايرته تعالى للحوادث ، وكونه تعالى أعرف المعارف ، كل ذلك شاهد على أنه أحد قيم على ملكوته ، مصرف نظام كونه على نحو بديع . وصدق الله (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**)[الأنبياء:٢٢].

ولزم أن يكون (الله) معرفة. ذلك أن النكرات تحمل بعض معاني الجهالات. ومحال عقلا أن يصدق بخالق تلحقه جهالة. ولو كانت جهالة واحدة !

وقد وقفت على قوله تعالى ﴿**رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ كسابقة على ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾، لأقول: إن موجبات إلهيته تعالى لكونه كله على مدار التاريخ ، ويوم أن يصير الناس إلى ربهم الحق من بابين :

فأما أولاهما: فكونه رب السموات والأرض. وقد خلقهما على غير مثال سابق. ولمتخيل أن يجول بخياله الآفاق ، ليتكون في مخيلته وذهنه بعض من

هذين المخلوقين (السموات السبع وما بينهما ومن فيهن ، والأرضين السبع وما بينهما ومن فيهن)! لتتألف لديه هالة عظمى من تعظيمه وإجلاله أن خلقهما. ولا تقل كيف! وأن دبرهما. ولا تقل كيف!

وانظر إلى القدير لا كقدرته من أحد ، كما في ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ، الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ، وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١-٥].

فهذه صورة من صور الكتاب الكريم ، تصور الكون بإعجاز بالغ في البيان ، ضارب في المعنى ، دقيق في التصوير ، لا يملك امرؤ أمامها إلا إخباتا لبارئها ، لما تحمل من جميل التعبير ، وحسن البيان ، في أدق عبارة ، وأجمعها لمعاني الإخلاد إلى رحمة رب كريم سبحانه. ذلك أنه تعالى بيده الملك .الملك كله دقيقه وجليله!.

وذلك لأنه علي كل شيء قدير ، مما تحيطه ، أو لا تحيطه أفهام بشر. لأن الكون عميق كأبعد ما يتصور من عمق! وغائر كأقصى ما يتمثل من غور ! وممتد كأوسع ما يكون من امتداد !وكأن الآية بهذا تمثل إجمالا لسورة الملك كلها! وما بعدها تفصيل لما أجملته !

ذلك لأنه خلق الموت والحياة ، ومن يخلقهما غيره؟!

ولا علينا من ترهات قائل ﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ فإنه لا يملك من أحدهما شيئا. وسكوت القرآن عن لججه للانتقال إلى ما بعده من إفحام على عادة القرآن المجيد.

وخلقهما معا ابتلاء لنا. ويخاطبنا ربنا سبحانه بذلك استدعاء لفطرة سوية خلقنا عليها لا أحد مسؤول عن تدنيسها بالشهوات ، وتعكير صفوها بالشبهات سوانا! ولا أحد مؤاخذ عن اجتثاث بعض أصولها أو كلها من القلوب غيرنا نحن- معاشر البشر- المساكين!

وإنك لتلمس معي أيها القارئ الكريم كيف جاء الإلتئام والترابط بين الآيات الثلاث الأول من دون واو العطف ، لتلتئم صورة خلقه تعالى للكون وما فيه!

فهذه سبع سماوات! متواصلات، أو متفاصلات، فذلكم وجه من وجوه الإعجاز، منضاف إلى أنهن سبع طباق، بعضهن فوق بعض، ما يمسكهن إلا الرحمن ﴿**مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ**)فخلقه مصطحب بلا اختلاف ، ولا تنافر؛ ولهذا قال : (**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ**) أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها من ذلك من شيئ؟! والجواب؛ لا أحد بواجد من ذلكم شيئا! وإلا ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الأحقاف:٤].

هذه صورة واحدة مما رسمته أمامنا سورة الملك؛ لنقف مشدوهين أمام قدرة خالق عظيم هذا خلقه الذي نراه ماثلا أمامنا!.

وأما ثانيهما: فمما سبق أنه تعالى (الله). ولم تجد له الخليقة سميا غيره ليكون قابلا للتحدي. فدل على أنه الله سبحانه أحد وحده.

وأنقل هنا تقريرا كاشفا عن بعض مما يجول في الخاطر عن قدرته تعالى وإعجازه في خلقه حيث(كشفت دراسة علمية حديثة عن أن ٩٠% من أنواع الكائنات الحية في العالم لم تكتشف أو توصف أو تصنف بواسطة البشر بعد. وقدرت الدراسة التي أجراها باحثون كنديون عدد أنواع الكائنات الحية بـ٨,٧ مليون نوع. تمكن العلماء من تطوير أسلوب جديد لتقدير إجمالي أنواع الكائنات في الكون ونشروا نتائج دراستهم في صحيفة "بلوس بيولوجي" العلمية في نسختها الإلكترونية أمس. يقول روبرت ماي أستاذ علم الحيوان بجامعة أوكسفورد في بحث منفصل في نفس النسخة "إن مدى جهلنا بعدد الكائنات الحية على الأرض اليوم مفزع للغاية بل إن ذلك الجهل يزداد عند الحديث عن عدد الأنواع التي يمكن أن نفقدها من تلك الأنواع التي لا تزال توفر خدمات للنظام البيئي تعتمد عليها البشرية بشكل مطلق". كانت التقديرات السابقة لأعداد أنواع الكائنات الحية تتراوح بين ثلاثة إلى مئة مليون نوع. الدراسة التي أجريت في جامعة دالهاوزي بهاليفاكس كندا قدرت أن ٨٦% من كل الأنواع البرية و ٩١% من كل الأنواع البحرية لم تصنف بعد. وقدرت عدد أنواع الكائنات التي تنتمي لعالم الحيوان بـ ٨.٧ مليون نوع، والنباتات بـ ٢٩٨ ألف نوع والفطريات بـ ٦١١ ألف نوع والحيوانات الأولية بـ ٣٦٤٠٠ بالإضافة إلي ٢٧٥٠٠ نوع مما يعرف بالخلايا بدائية النوي والتي تضم الطحالب والعوالق وغيرها . وأضافت الدراسة أن نحو ٧% فحسب من الفطريات و١٢ بالمئة من

الحيوانات هي التي تم تحديدها، مقارنة بـ ٧٢ %من النباتات. المنهج الذي اعتمدت عليه الدراسة استثنى الميكروبات والفيروسات وتضمن هامش خطأ معياري يقدر بـ ١.٣ في المليون. كما قدرت الدراسة أن هناك ٢.٢ نوعا من الكائنات البحرية والباقي كائنات برية. وقال أستاذ علم الأحياء البحرية وأحد المشاركين في وضع الدراسة بوريس ورم إن الأرض نظام يتكون من ملايين الأجزاء الحيوية وكثير منها يختفي بشكل منتظم)([1]).

ولقد كان يكفي قول أعرابي ولما سئل: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبَعْرَة تدل على البعير، فسماء ذات أبراجٍ وأرضٌ ذات فجاج وبحارٌ ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير؟

وكما جاء في حديث الجارية التي سألها النبي صلى الله عليه وسلم : أين الله؟ قالت : في السماء. فقال :(من أنا؟) قالت : رسول الله . فقال لصاحبها: (أعتقها، فإنها مؤمنة).والنظر في الحديث ليس من باب إثبات علوه تعالى فحسب؛ وإنما لما ثبت في ذهنها ثبوت وجوده تعالى متفردا. بدلالة عدم النقاش حول هذه النقطة وانتقالها إلى الجواب مباشرة عن العلوية.

وقال الله تعالى: (**قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**) [يونس: ١٠١].

وهو نظر الاعتبار لما في الكون حولنا من آيات وبراهين على أنه (الله) سبحانه. لكن قوما قد حرموا الاعتبار ، وإن نفرا قد سلبوا التوفيق والإلهام ، فقال الله تعالى فيهم(**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**).

---

(١) جريدة الاقتصادية١٨/٥/٢٠١٩

وأقف كما يقف غيري مشدوها أمام قدرة الله تعالى ، ناظرا بعض آياته في كونه الواسح الفسيح ، لتشهد كل منها على تيكم حقيقة أبدية سرمدية أنه (**رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**) . [مريم:٦٥].

فصل
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٧)

البدء بالبسملة تيمنا ببركتها، وعلى مثل ما بدأ الله تعالى به كتابه الكريم القرآن العظيم، وهي فصل ما بيننا وبين غيرنا - معاشر المسلمين - وهي شارتنا، كما أن الكعبة البيت الحرام هي قبلتنا!

وهي من شعائرنا، ولقد ميزنا الله تعالى بها - معاشر المسلمين - أيضا.

ولما أن كان دين الله تعالى هو الإسلام فقد تبين أن قولنا ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وإن كان تمييزا لنا بها - معاشر المسلمين - إلا أنه يمكن القول بأنه نظم فريد من نوعه بناء ومعنى مما منحه إعجازا ينبئ عن مدى الاختيار الفائق لتجلية الشعائر، وهو مما يجعلنا بحق أمام حبك مُبَرِّز سابِق لتبيين الشرائع .

وأقول أيضا: إن كل شعيرة من شعائر الإسلام الحنيف لفيها من البركات واللطائف والملح والمعاني والمباني والهدايات ما يشي إلى القول إنه لو لم ينزل الله تعالى من شعائره إلا هذه أو تلك، لربما كان كافيا في الهدى والصواب والسداد، ولربما كان وافيا في الاستقامة والعظة والإرشاد!

ألم تر أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال عن سورة العصر، وهي قصيرة، وما أدراك ما قصرها، قياسا على ما عداها من سور القرآن المجيد! إنه " لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم"(١).

فدل على إحكام ملتنا، ودل على إغنائها، وفيض عطائها، ليكون أمر المسلم بها دائرا بين الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، ليهتدي من هذه بهداية، تحقيقا ونيلا لولاية، وليبعد بهذه عن غواية، ليجتمع أمامه الخير كله، دقيقه وجليله!

و﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من مثل ذلكم تماما.

ذلك لأنها ولو لم يكن فيها إلا هذه الثلاث لكفى!

فإن قيل : وما هي؟

قلت :

١ – إنها لتعرفنا بالله تعالى، ومن حيث ألوهيته، ومن حيث إنه هو ذلكم الأصل الذي جاءت به جميع الرسالات. كما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء :٢٥].

وهذا التوحيد وسلامة العقيدة في الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، هو الذي من دافعه ومن أجله أرسل الله تعالى رسله، وهو الذي أنزل من سببه ومن باعثه كتبه، وهو الذي من موجبه ومن حجته نصبت الموازين، وهو الذي من

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤٥١/١٤)

داعيه ومن بينته خلق الله تعالى الناس فريقين، فريقا في الجنة وفريقا في السعير، وهو الذي من شأنه ومن مقدمته خلقت الجنان، لأصحاب اليمين والإسلام والإيمان، وهو الذي من برهانه ومن مسوغه سعرت النيران ،لأصحاب الشمال والخسران والكفران .

وتضمنها لاسم الله تعالى الله هو من إطلاقات الهدايات الكبرى، وذلك لما يحكم به من توحيد الألوهية أول ما يتبارى به أو يتجشمه قارئ أو فاعل أو آكل أو شارب، أو غير ذلك من أعمال اليوم والليلة سائرها!

وهو ما يجعل الإنسان في معية مع توحيده تعالى بحيث يمكن القول إن من نتائج ذلكم أن تكون الألوهية نظاما حيا في ضمائر الناس ووجدانهم، وبحيث يمكن التأكيد على أن ألوهيته تعالى قد أضحت عملا حسنا يتفاعل بها المرء منا مع نفسه آناء الليل وأطراف النهار، مما يحدو بنا إلى القول أيضا إن ذلكم ليكون عاملا حاسما في إقامة مجتمع مسلم قوامه الألوهية لله وحده سبحانه لا سواه!

وذلك أيضا مما يشي بترسيخ معاني الألوهية في القلب، وهو مما يعد عملا مجيدا في معايشتها قلبا في الفؤاد ومعنى في الضمير!

فيستحضر أحدنا أن الإله مصدر في موضع المفعول أي المألوه، وهو المعبود، ومن ثم فلا يكون معبودا له على الحقيقة إلا(**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**) [الزمر : ٦٢].

ويستحضر الفؤاد ولَهَاً لذكر ربه ومولاه، لأن الإله من الوَلَهِ، والإله تُوْلَهُ إليه القلوب موجبة تَحَيُّراً مما تلاقيه من أنس بذكر ربها تيمنا وتبركا وتعظيما

وتنزيها، كيما يكون داعيا في القلب أبدا، فلا يكاد يبرحه، وكيما يكون مؤثرا في الوجدان أبدا، فلا يكاد يفارقه!

٢ - إنها لتعرفنا باسمه تعالى ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾. فإن قيل: وما ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾ ؟ قلت : هو الذي أنزل الله تعالى ربنا الرحمن في شأنه ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا**﴾ [الفرقان: ٦٠]. وأيضا هو ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا** ﴾ [الفرقان:٥٩] فاختار الله تعالى من أسمائه الحسنى ذلكم الاسم الكريم من بينها، ليكون مدار العبادة عليه، وليؤول أمر السجود إليه، وهو من أخص خصائص الصلاة، ذلك لأن أحدنا حينما يسجد فإنما كان ذلك دليلا على إسلاسه قياده لربه راضيا مرضيا، وربه كريم أيما كرم، وربه رحمن أيما رحمة، ومنه فلا يعود أحد قد سجد لمولاه صفر اليدين أبدا!

وإنها لعلى وزن بالغ بليغ معا! ذلك لأن الرحمة نعت محبب للنفوس، ومن أمامه تهدأ القلوب والأفئدة، وتستكين الأرواح، وذلك لأن الرحمن على وزن فعلان من المبالغة في رحمته لعباده، وذلكم هو شأنه سبحانه ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾.

واسم ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾ من الأسماء الخاصة بالله سبحانه، فلا يتسمى أحد به، ولم يكتب التاريخ أحدا قد تجرأ على ذلك، وإن جادل في ذلكم من (**قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ**) ؟!في فج من القول، وفي لف من التعدي، وفي جهل من المكابرة!

فها أنتم تتنكرون اسم ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾، فهلا تجرأ أحدكم أن يتسمى باسمه؟!

ولما لم يكن ذلك، وكان محالا! فقد علمنا أنه سواء بسواء من مثل قوله سبحانه﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ ؟![مريم : ٦٥].

ولربما دُفِعَ بقول أحدهم: إن مسيلمة الكذاب كان قد تسمى به. لقول شاعرهم:

سموْتَ بالمجد يابن الأكرمين أباً وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا.

وجوابه أنه جاء نكرة ليبقى اسم ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾ علما على الله تعالى.

أو أنه قد وصفه به، غيره ولما لم يتسم به!

ودلك اسم ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾، على شمول رحمته وعمومها لسائر من خلق، وهذه من إطلاقات الأسماء الحسنى! فحتى الكفار لهم من رحمته تعالى نصيب، ونصيب كبير! حتى وإن جادلوا في استحقاقه وحده سبحانه بالعبادة وإخلاصها له! ألم تر أن الله تعالى قال ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾ [فاطر:٤٥].

هذا هو قوله، وذلكم هو قرآنه! لفتات حانية، ورب رحمن رحيم، فقف عندها متأملا كثيرا يارعاك الله.

وورود اسم ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾ كثيرا في الكتاب المجيد دلالة على شيوع مسماه معني، كما قد شاع في الآفاق مبنى!

وعلى كل حال فإن ذلك له بسط آخر.

٣ – إنها لتعرفنا باسمه تعالى﴿ **الرَّحِيم** ﴾. وما قد قيل، أو يمكن أن يقال عن اسم ﴿ **الرَّحْمَٰنُ** ﴾ ، فإنه أيضا يقال عن اسم ﴿**الرَّحِيم** ﴾ تماما . وهو من مفردات التنويه والتنويع في القرآن العظيم، ومن دلالات التفرد والإعجاز في استخدام الألفاظ، لتؤدي دورها المحكم في تصوير المعنى، وكأنك لتراه رأي العين، وبحيث أمكن لك من رؤيته على حقيقته وأبعاده تامة، فلا ينقصها وصف واصف، ولا يعتورها نعت ناعت. فتأمل!

ومجيئ اسمي الله تعالى ﴿ **الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ تماما على ذلكم نسق، وتنزلهما على وفق ذلكم ترتيب، إمعانا في إبراز كيف أن الله تعالى بعباده حقا بالغ الرحمة، فيغدق عليهم من فضله، ومن ثم فهم إليه يؤبون ويرجعون، وهم له مخبتون وراجون.

وتلكم نتيجة حتمية واجبة. إذ لما كان الله تعالى الرحمن رحمانا رحيما، ومنه وجدت القلوب من نفسها التجاء إليه وحده طبعا وجبلة أيضا! إذ ما ظنك بكريم بلغ من كرمه حدا ليس يوصف بوصف إلا أن تنخلع الأفئدة له إخباتا وخشوعا وتذللا ومحبة وخضوعا؟!

والأمر بذلكم النظر، والقول بهذا الاعتبار ليثي وكم يثي بإيجابية الأسماء الحسنى، لتكون مصدر تعزيز وعطاء وغناء وإثراء، لمجتمع الناس بأسرهم، فتأخذ بأيديهم إلى مناطات الهدى ومَحَالِّ الإيمان والتقوي والتسليم والانقياد لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

فصل
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٨)

ذلك وإن البسملة باعتبار ما لها من أهمية بالغة في دين الله تعالى الذي هو الإسلام مما نتج عنه تضمنها لمسائل عدة تتناسب وتلك الأهمية العظيمة، مما حدا بأهل العلم بعلاجها كل فيما يخصه.

لنجد أن أهل التوحيد والعقيدة يشرحون مما سبق بيان بعضه في أصول الإيمان والاعتقاد.

ونرى كيف تناولها أهل الفقه وأصوله في مسائلها المتعلقة بهما.

ويكرس أهل القراءات لها بابا عظيما. وهكذا كل فن من فنون العلم المتباينة تجد أهله يتناولونها على وجه يعالج مما هم قد تخصصوا فيه وأحسنوا الكلام بشأنه.

و﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أبتدئ فعلا أصاحبه، و﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مستعينا به ملتمسا بركته، وفي الحسبان أن ذكره تعالى كله بركة، وعلى وجه كان في الشرع مقبولا، إن بحمده فذاك ثناء، وإن باسمه تعالى فذاك تبرك وغناء، واجتلاب عطاء، وإن بهيللة فذاك توحيدي، وإن بسبحلة فذاك تنزيهي، وإن بحسبلة فذاك عليه توكلي، وبه يكون يقيني.

تنويه:

الهَيْلَلَةُ: هي حِكَايَةُ قَوْلِ : لاَ اِلَهَ اِلّا اللهُ.

السبحلة: هي حِكَايَةُ قَوْلِ : سُبْحَانَ الله.

الْحَسْبَلَةُ: هِيَ حِكَايةُ قَوْلِ: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وهكذا يدور عبد في فلك الرعاية والإكلاء من رب كان به وبغيره من عباد الله تعالى رحمانا رحيما، وكيف بعبيد سالك طريق ربه الرحمن إلا وذكر له بالفؤاد موجب للسلامة والرعاية وقضاء حاجات، وما أكثرها، وشفاء من أدواء وما يكاد امرؤ لها محصيا عددا، ولا يكاد أحدنا محيطا بها سببا، وإذ بربه الرحمن سبحانه يكفيه، ومن حيث لا يحتسب لها من وقت أو زمان أو مكان أو من سبب، سوى أنه أصبح متقلبا في ذكر مولاه وبه أمسى مُتَحَوِّلا من حالِ ذكرٍ وتسميةٍ إلى حالٍ تبركا وتنزيها! فمن ثم يكلؤه ويرعاه ويؤويه، ومن ثم يصدح في الأكوان أن كاد رب لعبده المسكين الخاضع الذليل يغنيه!

وإن أحدنا ليشعر بأمن، ليس يبقى بعده من أمان، فقد حازه جله، أو إن شئت قلت قد فازه كله! وذلكم حين يقول ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وإن أحدنا ليجد من حال نفسه طمأنينة هي من بركة قوله ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾، لا يمكنه التعبير عنها مقالا، وإن كان الحال بها أشد نطقا من مقال!

وإن أحدنا ليجد من نفسه أمنا حين يقول ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ، وإن أحدنا ليجد من طعامه مذاقا حين يقول ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾، والحمد لله، وقد يمكن أن تكون غصة فلا يستطيع حيالها، لا حول له أمامها ولا قوة.

وإن أحدنا ليشرب الشربة الهنيئة، ليجدها عذبا فراتا سائغا شرابه، وما ذاك إلا من فيض ﴿باسْمِ اللَّهِ﴾ ، حين يشرب، مستحضرا عظمة منعم بشراب، جعله الله تعالى في فِيْهِ سلسبيلا برحمته، ولم يجعله ملحا أجاجا برأفته، ومن ثم فكان قمن أن يبدأ شربته هنيئا ريها ب ﴿باسْمِ اللَّهِ﴾ ، مستحضرا ذلكم الفيض والعطاء من النعم في شربة ماء واحدة، وقد كان من يُسْرٍ طَفِيفٍ ألا يجدها من أساس، وقد كان من سَلِسٍ سَهْل ألا يقدر على شرابها ابتداء أيضا، وهي إذ كانت من أمام غيره هكذا، وها هو إذ يراهم من أمامه لا يقدرون لها تناولا، ولا هم بمستطيعي قربا منها، أمرا من طبيب، أو إيجابا من سقم! وهو إذ هو فرد كغيره من أفراد يسري علينا نظام كون الرب الرحيم اللطيف الغفور سبحانه.

وإن استدراكه حال نفسه بقوله ﴿باسْمِ اللَّهِ﴾ لكان من فيضه غُنْمٌ بالشرب، ولكان من أثره رَوْحٌ للظمأ، ولكان من استرواحه نيل بالإرواء، وفوز باسترخاء، يعلمه الشاربون من بعد ظمأهم! وإلا فغيره أيضا أمامه، لا يكادون يستطيعون شربة ماء واحدة، وهو إذ يراهم من قدامه رأي عينه، وهو إذ يرمقهم من أمامه نصب مقلته، لا من خبر من هنا، ولا من نبأ من هناك!

وباسْمِ اللَّهِ يكتب أحدنا، وقد كان يمكن ألا يكتب! لولا أنه يقول﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾! وقد كان يمكن ألا ينساب قلم، أو يوفق لمعنى مفيد، ليكون في سجلات الحسنات، وسنة حسنة، يكون لأحدنا أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، دون أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا، رحمة من الله تعالى ربنا الرحمن ورضوانا! أو أن يكتب قولا يكون به سنة سيئة، وعليه

وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئا، عدلا من الله تعالى ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف:٤٩].

وباسْمِ اللهِ يقرأ أحدنا، ويستحضر مَلَكاً آمرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق:١]. وقد تعلمنا منه تقديما بالبدء ب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾! وقد أيقنَّا كيف أن الله تعالى اختار لعبده أمرا كان أول ما أمره به أن قال له ذلكم قولا سَنِيَّاً مُضيًّا، لولاه بركةً وعطاءً ومنحةً، ما كان الله تعالى قد أرانا كيف كان بدءا به أمرا لرسوله ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم، بل ومن قبله الملك الكريم جبريل عليه السلام، أن بلغه البسملة ابتداء لتحصيل بركتها، وتعليمه علمها، وكأني بربي الرحمن سبحانه قد ألقى في روع جبريل الملك الرسول القوي الروح الأمين أن يكون تبعا لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، متبركا بها، وكذا إخوانه الرهط الملائكة الكرام، عليهم أفضل وأزكى السلام! فذاك درس من وراء درس، واللبيب بالإشارة يفهم!

بل إني قلت: ولست أراني مجافيا لما راح إليه الذهن، ولما استفاضت به الخواطر، إن ربي الرحمن سبحانه كان قد ألقى في روع رسوله صلى الله عليه وسلم من بعدُ أيضا، أن نجاح دعوته ما كان ليكون لولا بركة ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق:١].

وباسْمِ اللهِ يقرأ أحدنا، وقد كان يمكن لأحدنا ألا يقرأ، وقد كان يمكن أن يقرأ ولا يفهم ! وقد يمكن أن يقرأ ولا يوفق إلى عمل صالح بمقتضى علم علمه، ومن موجب درس درسه، ليكون فاعل ذلك من مثل ما قال الله تعالى ربنا

الرحمن سبحانه ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة:٥]!

و باسْمِ اللَّهِ تعالى أموت وأحيا، حين نوم أحدنا، وقد كان يمكن ألا ينام، فتصيبه لأواء أرق يقض مضاجعه، فلايكاد يهنأ بنوم، أو بطرفة عين منه، والله المستعان! ولما أن قدم بين يدي ربه فَقْراً وإذعانا له بقوله ﴿ **باسْمِ اللَّهِ** ﴾، إذ هو الغني، وإن من موجب لطفه أن يهدأ أحدنا بنوم، لا يشعر بنعمته سوى من فقده!

وباسْمِ اللَّهِ - سبحانه - أرجوه عفوا ونجاة من كل شر، ومن كل ما من شأنه أن يسبب أذى، وباسْمِ اللَّهِ تعالى أعلو وأخفض جناح الإنابة لرب كان ولا زال رحمانا رحيما، هرولة يفيض على أحدنا من جوده وكرمه، حين يكون ذكره ودعاؤه وثناؤه على اللسان عذبا فراتا رطبا، وفي الفؤاد تقديرا لا تأخيرا بذكر وتسمية تنزيها وتعظيما وتوقيرا ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزخرف :٨٤ - ٨٥].

فسبحان من خلق وأبدع وسير ووفق عبدا أن يقول ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، كل حياته، وسائر أمره، وهو إذ يستحضر من عند ذات نفسه، بعد إذ وفقه مولاه قوله تعالى الحق المبين، وهو أصدق القائلين ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢].

وإن أحدنا ليحاط بحفظ مولاه حين يقول ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وهو إذ يكاد يعيشها حلاوة في عيشه، وهو إذ يكاد يرومها قصدا في رغده، وما كل

ذاك إلا من سر ما تعبق به البسملة من أسرار، وما ذاك إلا من شأن ما تجود به البسملة من أخبار، عرفنا عنها كثيرا غَفِيرا واسِعا وَارِفا وفِيرا، وأدركنا منها فَيْضا جَمّا أَثِيثا غَدَقا غَزِيرا، بيد أننا لا نزال بحاجة إلى استفراغ وسعنا للوقوف على هذه البركات وتلك المنح والمعاني السامقات، من وراء بسملة، هي من أعز ما حبا الله تعالى به عباده، عطاء منه غير مجذوذ.

فصل
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٩)

و باسْمِ اللهِ تعالى يكون به بدء حصرا لا بغيره أو معه من شريك، فهو الرب سبحانه والإله فردا صمدا، يكون اللجأ إليه وحده، وذلكم تمام التبرك به تسمية وإذعانا.

ولست بدعا من أمر أتيته، ولست جِدَةً من سعي سعيته، فذلكم هو شأن الكتاب، وذلكم هو طريق فصل الخطاب، القرآن المجيد، كما قد بدأ به منزله، وذلكم هو شأن السبع المثاني، وما به قد حفلت بها ابتداء، وذلكم هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعته، وسبيلا له نهجته.

وذلكم جريا وراء عرف قد تعاهده الناس كابرا عن كابر حتى كان من مشركيهم أن قالوا (باسمك اللهم)، وحتى كان من إلفهم بها أن قالوا لنبينا صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم يوم الحديبية !

فقد أخرج أبو عبيد في فضائله عن الحرث العكلي قال قال لي الشعبي كيف كان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليكم قلت باسمك اللهم فقال ذاك الكتاب الأول كتب النبي صلى الله عليه وسلم باسمك اللهم فجرت بذلك ما شاء الله ان تجرى ثم نزلت بسم الله مجراها ومرساها فكتب بسم الله فجرت بذلك ما شاء الله ان تجرى ثم نزلت قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فكتب

بسم الله الرحمن فجرت بذلك ما شاء الله أن تجرى ثم نزلت ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾[النمل:٣٠](١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب باسمك اللهم حتى نزلت ﴿ **وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [النمل:٣٠](٢).

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال لم يكن الناس يكتبون الا باسمك اللهم حتى نزلت ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾[النمل:٣٠](٣).

ومنه فقد تحصل توافق في التسمية ابتداء، وإن كان قد تحصل تباين في لفظها وتركيبها انتهاءً.

بل قد علمت أن لفظها هكذا هو البركة، وأن غيره ليس من يمن به أو بركة، وإلا لكان قد أتى الكتاب بغيرها معها، أو كان سيدنا نبي الله سليمان عليه السلام قد أتى بسواها، أو أن رسول الله قد وافقهم عليها، بدليل أنه قد تغير لفظها إلى ما عهدناه بها بعد يوم الحديبية ،ومن قبله بين المسلمين بينهم البين، وعلمت أن مداراة القوم فيها يوم الحديبية كان مؤقتا، ولسوف يزول بزوال سببه، وقد كان لطفا من الرحمن!

---

(١) الدر المنثور: جلال الدين السيوطي: ج ٥ / ١٠٧
(٢) المرجع السابق : ١٠٧
(٣) المرجع السابق : ١٠٧

وألفيت سبيل من كتب أن يكتب بادئا بها تيمنا واستحصالا ليمن، ونيلا لبركة! ولم يألُ أحدنا إلا أن يكون مثل من تبرك بقوله﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم**﴾. إذ هم القوم يسعد بسعادتهم مثلهم، ولم يشأ أحدنا أن يخرج عن سنة من استنوا تيمنا، وليس له إلا يكون كمن بها اقتدوا تفاؤلا ب﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

بيد أن ساعدا ألفيته من تبرك لسيدنا نبي الله تعالى سليمان عليه السلام حين قد بدأ كتابه إلى بلقيس وقومها بادئا فيه ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ [النمل: ٣٠]. وفعله إلهاما من الله باصطفاء ذلكم الذكر دونما سواه، وكأنما يحمل في ثناياه بركة الإجابة، وبركة الكلام، وبركة الدعوة، وبركة استدعاء ما في النفوس من تقوى، وما قد جبلت عليه من تعلق بالملكوت الأعلى!

وقد رأيت رسول الله ﷺ حين كان يأمر كتبته أن يبدأ كتابه ب﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ، وهو فيض آخر من فيوضاته، ومنه علمت لِمَ وفق الله تعالى نبيه سليمان عليه السلام بما قد وفق إليه نبينا محمدا ﷺ أنها بركة، وأني قد أيقنت أن تركها حسرة، بل وقد بلغ بي اليقين حدا غير محدود بحد أن توافقا بين نبيين كريمين – عليهما السلام - طال زمان ما بينهما من أحداث، أنه سنة النبيين، وإلهام المرسلين أن يقولوا قولا فصلا ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾! فقلت مثلهم ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم**﴾!

بل إن الجاهلية في عصرها كانت تعرفها، وإن في غبش، وبل إن كفار قريش كانوا على بقية منها، وإن في ضباب !

و﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ هكذا يراها قارئ كريم بتعداد حروفها ثلاثة وعشرين حرفا، وإن هي في العداد إلا قليلة، وإن هي في الجزاء إلا عظيمة. ذلك لأنه بكل حرف منها حسنة، والحسنة بعشر أمثالها! وأترك حساب الإجمال لقارئ كريم!

وهكذا؛ نعلم أنفسنا، ومن نحب، ونذكر أنفسنا، ومن نؤثر، أن نستحصل البركات من بدأنا أمرنا، عسرنا ويسرنا، منشطنا ومكرهنا، غنانا وفقرنا، صحتنا وسقمنا، يقظتنا ونومنا، أكلنا وشربنا، نكاحنا وزواجنا، وضوءنا وأحوالنا، ودخولنا مساجدنا وخروجنا، مصعدنا ومهبطنا، سكوننا وحركتنا، لباسنا وانتعالنا، خروجنا من بيوتنا وولوجنا، ركوبنا دوابنا ومشينا، ترحالنا وسفرنا، وإقامتنا وحلولنا، وقعودنا وجلوسنا، وكتابتنا وقراءتنا وتلاوتنا أن نقول أبدا ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ أبدا أبدا !

فصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١٠)

مشروعية الصلاة دون قراءة البسملة

ذهب العلماء مذهبين في هذه المسألة :

المذهب الأول: ذهب الإمامان أبو حنيفة وأحمد - يرحمهما الله - إلى القول بصحة الصلاة دون قراءتها؛ وذلك تأسيسا على أنها تعد عند كل منهما آية مستقلة بذاتها لا من الفاتحة ولا من غيرها، كما سبق ذكره، ومنه فتصح الصلاة بدون قراءتها.

وأيضاً عند الإمام مالك - يرحمه الله- فالصلاة بدونها صحيحة؛ وذلك لأنه يرى أن البسملة ليست آية من القرآن الكريم، بل هي للفصل بين السور والتبرك بها، كما تقدم، وبالتالي الصلاة تكون صحيحة إذا لم يقرأها المصلي في صلاته.

المذهب الثاني : ذهب الإمام الشافعي إلى القول بأن الصلاة لا تصح بدون قراءتها في الصلاة، وذلك لأن الصلاة لا تصح إلا بقراءة الفاتحة، والبسملة آية منها، فمن قرأ الفاتحة ولم يقرأ فيها البسملة فلا تصح صلاته، لأنه لم يأت بالركن وهو قراءة الفاتحة مع كمالها لأنه – أي في حالة عدم قراءة البسملة – أنقص الفاتحة آية، وهذا لا يجوز ولا يتصور معه صحة الصلاة.

فصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١١)

البسملة بين الإسرار والجهر بها

للعلماء مذهبان في الجهر بالبسملة بناء على الخلاف في قراءتها هما :

المذهب الأول : ذهب أصحابه إلى القول بأنه لا يجوز الجهر بالبسملة في الصلاة، وممــن ذهب إلى ذلك الحنفية والإمامان مالك وأحمد - يرحمهما الله- .

قال في أحكام القرآن للجصاص : "وأما الجهر بها فإن أصحابنا قالوا لا يجهر بها "(١).

وقال في منح الجليل : "كان المازري يبسمل سراً فقيل له ذلك، فقال : مذهب مالك "(٢). وقال ابن قدامة رحمه الله تعالى "ولا تختلف الرواية عن أحمد أن الجهر بها غير مسنون"(٣). المذهب الثاني: يجهر بها في الصلاة الجهرية وهو قول الإمام الشافعي وأصحابه .

جاء في المجموع: "قال الشافعي والأصحاب يسن الجهر بها"(٤).

ولكن هل هذا الخلاف السابق مبنى مع الخلاف في قرآنية البسملة أم لا؟

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص: ج١٦/١
(٢) شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد/عليش ، ج١٨٤/١
(٣) المغني، عبد الله بن قدامه: ج ١ / ٥٢١
(٤) المجموع، محيى الدين النووي: ج ٣٣٣/٣

من العلماء من بنى ذلك الخلاف على خلافهم في قرآنية البسملة ومـنهم الرافعـي - يرحمه الله - من الشافعية حيث قال: "بعد أن عرفت ذلك فعندنا يجهر بالتسمية في الصلاة الجهرية في الفاتحة وفي السورة بعـدها خلافاً لمالك، حيث قال لا يقرأها أصلاً ولأبي حنيفة حيث قال: يسر بها وبه قال أحمد"(١).

وأما ابن كثير - يرحمه الله - فقال : "فأما الجهر بها ففرع عن هذا، فمن رأى أنهـا ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وأما من قال بأنها من أوائل الـسور فـاختلفوا، فـذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة ومع السورة، والحجة في ذلك أنهـا بعض الفا تحة فيجهر بها كسائر أبعاضها، وذهب آخرون إلى القول إنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد"(٢).

غير أننا نجد أن الإمام النووي - يرحمه الله - على خلاف ما سبق منع بنـاء هـذا الخلاف في الجهر بالبسملة أو عدم ذلك على الخلاف في قرآنيتها، حيـث إنـه رأى أن أساس هذا الخلاف هو ما ترجح عند القائلين بالجهر والقائلين بالإسرار من أخبار .

قال في المجموع : "(واعلم) ان مسألة الجهر ليست مبنية علي مسألة اثبات البسملة لان جماعة ممن يرى الاسرار بها لا يعتقدونه قرآنا بل يرونها من

---

(١) العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي،ج٤٩٥/١

(٢) عمدة التفسير، أحمد شاكر: ج ٦٦/١

سنته كالتعوذ والتأمين وجماعة ممن يرى الاسرار بها يعتقدونها قرآنا وانما أسروا بها وجهر اولئك لما ترجح عند كل فريق من الاخبار والآثار "(١).

(١) المجموع، النووي: ج٣/٣٤٣،٣٤٢

فصل

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. (١)

هكذا في تقسيم، رأيته آخذا بلبك، مستحوذا على مشاعرك، مهيمنا على أحاسيسك. وحين كانت كل أفراد حمد ممكنة، ومتصورة، هي لله تعالى رب العالمين، في علاه تبارك وتعالى، وتقدست أسماؤه، وصفاته.

ودلك على هذا، اختلاف أهل اللغة، في كلمة الحمد، وحين جاءت معرفة بأل (الحمد)، وما بين قائل بأن (أل) تعريفية، فهذه وإنما أتت وجاءت هكذا للتعريف.

وهذا لا خلاف بينهم حوله، ولكن هذا التعريف هل هو الاستغراق، أي عموم المحامد كلها، لربنا الرحمن تبارك وتعالى، أو أنها الجنسية؟ وهذا الذي نقف عنده متأملين.

قالوا: ما الفرق بين (أل) العهدية، و(أل) الجنسية؟ قالوا إن (أل) الجنسية أقوى في الدلالة، ومن قولنا إن (أل) الاستغراقية، أي أن الحمد كله لربنا الرحمن تبارك وتعالى، وإنما هي بدخول كل أفراد حمد ممكن، وبحيث ليس يكون كل الحمد إلا لربنا الرحمن تبارك وتعالى.

وهذا من تأصيل قولهم حين الفرق بين (أل) الجنسية، التي تعني دخول جميع أفراد حمد ممكن، وليس يكون إلا لله تبارك وتعالى، خلافا ل (أل) العهدية، التي يعنى بها، وكما يقولون حمدت فلانا؛ لأمانته، ويكأنك تحمده لشيء، أو لصفة، وإنما رب العزة والجلال، وحين يطلق الحمد، فإنما يطلق؛

للدلالة على دخول جميع أفراد الحمد الممكنة، وليست تكون إلا لهذا الرب العظيم المتعال.

ولأنه هو ذلكم الرب، الذي استحق الحمد كله، وله وحده، ومرة أخرى: فكل أفراد حمد يمكن أن تتصور، عند أهل اللغة، وإنما ليست تكون إلا لله تعالى، ولا تكون إلا لله تبارك وتعالى وحده، دون شريك.

وحين يقال: لله وحده، دون شريك، وإنما يوقف على كون أن الله تبارك وتعالى، وهذه هي الحقيقة الكلية، وقاعدة كليه الكليات، وحين يفرض ربنا تبارك وتعالى بحمده؛ ولأنه هو ذلكم المستحق للثناء وحده، دون من، أو ما سواه؛ ولأنه تبارك وتعالى، وإنما له كل المحامد أيضا؛ ولأنه خلق خلقه، وكما قال تعالى ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ**﴾ [السجدة: ٧].

هذه الحقيقة، التي تذهل أمامها، وإن الطين لأمام الناس الآن، وكيف لا يكون بمقدورهم، أن يخلقوا خلقا كخلقه تعالى؟!

إن الله تعالى ليوقفك على هذه الحقيقة، التي تذهل أمامها، وحين كان الناس غير قادرين أبدا، وأن يخلقوا شيئا، ولو ذبابة! وحين قال تعالى أيضا ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج:٧٣].

وهذا مقابلة ما كان منه خلقك أنت ايها الإنسان، وحين قد خاطبك ربك، في استدعاء ما لديك من طاقات؛ لعبادته وحده، وحين قال ربك الرحمن ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وهل بعد هذا، وقد رأيت مادة الطين، وليس من مقدورك، وليس من مقدور غيرك، معاملك، ومجاهرك، وعلم قد أوتيته، أن تخلق من طين بشرا، وهل بعد هذا يمكن تصور أن يقع منك تكذيب؟! وحين قال ربك أيضا: ﴿**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار: ٩-١٢].

ومنه؛ فهل بعد هذا كله يمكن أن يتصور أن يحمد غيره تعالى، أو أن يفرد غيره، ولو بشيء من الحمد؟! ولذا؛ كان الثناء وحده لهذا الرب العظيم المتعال، وحين بدأ الفاتحة، وحين بدأ كتابه الكريم، بتقرير هذه الحقيقة الكلية، وبتأكيد هذه القاعدة الأصلية، ومن قولنا ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. وتبعا لربنا.

إنشاء الحمد: وحين أنشأ تعالى حمده بذاته، ونفسه المقدسة، المنزهة، تبارك وتعالى؛ كيما يعلمك شيئا من التعظيم لهذا الرب العظيم المتعال سبحانه وتعالى؛ ولسابغ نعمه، وحين قال أيضا ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل:١٨]. وقال تعالى أيضا ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهكذا، في لفت انظار لأولاء البشر المساكين، وحين قد أغمض بعضهم طرفا، عن هذه الحقيقة السرمدية، والتي يجب أن تستدرك، قبل فوات الأوان، وأن يحمد ربنا الرحمن تبارك وتعالى، حمد الثناء، لذاته، ولصفاته، ولأسمائه.

ومن ثم يحمد ربنا الرحمن؛ على ما قد حبانا نحن من نعم، وأولها هذه النعم، وحين قد خلق، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه سبحانه وتعالى.

ونحن إذ نلفت نظر أنفسنا، ونظر غيرنا، حول حقيقتنا نحن، وإلا فإن خلق الله تبارك وتعالى عظيم الشأن، جليل القدر؛ ومن خلقه لنا كبشر، ومن خلقه لغيرنا، من جمادات، ومن أحياء أخر، ند، وعز، أن تحصى! ولأنه تبارك وتعالى ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق:١٢].

كثرة اشتقاقات الحمد: ودلك على عظم شأن هذا الحمد، كثرة اشتقاقاته، وحين تعددت هذه الاشتقاقات، ومن كونها: حميد، حامد، محمود، محمد، حماد، ودلك عليه أيضا، وكيف جاء القرآن العظيم الذي أنزله هذا الرب الكريم، وحين تضمنت سوره كثيرا من صيغ هذا الحمد، وحين جاءت، معرفة أيضا إما بالاختصاص، ومن كقوله تعالى ﴿**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الجاثية:٣٦].

أو بالابتداء، وكما قال تعالى ﴿**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ**

الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. وحين أتت هكذا في غير موضع، من مواضع القرآن الحكيم، الذكر، المبين، بهذه الصيغة التي هي نفس صيغة أول الفاتحة.

فالحمد لله رب العالمين؛ لخلقه سبحانه وتعالى، وأكرر، ولصفاته، وكونه تبارك وتعالى هو المستحق لهذا الثناء، والتحميد، وحده سبحانه وتعالى.

وأنت خبير، وكم من سورة بدأت بذكر هذا الحمد، وحين قال تعالى أيضا **﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾** [الأنعام: ١]. ومن بعد خلق ربنا الرحمن للسماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، هكذا في تحد وإعجاز قرانيين، وهل من بعد ذلك من مسوغ، وأن يعبد غيره تبارك وتعالى، وهذا هو مقتضى ما ذكر بنا لهذا الحمد ولا سيما انه أتى بعد ذلك بهذا الاستفهام التعجبي الإنكاري: **﴿... ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾**

وحين قال تعالى أيضا **﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾** [الكهف:١]. وحين أولاك وهكذا كتابا، هاديا؛ ليوقفك على الصراط، ودون تنغيص حياة على ذات نفسك، واذ بأغيار يدعون هذا الكتاب! ويتركونه، وقد وضعهم ربهم على الصراط المستقيم، ومن نور، وهدي، ربك الرحمن الكريم العظيم، واذ بأغيار تتأبى عن هذا الصراط المستقيم، والنور المبين، وتبحث شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، عن هدى، ومن غيره تعالى، وأنى لهم؟!

وحين يتولى ربنا تعالى بدء الحمد وإنشاءه بنفسه، فاعلم أنه قمن أن يكون مهما، وكيف لا، وقد نزه الناس ربهم تعالى، واثنوا على ربهم الخير كله، وحين علمهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ثناءه هذا، ولما كان النبي

صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت - أو: لا إله غيرك - قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال سفيان: قال سليمان بن أبي مسلم: سمعه من طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم[1].

هذه منظومة تمجيد وثناء على ربنا الرحمن، وحين كان كل فضل راجع إليه تبارك وتعالى، بل وكيف لا ينشئ لنفسه حمدا عز على غيره أن ينشئ مثل ذلكم حمدا لله رب العالمين تبارك؛ وكيما نهتدي نحن ونسير على هذا النهج، والسبيل، والطريق، والصراط المستقيم؟

مصدرية الحمد: وحين جاء الحمد مصدرا، على هذه الصيغة التي بين أيدينا، فقد كان من مجيئها على غير هذه الصورة، وكأن تأتي مفعولا مطلقا مثلا، وكما قال رب العزة والجلال، وحين حيوا سيدنا ونبي الله إبراهيم عليه السلام، ومن قول الله تبارك وتعالى ﴿**إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ**

(١) صحيح البخاري: ١١٢٠

سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]. هم أتوا بالمفعول المطلق، قالوا سلاما، أي: نسلم سلاما، وسيدنا ونبي الله إبراهيم عليه السلام يعلم رد التحية، بأفضل منها، وحين اقل الله تعالى **﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾** [النساء: ٨٦]. فحياهم بأحسن منها، وهو قوله: سلام، وحين أتى بالمصدر من الفعل سلم. ولم يقل: نسلم سلاما، على صيغة المفعول المطلق! و كما أتوا هم. أما هو ويكأنه قال: أنشئ لكم سلاما!

وهنا لطيفة أخرى، وإن القول، وحين كان مستلزما لفعل، أي ألزم نفسي، بفعل السلام، وهنا أنت تلزم نفسك بفعل الحمد لربك الرحمن تبارك وتعالى، وحين قد سبلت نفسك سبله، ونهجه، وطرقه، وحين قد ذلل لك الطريق، ومهده، وعبده لك؛ كيما يعلمك كيف تحمد ربك الرحمن تبارك وتعالى، ولم يتركك هملا، وعبثا، بل علمك كل شيء، يكون صالحا للثناء على ربك تعالى، كما قد علمك منهجا، يكون به صلاحك، وسلمك، ونفعك، وكشف الضر عنك؛ رحمة من هذا الرب العظيم التواب بك، وإجلالا له أيضا.

وقف قوم، ولست أريد أن أقف هذا الموقف حقيقة، وحين ساءلوا: هل الحمد أعم أم أخص من الشكر؟ وكذا الفرق بينه وبين المدح وغيرها.

وإنما نخلص من كل هذا، إلى أن الحمد مستحق لله تبارك وتعالى؛ على نعمه ولذاته معا، وهاتان اثنتان، والحمد، وإنما يكون بذكرك لسانا، وحين قلت: الحمد لله رب العالمين، عطفا على كيف كان القلب حامدا! فأرسل رسالته إلى اللسان، لينطق: الحمد لله رب العالمين.

وأما الشكر: فإنهم يقولون: وإنما يكون ليد، أي: لسبب، وحين تشكر فلانا، أي أنك تشكره لسبب، أو لجميل، أو غيره، أما الحمد لله عز وجل فليس يقال إلا له تعالى أولا. ويكون ليد أي بسبب، وبغير يد، أي بغير سبب؛ لأن الله عز وجل، وبهذه الحقيقة مستحق للحمد والثناء وحده.

وما أدراك إذا أضفت إلى هذا نعمه، التي لا تحصى؟!

والحمد لله الحمد مبتدأ، ولله شبه جملة، في محل رفع خبر، وهو الذي وقف الناس عنده أيضا، فالحمد وعندما جاء مصدرا، ولم يأت مفعولا مطلقا مثلا، وحين قول العبد: حمدت حمدا، على سبيل المفعول المطلق، أو ما سواه وبطبيعة الحال، فهذا إخبار للعبد.

وحين قالوا بأنه غير ذلك يعني التجدد، وإنما الحمد باعتباره مصدرا، وإنما يعني الدوام، وهو أقوى دلالة من التجدد! وهذه بلاغة قرآننا!

فإن الحمد دواما غير منقطع، وأما إذا جاء بغير هذه الصورة، فلربما حمل معنى لا يؤديه كونه قد جاء مصدرا!

وحين قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** ﴾ [الكهف: ٤٦]. وحين جاء الحمد هذا، ومن هذه الباقيات الصالحات، لك أنت، أيها العبد، في رصيدك، وميزان حسناتك، لتكثرن منه.

ولذا جاء هذا الحمد من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أمره لك، ومن ذكره صلى الله عليه وسلم، ومن إفراد ذكره تعالى، ومن بعد صلواتنا، ومن

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال: تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر(١).

ونبيك صلى الله عليه وسلم كان يحمد ربه على كل حال، وحين كان من شأنه صلى الله عليه وسلم، وحين رأى أو وجد ما يعجبه أو ما يسره، قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وحين قد رأى، أو وجد من نفسه ما يحزنه قال، الحمد لله على كل حال.

فعن عائشة أم المؤمنين: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يحب قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا رأى ما يكره قال الحمد لله على كل حال(٢).

وبه كان ربنا الرحمن المستحق للحمد، على كل حال، سواء كان حالا مسرة، أو كان حال مضرة. مسرة شكرا، ومضرة صبرا.

وقف الناس عند قول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قلتَ: ((**الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ**)) فقد شَكرتَ اللهَ فزادَكَ(٣).

واستدلوا بهذا على أن الحمد يمكن أن يكون شكرا، أو أن الشكر يمكن أن يكون حمدا.

---

(١) صحيح مسلم: ٥٩٧
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣٠٨١
(٣) الدر المنثور، السيوطي:٥٦/١، حكم المحدث: إسناده ضعيف

ولسنا نريد أن نقف على كل حال في مناسباتنا هذه ووقفاتنا هذه، وانما نستشرف هذا العطاء، وهذا النور الذي نستجيثه ونستحثه، من هذه الاذكار، ومن هذا الذكر الحسن.

فصل
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)

ولما كان هذا هو بدء ربنا الرحمن سبحانه وتعالى كتابه الكريم المبين أيضا، وبهذا الحمد؛ دلاله أهمية هذا الحمد، وإلا كان قد بدأ ربنا الرحمن سبحانه وتعالى وعز وجل وتباركت أسماؤه وعز جاهه بغيره من ذكر آخر، كالتكبير وكالتسبيح وغيره مما سواه، ومما علمناه ربنا الرحمن عز وجل في هذا القرآن أيضا، ومما أتحفناه نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أيضا.

وهذه كليه قمنة بالدرس والوقوف عندها مليا.

وقوله تعالى: الحمد لله: يشي بتساؤل: فأيهما وحين كان لا مجال للسؤال أصلا، وحين يقال: أيهما أهم الحمد ذكرا أولا، أم لفظ الجلالة (الله) عز وجل أولا، ثم يأتي الحمد له تاليا؟ وخاصة ونحن نتدبَّر هذا الكتاب المجيد الذكر المبين، فلما بدأ الله عز وجل بالحمد، ثم تلاه بقوله (لله).

وهذه من إعجازات هذا الكتاب، ومن إطلاقاته الأديبة الأريبة العجيبة المذهلة، وحين أوقفنا وكم أوقفنا في كل حرف وفي كل كلمة من كلمه تعالى، أو تعبي من جملة، أو جمل من آياته، وإلا قد شكلت موضوعا بذاتها؛ لنقف على هكذا إعجاز لهذا القرآن الحكيم.

وحين نتأمل أن كلمة (الله) عز وجل تعني السلطان والأمر والنهي والإلزام والتقييد، وهذا لا شك ولأن العقول قد تسبح، وفي متاهات وزقاق وحوارٍ

ليس لها من مخرج منه، ومن تخيلاتها الخاصة بها، وإلا ما وجدت هذا إغماض الطرف عن منهج ربنا الرحمن عز وجل.

والناس يروحون يمنة ويسرة وشمالا وجنوبا وشرقا وغربا! وأمامهم هذا الصراط المستقيم، النور المبين، القرآن الحكيم.

أقول: قدم لفظ الحمد على لفظ الجلالة (الله) ها هنا؛ لأن لفظ الجلالة (الله) تعطي معنى الأمر والنهي والإلزام وتقييد السلطات وتحييد الاختصاصات؛ كيما ينتهج الناس سبيلا واحدا هو سبيل ربهم عز وجل، الذي فيه صلاحهم وأمنهم وسكينتهم ووداعتهم وفرحهم وإسعادهم في دنياهم وفي أخراهم أيضا.

ولما كان هذا الأمر فيه من سلطة لإبليس لعنه الشيطان الرجيم، أن يستكبر على الأمر والآمر، ومنه هذه الرائحة الزاكمة التي نراها، وحين يستدبر أمر الله عز وجل.

وكان هذا العقل المحدود يقول إن من مئنته أن يرقى! بل يوحل في الطين وفي التراب ويغرق نفسه في متاهات وزقاق وحوارٍ، وكما أنف، ليس له منها من مخرج، وإلا أن يعود إلى هذا السلطان القويم القديم لله عز وجل، فيأتمر منه وحده وينتهي عما نهى عنه وحده.

ولما كانت هذه السلطة، وأقول وأكرر فيها من الإلزام والتقييد، وما يصاحب ذلك من تأفف لبعض النفوس، وبعض الخيالات وبعض العقول، ورغم ذلك؛ ومن رحمته تبارك وتعالى الموجبين لهكذا وسع وجود ومن كرم للعبيد، وإلا

أنه بدأ بالحمد قبل هذه السلطة، وقبل هذا الالزام؛ إيناسا، وتربية، وربتا، وحنوا، وتأنيسا للناس.

ويكأن الله عز وجل يقول لهم: إني وإن كنت قد ألزمت، فإنما قد ألزمت لكم؛ دلالة أن لي الحمد، فيوجب ثناء علي عن الله تعالى، ومن مقتضى قوله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومن حيث قد أوقفتكم على هذا الصراط المستقيم، وهو من مقتضى قوله تعالى أيضا ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

ما لكم تروحون يمنة، ويسرة، وشرقا، وغربا، وشمالا، وجنوبا، و ها هو أمامكم هذا الصراط، وأن هذا دليل القرب منكم، والبيان، والوضوح.

فقد ألزمتكم نعم؛ ولأني أعلم أن بعض النفوس قد تتأفف، وقد تستدبر، وقد تستكبر، وقد تكذب، وقد تتنكب، فقد قدمت الحمد ثناء؛ كيما توطئوا أنفسكم أن قد ألزمتنا، وإنما قد كان ذلك إسعادا لكم؛ دلالة سبقنا ب ﴿**الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، بهذا النفس اللفظ الندي، الرضي، الحني، اللطيف، الذي يشي بمعاني الرأفة، والحنو، والرضا، واللطف الرباني، علينا معاشر البشر.

وهذا أمر يمكن أن يوقف عليه، فيما يسمونه بالتنمية البشرية، وحين يأمر رئيس المؤسسة، أو المنظمة، أو الجهة الإدارية، أمرا، أو أن يلزموا إلزاما.

وإنما يقدم بين يديه ديباجة اللطف، والحنو، والرحمة؛ كيما يتلقى المرؤوس هذا القرار الإداري، أو هذا القانون النظامي، الذي لا يشذ في مجموعه، وفي أفراده عن قول الله تعالى، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، استجاشة واستدعاء للفلاح، والصلاح، والنجاح.

ورغم ذلك، وأنت إذ تأمر، فأمر بحنوك، ولطفك، وقدم ديباجة، يتلقى المسؤول من خلالها، أو المرؤوس يتلقى المرؤوس من خلالها قرارك وإلزامك بحنو أيضا وبقبول أيضا.

وإذ يعلم منك أنك لست سلطانا فحسب، مسلطا وبهكذا سلطانك، على رقبته، وإنما أنت حان، لطيف، رقيق، وحين قد أردت من قرارك المصلحة العامة للدولة، للمؤسسة، للجهة، للمنظمة.

والأصل فيك كذلك، أنك وحين تتخذ قرارا، وإنما يكون من وحين تلفه بديباجة الحنو والرأفة والرحمة على المرؤوسين.

فيكون منه الود، ويكون منه التسابق، والمسارعة، إلى إقرار قرارك، وإلزام النفوس به، طواعية، واختيارا، لا جبرا.

وهذه كلية أيضا، يوقف عليها؛ فإنها جد مهمة.

﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، الحمد: وقفوا ها هنا ثلاث وقفات، مهمات، عظيمات، فيها الاهتمام، والعموم، والدوام.

وأما الاهتمام: من أين أتينا به؟ من البدء بلفظة الحمد، اهتماما بهذا الحمد، وألا يكون الا لله عز وجل. ولأنه الله وحده لا شريك له، المستحق لآيات

الثناء كلها، ودلائل المجد أجمعها، ولأنه الخالق البارئ، المصور، ولأنه هو ذلكم الرب الذي اتحفنا، ومنحنا، وحين أبدعنا، وأوجدنا، وسخر لنا هذا الكون كله، ولم يكن، بل ولم يتأتى لهذا الكون، أن يستعصي علينا معاشر البشر؛ راحة، وسخرة، وخدمة، وعونا، وإعانة لنا.

وهذه النعمة وحدها، وحين رأيت، وأنت إذ تبحث في المجاهر، والمكبرات، والأفلاك، وغيرها. لم تجد كائنا وحيدا مستعصيا عليك! وأنت إذ تبحث؛ دلالة هذه الاختراعات، وتلك الابتكارات اليومية، بل الآنية، التي منحت إياها من هذا الرب العظيم القدير سبحانه وتعالى، اللطيف بك، وحين أوقفك على هذه المدلولات، التي منها أن تخر ساجدا لربك؛ شكرا له؛ وأن هيا لك هذا الكون، ومهده، وسخره.

وإنك لم تجد يوما ذرة كائنة، أو جزيئا مركبا، أو مادة، مما عظم، ومما قل، ومما كثر، ومما ندر. لم تجده قد استعصى عليك يوما!

بل وجدته ممهدا لك، معبدا، ومنه كان استقرار الحمد في اذهان العقلاء، هو ذلك الموجب لذلك الثناء على الله عز وجل، وبه كان قمنا أن يلفت هذا القرآن أنظارنا اليه، ويقول: ها نحن قد بدأنا به؛ اهتماما به.

والعموم: من أي وجه كان هذا العموم؟ من استغراق جميع أفراد الحمد له تعالى، وحيثما كانت إلا لهذا الرب العظيم المتعال.

ومن أين أتينا بهذا؟ من (أل) التي هي للجنس، لا التي هي للعهد، وكما قلنا آنفا. فإن الجنس هي تلك التي تشي أن كل أطراف الحمد، ومفرداته، وحينما تكون خاصة بربك الرحمن تبارك وتعالى في علاه.

ولقائل أن يقول: وكيف لنا أن نتفهم ما جاء عن العرب القح، وهم أهل العربية، وحين ورد عنهم، وجاءنا عنهم، ما يشي باعتمالهم واعتمادهم الحمد لغير الله. كأن يقولوا: حمدت فيك كذا.

ونقف ونقول: بل نعم، وحين يكون حمدك متجها إلى نعمة، لا إلى النعم، فكان هذا دليلا وبرهانا على دخول أفراد الحمد كلها لله، ولأنك وإن قلت لأحدهم: أحمد فيك صدقك مثلا، فهذه فقط لصفة، أو اثنتين، أو لثلاث!

وأما صفات الجلال والثناء والحمد كلها فليست تكون وإلا لربنا الرحمن، وحين يراد بها ذلك، وإنما نمعنه ونقعده، بقولنا الحمد، التي هي للجنس، أي التي يدخل فيها جميع أفراد الحمد لله تبارك وتعالى.

إذن كان الحمد لله رب العالمين وتمام اهتمام به ومن البدء به، وعمومه من (أل) الجنسية.

والدوام من أين؟ من مجيء الحمد مصدرا؛ تأكيدا على أن هذا الحمد، وحين جاء بكونه مصدرا، فدل على هذا الدوام والثبات، وحين ليس يفارق الكون كله.

وإلا أنك تجد ملائكة قوامين، ليلها، ونهارها، ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٠]. دلالة أنك تستدعي هذه القدوة، من الملائكة، الكرام، البررة، وحين كانوا هم أولاء وقد أعدهم تبارك وتعالى، فاستحق لديهم، وعندهم، أن يودع فيهم ربهم الرحمن عز وجل هذه الملكة، التي منها يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

ومنه وإن شئنا أن نقول: إن ربك الرحمن قد أمسك لواء الحمد بيد هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ دلالة عظم شأن هذا الحمد. والا ما عقد له لواء أصلا، وإلا ما أعطيه هذا النبي صلى الله عليه وسلم أصلا؛ ولأنه هو ذلكم النبي الخاتم، والرسول المجتبى، من هذا الرب العظيم تبارك وتعالى في علاه.

وهذا الدوام، وإذ لسنا نتنسمه، ومن المصدر وحسب، وإنما من الجملة الإسمية أيضا.

ف (الحمد لله) مبتدأ وخبر، وتصدرها بمبتدئها هكذا؛ دلالة هذه الأهمية، ودلالة هذا الدوام، والثبات غير المنقطع، ولو شيئا.

ومنه قد استفدنا من ذكر هذا الحمد، وحين نجول فيهن ونصول بين جنباتهن مستأهلين، ومستحضرين، ومستدعين، ثناءنا كله، على ربنا عز وجل؛ ولأنه سبحانه وتعالى، هو أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا له عبد، وحين تخر الجباه له سجدا، وحين تتلقى عنه مناهجها.

هاتان خصيصان، لا تفترقان:

١- أن تسجد، وأن تركع، وأن تصلي، وأن تزكي، وأن تحج. فإن هذا عمل مبرور.

٢- وقدم عليه اعتقادك وعملك المؤيد لهذا الاعتقاد، وذلك القول بانتهاج سبيل ربك عز وجل، تعبدا له، واستمطارا لرحماته، جل شأنه، ولأننا نرى القوم، والكون قد عاش حيصا بيصا.

وحين قد استدبر هذا القرآن العظيم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

هنا لابد من هذه الوقفة، وحين رأينا وكيف تشتت أفكارنا، حتى صار الناس ليس يستجمعون شيئا من أركانهم، وحين رأيتهم يقومون، ويستيقظون على مشاكل من أسعار، واقتصاد هابط، نازل، ومن أوبئة، قد حلت على الناس حلولها، وحين قد استدبر الناس كتاب ربهم وراء ظهورهم!

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)

إن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإذ تمثل هذه منظومة، مؤثرة، منسجمة، مؤلفة من عدة منظومات، كان منها هذا الحمد، وكان منها هذا السلطان الأقوم الأعز الأكرم الله تعالى، وكان منها هذا الرب، وكان منها هذا العالم.

والواقع أن هذه المنظومة، وبهذا التركيب المختلف من أفرادها، وحين قد جاءت تبعا لمنظومة أخرى سبقت، وهي منظومة البسملة، وعلى ما أنف، ومن تأليفاتها المفردة، والمتراكبة أيضا ومن هكذا قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ليدلك هذا الائتلاف، وهذا التنظيم، على كم كان هذا الحق الفريد، من هذه اللغة، وحين أمكن استخدامها، بل وتطويعها لهذا الأداء، المتراكب، المنسجم، الجميل، العظيم، الجليل، الزكي.

وأنت إذ تقف عاجزا منبهرا أمام هذا الأداء القرآني الفريد، المبهر، المعجز؛ وليأخذ بلبك أخذا، وبحيث تجد نفسك مستجمعا أركانك؛ للإخبات، والقنوت، لهذا الرب العظيم المتعال، وحيد كان من إمكانه هذا الجمع المتآلف، وهذا التركيب المتآزر، ومن كليتين متتاليتين هما: البسملة، والحمد لله رب العالمين.

وهذا في القرآن كله، غير أننا نستحث، ونستجمع، ونستحضر هذا العطاء القرآني الفريد، وحين تقدمه الولوج لهذا الفسح الجليل العظيم البهي، قرآن ربنا الرحمن تبارك وتعالى، وإنما أيضا؛ ليهبنا شحنات، بل طاقات عظيمة الشأن، وحين نزلف بأقدامنا، وقلوبنا، وألسنتنا، وكلياتنا، إلى هذا النبع، الفريد، الصافي، القرآن العظيم.

وحين كان قد استأهل، واستهل، بهاتين المقدمتين، ومما أنف بعض بيانه.

بلاغة تقديم لفظ الألوهية: وسبق وأنف ابتداء الكلام بالحمد، ثم جاء بعده لفظ الجلالة (الله)، وقلنا إن الحكمة، والبلاغة، في تقديم الحمد على لفظ الجلالة (الله)، ومنه أيضا، وذلكم تقديم لفظ الألوهية (الله) على لفظ الربوبية، فريد، عظيم الشأن.

وإن قيل: ولما قلت: ذو الربوبية، أي رب العالمين؟ وقلت: هذا إحكام، وضبط قرآنين، فريد، عظيم الشأن.

وإن قيل: ولما قلت: ولأن تقديمه الكلام بالربوبية، ربما كان ملائما أكثر، وحين جاء تقديمه لفظ الالوهية على لفظ الربوبية.

ولعله، بل هو أكثر وأعظم ملاءمة.

وإن قيل أيضا: وكيف قلت فإن الحمد، وهو ذلكم الثناء على الله عز وجل، ولربما كان أنسب له أن يكون مرتبطا ملتحما بلفظ الربوبية وأتقن بيانا؟

قلت: ولأن لفظ الربوبية الحاني اللطيف الرضي، وحين كان منه أننا كلنا، وهذه العوالم كلها تحت ربوبية ربها سبحانه وتعالى، ورعايته، وعنايته. فلربما كان العقل يستحضر هذه الربوبية أولا، كمقدمة لهذه الألوهية.

فإن تعداد النعم التي يقتضيها لفظ الربوبية، ومن قوله تعالى (رب العالمين) فيه تقديم الآلاء والنعم، وهذه الآيات المسطورة، وتلك الآيات المنظورة، ومن أمام أعيننا.

وهي التي يشي بها لفظ الربوبية، ومنه فقد كان أدعى سياقا؛ وكيما تعد تمهيدا لتلقي الأمر، والنهي، والسلطان، والتقييد، والتحييد، الذي تقتضيه لفظة الألوهية.

وكيف لا يخبت الناس؟! وكيف لا نطيع ربا، كان هذا شأنه سبحانه؟!

والقرآن العظيم حافل بتقديمه الربوبية على الألوهية، في كثير من مواضعه.

وانظر أواخر سورة (المؤمنون)، وحين قال الله تعالى ﴿**قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٤:٨٩].

هذه المقدمات، في توحيد الربوبية، هي التي كان من لازمها هذا التوحيد الإلهي، وهو بسط سلطان الله تبارك وتعالى على ما خلق وبرأ وأبدع وأتقن وصنع سبحانه وتعالى.

ولكن تقدمة الألوهية ها هنا على هذه الربوبية، وإذ كانت ومما أنفا أيضا، قد أدت معاني الحنو، واللطف، والرأفة، والرحمة- بنا نحن معاشر البشر المساكين- وامام هذا السلطان الأعلى لله رب العالمين تبارك وتعالى في علاه.

وإنما كان منه، وإن كنا أصحاب هذا البسط، والأمر، والنحو، والقيد، والتخصيص، والتقييد، والتحييد، لكم أيها الناس.

وحين أنزلنا إليكم، وعليكم، ولكم، شرعا، مؤتلفا، كان به، ومنه، صلاحكم، وسعادتكم، ويسركم، وهناؤكم.

وهذا في حد ذاته يشي بمعاني الرحمة، والربوبية أيضا. وإذ وكما أنف في غير موضع، فإن العظمة، والرحمة، وعلى ما يقولون صفات الرحمة، من الله تعالى الرحمن الرحيم العليم الحليم.

وهذا كله وغيره، في منظومة الربوبية، ومنه نعدد، ونعيد القول أيضا، بأن الله تبارك وتعالى في علاه، وحين كان له السلطان الأعز، الأكبر، الأقوم، الأوحد، الأفرد.

وانما كان هذا بنا ورحمة منه تعالى، وسبحان ربي، الذي أنزله هذا الأمر، وهذا النهي؛ ولأن فيه صلاحنا، وبهاءنا، وهناءنا.

وكان منه هذا الائتلاف، والانسجام أيضا، بين معاني الربوبية، ومعاني الألوهية.

ومنه كان تقديم لفظ (الله) عز وجل في علاه على لفظ (رب) ومما أنف أيضا.

ومن قول ربنا الرحمن سبحانه: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، هذا الرب سبحانه وتعالى في علاه، وإنما كان من جميل هذا التعبير، وإنه جاء مضافا، ف(رب) مضاف، و(العالمين) مضاف اليه، لم يأت لفظ الربوبية الحاني، اللطيف، الهني، الرضي، في القرآن العظيم كله، وإلا من مقتضى هذه الإضافة؛ ليوقفنا ربنا عز وجل على كم كان سلطانه تعالى، وكم كانت عظمته سبحانه.

وحين كان ربا للعالمين كل عالمين، وحين وقف الناس على، وعند رب، وكيف كانت مؤتلفة، منسجمة أيضا، مع كونها مضافة إلى لفظة، ومفردة العالمين.

وإنما أيضا؛ لنقف على ذلكم المعنى المتراكب أيضا، ومن مقصودنا، ومن مقصود غيرنا، من كلمه الرب، وحين راح الناس أيضا، وكما راحوا عند، وفي غيره، وقالوا، وصالوا، وجالوا، في مضامينها، وفي معانيها، ومراميها، وأطرافها.

ولكن كلمه الرب تعنى، أو يعنى بها المطاع، السيد، أو المربي، أو المعبود، أو المصلح،

هذه المعاني كلها، وحين وقف الناس أمامها، مفرِّدين، وشارحين، ومفسرين. وحين دلت اصلا، وفرعا، على حلاوة هذا الذكر، وتلاوته.

وحينما نقول نحن إن اختلاف الناس حول هذا المعنى، من كونه أن الرب يعنى به الطاعة، أو الاصلاح، أو التربية، أو العبادة، أو السيد، أو المالك،

فإنها كلها معان، وإن اختلفت لفظا ومبنى، وإلا أنها في كلها ومجموعها، ليست مختلفة، بل مؤتلفة معنى، وهذا الذي ندور حوله؛ وخروجا من الخلاف، نحاول أن نستجمع، أركان المعاني، وتضامنها، أفضل مما يساق من خلافات هنا وهناك، قد تذهب بنا عن حلاوة المعنى ولطائفه وزكاه، فإنك إذا وقفت على الرب، وحين قالوا مثلا إنه من التربية، وهو الذي يناسب ما جاء بعده من كلمة (العالمين).

وإذا أستحضر، هذا المعنى من التربية، وحين كان فيه معنى الربا، أي العلو، المتسامق، وحين نقدم، ولله المثل الأعلى، نقدم مثالا، لهذا المعنى، أوفر، وأكثر، وحين يربي أحدنا ولده، من صغر، وإلى كبر، وإلى أن يربو، فيكبر.

فكأنك أمام حلقات، ودرجات، من التربية، من كونه جنينا، كان في بطن أمه، ثم مولودا، ثم صبيا، ثم إلى أن كبر.

فهذه التربية، وحين نستصحبها، من صغر إلى كبر، ومن دنو إلى علو، فلربما استحضرت من خلالها هذه الرعاية الربانية بك، وبمن هو غيرك أيضا؛ لتستحضر أيضا، وحين كنت في شفقة، على نفسك، وأنت إذ تربي ولدا، واحدا، ذكرا كان أو أنثى، ولربما كان لك التيه في بحار التجلد، والأخذ، والرد بينك وبين نفسك. تعليمه، وتدريبه، وكيف يحار عقلك، وذهنك، وأنت إذ تربي ولدا، أو اثنين، أو ثلاثة، في منظومة، آسرة، محدودة، العد مقيدة بقيد هذا العدد، البسيط، المتناهي في صغر، وإذ تحار أنت، وكيف بك إذًا، ولله المثل الأعلى، وحين تستحضر عظمة رب ، كان من تربيته لك، وعنايته بك، وبغيرك، من الإنس، والجن، وما يندرج تحت هذا كله من عوالم، كان الله وحده بها عليما!

بل، وما قولنا في هذه العوالم، التي حار، وما زال الناس حائرين أمامها؛ ومن كثرتها، وتشعبها.

وهو الذي أحال الناس، إلى أن يفردوا كل علم على حدة، فهذه جماعة حيوية، وهذا محيطها الحيوي، وذاك نظامها اللاحيوي، وهذا علم الأحياء، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء، وعلم الفلك، وعلم الطب، وعلم الجراحة، وعلم الجيولوجيا، وعلم البيولوجيا، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلوم البحار، وعلوم الأنهار، وما يندرج تحت كل واحد من هذه العلوم من فروعه!

في هكذا وقوف على عموم هذه الأسماء من علوم؛ لتجد نفسك أمامها، لست إلا منبهرا. انبهار خشية، وانبهار قدرة لهذا الرب العظيم، وانبهار ضعف لك! وإذ يؤدي بك إلى هذا التسليم، لهذا الرب، العظيم، القهار، التواب.

وإنك، وإذ كنت حائرا، وحين تربي مزرعة سمكية، فيها بضعة آلاف، أو أرضا زراعية، بها عدة أفدنة، أو قراريط، أو واحدا أو اثنين أو ثلاثة، وتجد نفسك حائرا بين هذا وذاك! فانظر كيف كان ربك تبارك وتعالى قيوما، ربا، وحين قلت من قول ربك الرحمن ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

فهذه الربوبية، وحين ينظر إليها من زاوية التربية، تجد نفسك أمامها، خاشعا، مخبتا.

وهو الذي يؤدي بنا إلى استكناه، واستدعاء معاني الربوبية الأخرى، فإنه لا تربية بغير إصلاح، ولا ربوبية بغير رعاية، ولا عناية، ولا ربوبية بغير ملك.

وهذا الذي أوقفك عليه قول نبين محمد صلى الله عليه وسلم: أنت ومالك لأبيك.

فعن عبدالله بن عمرو: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أبي اجتاح مالي فقال أنت ومالك لأبيك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من أموالهم(١).

ومنه يستدعى هذا المعنى أيضا، وكيف بك إذا وقفت على هذه الربوبية، وإذ كانت بمعنى الصلاح والإصلاح؛ وكيما يزداد حمدك لربك، زيادة وإضافة إلى كونها من الربوبية، أي التربية؛ ولأنك أيضا، وحين تستحضر ولدك أو سيارتك، وحين أصابها العطل، أو الفساد، أو الفساد، وإنما تسرع مهرولا لإصلاح ذلكم خلل.

وأقول: ولله المثل الأعلى، وهذا الاصلاح كان منه انتظام الكون، فكيف بك، وإن استحضرت إصلاح ربك لهذا العالم كله! وحين كانت عنايته هذه الدائمة، غير المنقطعة، والتي تتواءم، وتنتظم أيضا، ومن قول ربنا الرحمن الرحيم، ومما أنف ذكره، وبيانه. ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة:٢٥٥].

وحين كان من قيوميته، وحياته، وأنه تعالى لا تأخذه سنة واحدة! ولا نوم

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٨٧٠

واحد! فانتظم به ها هنا هكذا قوله تعالى أيضا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكيف تأخذه سنة واحدة، ونحن أمام هذا الكون، الهائل، المترامي، الضخم، العظيم؟!

وهنا تعلم، من تعبد، وتقف على حقيقة من خلق، وبرأ، لينتظم في عقدك، وذهنك، وعقلك، وخلدك، انفراده تبارك وتعالى وحده، بالأمر، والنهي، ولا يتلقين إلا أمره، ولا ينتهين إلا عن نهيه، وحده تبارك وتعالى، وحين كان من مكنته، وقدرته تعالى، ذلكم إصلاح هذا العالم، الذي نراه، مترامي الأطراف، وإن نحن لا نرى من بيننا، ومن قدام أعيننا، إلا مسافة كم متر!

وذلك مقابلة وأية مقابلة؟! وحين علمت أن قدرة ربك الرحمن تبارك وتعالى، غير محدودة بحد، ولو واحدا! وغير مقيدة بقيد، ولو واحدا أيضا! سبحانه وتعالى، ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١١-١٣].
سبحان ربنا، سبحان ربنا وتعالى، في علاه.

وحين يختلف الناس، كل عصر، وكل حدب، وكل على قدر ما أوتي، ولما بدأوا، وقالوا أولا: إن العوالم عدتها أربعة عشر ألف عالم! ولما كبروا، وتناهى

الزمن، قالوا: ثمانية عشر ألف عالم! ولما كبروا، قالوا: ألف ألف عالم! يعنون المليون عالم!

ونحن الآن في عصر القنبلة الهيدروجينية، والذرية، والبروتون، والنيترون، والذرة، ونواتها، ونويتها، والميكرون، والفيمتو ثانية، والإلكترون، والمنظومة البسيطة، التي نعيشها، ماذا نحن وعسانا أن نقول؟!

وكم من عالم نحن أمامه، وقد بسط ربنا تبارك وتعالى عليه يد الاستواء، والعظمة، والحكم، والسيطرة، والتربية، والإصلاح، والملك أيضا!

إن الناس يقفون الآن حائرين، أمام درب التبانة، والشهب، والنيازك، والكواكب، والكويكبات، والشمس، ما الأقرب؟! ما الأكبر ؟! ما الأوسع؟! ما الأسبق خلقا؟! ما الآخر بدءا؟!

هذا عالم منتظم! وانظر قوله تعالى، دلالة هذا الانتظام، ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٣٣:٤٠].

هذه المنظومة، وحين ننظر إليها، نظرات المتأمل، المعتبر، وإنها لموجب، وسبب، وداعية، تخشعه، وخضوعه وقنوته، لربه تعالى، وكذا تفرده بأمره، ونهيه، وحده عما سواه.

ومنه؛ فليدع الناس، هذه الخيالات، وهذه الذهنيات، وهذه التي تسمى عقليات.

هذه المجامع العديدة، المتعددة، وحين ليست تجرؤ، بل ليس من مكنتها، أن تأمر أمرا، أو أن تنهي نهيا، ثم لا يصيبه العطب، والخلق! ولأنها مربوبة، ولأنها يجب أن تكون عابدة، ومن عبادتها لربها ألا تأمر إلا من أمره، وأن تقف عند هذا القرآن العظيم، وسنن سيد المرسلين، وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤)

هذه الآية وحين كانت مؤثرة غاية التأثير؛ ولما قد تضمنت هذه الأطراف الأربعة (الحمد- لله- رب –العالمين)، وفي منظومة تحكي هذا الأثر العظيم، الذي ينبغي أن يكون حاصلا، حادثا، واقعا.

ماهية الحمد: وحين قد استحضرنا ماهية الحمد، واختصاصه، وعمومه، لربنا الرحمن تبارك وتعالى.

وحين قد كفى، أن أحد الصحابة الأفاضل، الأكارم، الأبرار، وحين قال يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وحين قد علم رب العالمين، وهو أعلم بما يقول عبده، وإذ يقول ربنا الرحمن عز وجل: اكتبوها لعبدي، كما قالها، وأنا أجزيه بها.

فدل وكما قد استشرفت على هذا الثناء في الأداء، ودل على هذا الاستغراق، استغراق القوم، في مدح ربهم الرحمن تبارك وتعالى؛ ولأنه سبحانه هو أهل الثناء والمجد.

فعن عبدالله بن عمر: أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله عز وجل وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدي قالا يا رب إنه قال

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله عز وجل لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها([1]).

ودلك أيضا على هذا الأثر، العظيم، الجليل القدر، العالي الشأن، السامق القيمة، لمدلول هذا الحمد.

وحين قد قال ربنا الرحمن عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال عبدي الحمد لله قال الله حمدني عبدي.

وفي هذه الإضافة الجلية، العظيمة، السامقة، السامية، الرفيعة، السنية، وحين يضيف رب العز' والجلال هذا العبد إليه بضمير المتكلم، عطفا على هذا الأداء الانسيابي من الله عز وجل، وأن يكتنف العبد صنوف من الابتهال والتقوى والخضوع.

وحين يذكر بإضافته إلى رب العزة والجلال، إضافة قيمة، وهو الذي يستشرف آثار العبودية، ويستمكنها أيضا من هذا العبد، الخاضع، الخاشع، القانت، لربه تعالى.

وحين قد أولاه ربه عز وجل هذا الذكر، وهذه الإضافة؛ ليقف على أمر ربه، ليس استحسانا منه، ولا فضلا، بل اعترافا لهذا الرب العظيم، بأنه المستحق وحده لهذه العبودي'

وحين يوقف على أمر الله تعالى وحده، وعلى نهيه سبحانه أيضا وحده.

---

(١) ضعيف ابن ماجه: ٧٦٣

وليس يشارك رب العزة أحد في أمر ولو واحدا، ولا في نهي ولو واحدا كان أيضا.

ولأن الله رب العزة والجلال هو المتفرد بصفات الكمال والتمام.

وكان منه، وحين كان هذا يعتبر استدراكا على الله عز وجل.

والله تعالى وهو الذي يستشرف آثار العبودية، ويستمكنها أيضا من هذا العبد الخاضع الخاشع القانت لربه.

ولأن الله رب العزة والجلال هو المتفرد بصفات الكمال والتمام وكان منه هو هكذا إفراده بهذه العبودية، والتي أمكن تسميتها عبودية الأمر والنهي.

ولأنه وحين يؤمر بغير أمره أو ينهى بغير نهيه، ويكأن هذا يعتبر استدراكا على الله عز وجل. والله بكل شيء محيط.

وهذه كلية قمنة بالوقوف عندها، ولنعلم أن أمرا ما أو نهيا ما غير ما قد أتانا عن رب العزة والجلال، فإن ذلك حتما مفض إلى أن الأمر أو النهي على غير أمر ربه وعلى غير نهي ربه، وإنما هو يستدرك على ربه.

وهذا طعن برمح في قلب عبوديته لربه تبارك وتعالى، وشرخ مدمن ليس يلئمه، وليس يعالجه، إلا بالرجوع والوقوف على الجادة.

وحين قد أمكنه أن يستحضر هذا المعنى الممعن بهذا الاختصاص الرباني. وهذا الإفراد، وهذه الوحدانية لله عز وجل في ربوبيته وفي ألوهيته.

ثم وحين يستحضر أيضا قوله تعالى: حمدني ثم عبدي، في هذه الإضافة التشريفية أن يكون من موجب علمه بهذا الشرف، الذي أولاه به ربه عز وجل، أن يقف على أمره ونهيه فلا يتعداهما.

وأكرر؛ ولأنه والحال كذلك، يعتبر مستدركا على ربه! ومن هذا الذي يمكنه أن يستدرك على مولاه؟!

ومن حيث لا أحد يمكنه أن يستدرك على مولاه ألبته،

فصل

هل (الرب) اسم من أسماء الله تعالى الحسنى؟

وقفوا عند كلمة رب، ومما أنف بعض من ذكره، وكما أنف أيضا أن الرب ههنا أتت مضافة إلى (العالمين)، وحين وقف الناس، أيضا هل كلمة (رب) ها هنا تعتبر اسما لله تعالى ومن أسمائه الحسنى؟

وإذا كان الأمر كذلك؛ وباعتبارها قد جاءت مضافة، وهل يمكننا الجمع بينها وبين غيرها، وحين جاءت بغير إضافة، أو بتسميه الرب العظيم بهكذا اسم (رب العالمين)، ومنه فهل تعد اسما من الأسماء الحسنى؟

هذا فيه خلاف بين أولي العلم والنهى.

وإن لم ترد في التسعة والتسعين اسما التي قد أحصوها، وإنما هذا خلاف موجود بين دفات الكتب المختلفة والمتباينة حول تفسير وتأويل كلام ربنا الرحمن تبارك وتعالى.

وحين قال قوم بأن اسم الرب هو اسم لله عز وجل؛ ومن قوله تبارك وتعالى ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٧٨].

فجعل الرب اسما لله تبارك وتعالى، وإن جاءت مضافة.

وإنما قلنا هذه الإضافة، وإذ كانت ولا تزال، إضافة تشريف لك؛ وحين قد قال ربك ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ**﴾.

ويكأنك لا تتخذ ربا غيره، وحين قد رباك وأثناك وأولاك برعايته وكفالته وبرحمته سبحانه وتعالى. ويكأن ربنا الرحمن، وحين يضيفك بهذه الإضافة، إضافة رحمة وعبودية وتشريف؛ ومن ضمير (الكاف)،

إن هذا السمو والسؤدد لك، وحين تكون في معاطف هذه الربوبية الحانية، وفي معانيها الرضية أيضا.

إن الله عز وجل يحيطك برعايته وحفظه وكفائه وكفالته وعنايته.

ويكأنك أيضا ترد الجميل، وإن جاز التعبير، باتخاذه وحده ربا ليس سواه، وحين قد أوقفت نفسك على منهجه، وحين ولما علمت أن ربك الرحمن وإنما قد أضافك هذه الإضافة، وبضمير الخطاب الملفت والموجب للنظر والاعتبار.

إنه وحين جاءت كلمة (رب) ها هنا مضافة إلى العالمين، وقد وقفوا أمامها موقفا، وحين قد أضيفت وأن نعم، وإنما دل ذلك على جميل وجمال الإحاطة، وعلى جميل وجمال وجلال الرعاية.

وإلا أنها أيضا دلت قطعا في هذا التدليل على أن الخلق، وحين كانوا مربوبين، وحين اختص الله تبارك وتعالى نفسه بربوبيته لأولاء العالمين، وإنما دل، ومما دل على ذلكم الاختصاص، **وهذا أولا.**

ثانيا: ودل على هذا الملك الواسع الضخم الممتد، غير القابل للإحصاء، وحين قد جاءت كلمة العالمين جمعا.

أصل مادة العالمين: وتعرف الفارق، وتقف على دقة التعبير، وبيان هذا الذكر الحسن الجميل، وحين اختلفوا أصلا حول مادة العالمين، وهل هي من

العلم، وحين كان هذا متضحا من أن رب العالمين تبارك وتعالى هو ذلكم المستحق لهذه الربوبية لهذا العالم كله، ومن باب علمه، وإحاطته سبحانه وتعالى.

وإذ ليس هنالك من دقيق أو جلي، أو صغير أو كبير، أو قليل أو كثير، وإلا وقد أحاط الله تبارك وتعالى به علما.

ثم ما يندرج تحت ذلك، ومنه كونه تعالى، وحين كان ربا لأولاء العالمين، وإنما قد فهم منه اعتبارا واستصحابا أنه هو ذلك المالك لأولاء العالمين أجمعين.

وانظر؛ وكيما يتضح هذا الأمر جليا واضحا، وحين يمتلك أحد من الناس شيئا، وإنما يشار له بالبنان؛ ولأنه مالك شيئا تبعيضيا.

وحين يقول ربنا الرحمن: الحمد لله رب العالمين؛ لنقف بهذا الإخبات كله، ولهذا الرب وحده، وحين كان ربا واحدا أحدا لأولاء العالمين أجمعين.

وانظر كيف يمكن أن يكون مالك هذا شأنه، وحين قد ملك، وهو رب العالمين أيضا؟!

وأنت تستصحب كلمة (العالمين) أيضا فاستصحب معها أي عالم، بل أي عالمين، يمكن أن تعرف، أو أن يوقف عليها!

وأنت قد عرفت هذه الذرة، التي هي من مكونات بنية المادة، أو العنصر، وحين قد تألفت من هذه البروتونات العديدة، وهذه الإلكترونات العديدة، وهذه النيترونات العديدة، وحين كونت كلا اسمه الذرة، وما كان في داخل نواتها من بروتون عديد، يقولون عنه موجب الشحنة، ونيترون عديد

يقولون عنه لا شحنة له، أو متعادل الشحنة، ولتنتظم هذه الذرة في تعادلها، بحيث تكون منسجمة مع أدائها لدورها، ولما كانت نواتها بهذا الشأن موجبة؛ لموجب إيجابية البروتون.

وهذا الانسجام أيضا مع هذا الدوران الإلكتروني حولها سالبة شحنته؛ ولتنتظم منظومة الإحكام والقبض'؛ وكيما تقف على هذا الكل المنسجم، المترابط، الملتحم، من هذا التجاذب بين شحنة الإلكترون السالبة، وبين شحنة البروتون الموجبة.

وأؤكد وأعيد التأكيد والتكرار أن هذا الذي كان منه عدم انفراط عقد المادة، وحين كانت ذرتها المكونة لها بهذا الشكل، من الترابط، والانسجام، والتجاذب الذاتي، الذي قد أودعه رب العزة والجلال هذه الذرة! وبحيث لم ينفرط لها عقدها!

فأنت تجد البرتقالة متماسكة مترابطة، وأنت تجد الحجر متماسكا مترابطا!

وأنه ولولا ذلكم الترابط والانسجام بين مكونات هذه الذرة لم يكن لهذا وجود بهذا التلاحم والارتباط. وكان هذا العالم عالما هلاميا، ليس يستقر له قرار !ا

انظر إلى هذه النعمة المسداة، وكيف كانت أداه من أدوات الاطلاع على هذه الرقابة الربانية، والربوبية الرحمانية، لهذا العالم، الذي أنت تعيشه، وحين كان بهذه المثابة؛ لنعرف كيف كانت التعبير ب (رب العالمين) هو ذلك الموجب لجميع وتمام وكمال وجلال وجمال الخضوع لهذا الرب العظيم المتعال!

وأنت إذ تنظر إلى هذه الربوبية الحانية اللطيفة الندية الرضية، عليك أيها العبد أنت أيضا، لم تكن شيئا هلاميا، وآخر مربعا، وثالثا دائرة! ورابعا معينا! وغير ذلك من الأشكال، والأوضاع!

وحين قد شكلك وأعطاك هذا البيان، وهذا البديع، والصنع، من إبداع وإتقان ربك الرحمن عز وجل.

وحين قال ربك الرحمن ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. لتقف خاشعا خاضعا قانتا مخبتا، وحين كان ربك الرحمن، ولما كان ربا وبهذا الاستواء، وهذه العظمة، وإنما كان له هذا الملك كله أيضا! ولتستجمع قدرك، وحين كنت بهذه المربوبية، لرب قد رباك وأسناك وأولاك سبحانه وتعالى.

ثم وحين قد سخر لك من هذه العوالم، التي قد عرفتها، ووقفت على بعضها، بل لم تقف إلا على بعضها؛ ومن قول رب العزة والجلال: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٨٥].

دلالة، وبرهان أننا كل يوم أمام اكتشافات وابتكارات واختراعات وصناعات جديدة حديثة، تنبئ عن مدى جهلنا المطبق لهذا العالم، الذي نحن نعيش فيه.

وحين قد كان ليس عالما واحدا، بل عوالم!

أعود فأقول ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: وحين وقفوا عند كلمة (العالمين)، وهل هي من العلم، ومما أنف، أو من العالم، وهو ذلكم المسمى، وكل ما سوى الله عالم، فكان محدثا.

وربنا الرحمن تبارك وتعالى ومن حيث كان هو المحدِث لهذه الحوادث، فدل على هذه المغايرة بين المحدَث، وهو هذا العالم، وبين المحدِث، وهو الله تعالى.

وهذا الذي أحدثه ربنا الرحمن عز وجل، وحين قال ﴿**قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

وسبحان ربنا في علاه، وحين قد جاء ذكر هذا العالم، وحين كان وجاء جمعا! وجمع هذا الجمع على عالمين، فكأنه كان جمع الجمع!

وحين تقف عند هذه الحقيقة وحدها، وعند هذا التأويل أيضا، لتعلمن العظمة والقدرة.

وحين جاءت كلمة عالم جمعا لا مفرد له من نوعه، فجمعت على عالمين، ملحقا بجمع المذكر السالم، حتى أخذت إعرابه، رفعا بالواو، ونصبا وجرا بالياء.

فجمع الجمع هذا دلك على عوالم كثيرة!

ويندرج تحت كل عالم منها عوالم أخر من جمع الجمع هذا! الذي نستشرفه، ونستحضره، ونستأتيه من هذا الجمع!

فعن أبي هريرة: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: {الحمد لله رب العالمين}، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرحمن الرحيم}، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: {مالك يوم الدين}، قال: مجدني عبدي، وقال مرة فوض إلي عبدي، فإذا قال: {إياك نعبد وإياك نستعين} قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل(١).

(١) صحيح مسلم: ٣٩٥

فصل

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. (١)

وهذا هو أداء هذا القرآن، العظيم، الفريد، الجميل، الجليل، العظيم الشأن، وحين رأيته آخذا بتلابيبك، وأوتار قلبك، وحين قد لامس شغافها، وحرك فيها هذا التفاعل المنتج، والمثمر، ومن بين خلجات هذا الأداء القرآني، الرائع أيضا؛ ولأنه، والحق يقال: نبا، بل أحيل، أن يوجد تعبير هكذا، مختلف عن غيره، من أنواع التعبير الأخرى.

ولما كان هذا الأداء منزلا، من عند رب العزة والجلال سبحانه وتعالى.

ولأنه ومن صدق هذا الحديث، وإنما يبين، ولمطابقته واقعا متفاعلا معه، وهذا معنى كبير عظيم جليل الشأن.

ثم إنه ذو أداء فريد أيضا، في تركيباته.

ولما كان هذا القرآن متضمنا هذين الثنتين معا:

١- أداء فريد في البيان والتركيب.

٢- وأداء جليل في المعنى، وفي الفحوى، وفي الأداء التفسيري، التأويلي أيضا.

وحين قد رأيت من اجتماع هذين الأمرين معا ائتلافا تركيبيا عاليا، رأيت ثمره، وأحسست كنهه، وأنت إذ تتلو أي آية من آيات الذكر الحكيم، ولا سيما وأنت إذ تدلف ببصرك، وسمعك، ولبك، ولسانك، وقولك، وقيلك، نحو

هذا القرآن العظيم، ومذ أن قلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما كان هكذا تعبيرا داخليا، ربما ليس من مكنة أحدنا أن يعبر عنه إلا بهذه الخلجات، وإلا بهذه النفحات، وإلا بهذا التفاعل، بين لسان ذكر، وبين قلب قد افتعل، ليحكي منظومة الإخبات، والتأثر، وحين يتلو، ويكرر ثانية أيضا، هذا الذكر، الحكيم، القرآن، العظيم.

وأنت إذ تتلو قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، هكذا في أداء آخذ من تلابيبك أجمعها، وأنت إذ تتلمس فرائده، وعجائبه، ودلائله. بل وأيا كان، مسلما عبدا، أو كافرا صنديدا! وحين يقرأ هذا القرآن العظيم، وإنما تخيمه هذه الهالة من الانكسار، جناحه، وهو إذ يتطلب مرضاة ربه عز وجل، ويستنشدها، ويستدعيها، ويستشرفها.

ومن فعل حسن أيضا، ومن حسن ظن بربه الرحمن، الكريم، المنان، وحين رأيته منكسرا جناحه، بين يدي ربه وخالقه ومولاه، وهو ذلكم الرب، الرؤوف، الرحيم.

وأنت إذ تخضع لربك تعالى بأجنحة الذل والإخبات، وإنما أنت تستصحب هذه الرحمة، من كافة معانيها، والتي علمت منها بعضا، وإن لم تعلم منها إلا جزءا، وكما بين نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أن لله تعالى مئة رحمة، جعل منها جزءا واحدا، يتراحم منه وبه الخلائق، بينهم البين، وادخر عنده سبحانه وتعالى تسعة وتسعين جزءا، ليرحم بها عباده يوم يقوم الناس لرب العالمين، مستشرفين هذه الرحمات، وبما أودعته في القلوب من هذه

الرجفات، وتلك الخلجات، وهي إذ تعيش على حسن ظن بربها، وامل عظيم من هذا الإدخار الرباني العظيم الشأن.

وحين قد كانت هذه الرحمة منتظر عباد الله المساكين، المحاويج، الأذلة لربهم رب العزة والجلال.

وهم إذ يستحضرون هذا كله أيضا، واذ هم يتلون من كتاب ربهم، ومن قول خالقهم الرحمن الرحيم.

وأنت إذ وقفت على هذا الإعجاز أيضا، ومن هذا الأداء القرآني، الفريد، الرخيم، والذي قد هيأ لك بساط الرحمة، ومن تكرار رباعي في هذه المسافة البالغة القصر، ومن قولك: بسم الله الرحمن الرحيم، وحين قد أتيت ب (الرحمن والرحيم)، ثم لا يفصل بينك وبين (الرحمن الرحيم) ها هنا، إلا آية واحدة، وأنت إذ تكرر في آية مستقلة، بل ليس جزءا من آية، هي أصلا جزء من آية أخرى.

وكما جاء في سوره النمل ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ [النمل:٣٠]. لتقف على كم كان هذا الأداء القرآني، الفريد، العظيم، الجليل، السامق، العالي، الرفيع.

وأنت إذ تستحضرها كآية مستقلة، متضامة، مترابطة، منسجمة، ملتحمة، من أمامها، وعند تلاوتها، وقراءتها، وهي أن الرحمة أيضا؛ ولأنك في كنف رحمن رحيم.

وأقول: وكيف لا، وقد أظلتنا سحابة، وغيم، من هكذا ذكر رباعي، لهذه المشتقات الرحيمية، ومن قولنا ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، ﴿**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، في هذا التناغم، الرخيمي، المنزل منه لدن رب العزة والجلال؟

وليعلم الناس أن ربهم الرحمن، وإن كانت له العظمة، والجبروت، والقهر؛ ولأنه هو ذلكم الرب، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، وإلا أنه هو ذلكم الله، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، سبحانه وتعالى، في علاه.

وأنت إذ تعيش هذه الحالة، وكيف بك، وإلا أن ينغرس في فؤادك، كذلك الاطمئنان، وأن يثبت في لبك، هذا الأمن، وأنت إذ تعيش في كنف هذه الرحمانية، الرباعية الأداء، بل وأنت إذ تستشرفها أيضا، ومن حنو، ومن رضا، ومن لطف، قد رأيته متخللا، بين أجزاء، وكليات، وأبعاض قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكيف كان هذا الرب، ومن كونه ربا للعالمين أجمعين. ما دق، وما جل، وما صغر، وما كبر، وما كثر، وما قل، وإلا أنك أيضا، قد استدعيت رحمته، ورحمانيته معا؛ وكيما تكون آمنا، مستدعيا كافة مدلولات هذه الرحمة؛ ولأن ربك الرحمن، هو الذي أراد لك ذلك.

وحين قد أراد ربك أن يطلعك، على أنه رحمن، رحيم.

وفي الوقت نفسه، ولما كان الله تعالى هو ذلكم الرحمن، وإل أنه هو ذلكم الرب الذي عندك نبأ عنه، وحين كان من قدرته، ومن عظمته، وحين قد قال أيضا ﴿ **يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر:١٦].

فربنا الرحمن عز وجل، وإنما، وحين كان عزيزا حكيما، والا أنه سبحانه وتعالى أيضا، كان رحمانا رحيما.

ومما أنف، ومن قولنا في هذه اللقاءات، إننا لسنا نريد ان ندلف بأقدامنا، وقلمنا، ولساننا، في هذا الخلاف، بين أولي العلم والنهى.

وأيهما أعم، وأيهما أخص، هل هو الرحمن، أو هو الرحيم.

ليس من شأننا من هذا من شيء كثير؛ ولأننا نريد، أن نستجمع طاقاتنا، الداخلية، في استحضار هذه الرحمات الربانية، والتي توقفنا على حقيقتها هذه الألوهية لربنا الرحمن.

وأنه، واذ كان واحدا، أحدا، فردا، صمدا، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، في هكذا تسطير، عظيم، جليل الشأن. وأنه ليس هنالك، ولا من هناك، من إله إلا الله، الواحد، القهار.

ولما كان لا شرييك له تعالى، في خلقه، ولا في أمره، ولا في نهيه.

وإلا أننا أيضا، نستكن، ونأمن، وحين نجد أنفسنا طائعين، مختارين، مجبولين، مفطورين، على استمطار هذه الرحمات، ومن قول ربنا الرحمن الرحيم، رب الأرضين، والسماوات: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، ﴿**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾،

وأنت إذ تحكي حكاية ربك الرحمن، رب العالمين، وفيها ما فيها، من عظمة الشأن، وجلال القدرة، وهو ذلكم المستدعي لآيات الرهبة، موجبات الإخبات، لهذا الرب العظيم سبحانه، وحين كان ربا مالكا، لهذا الكون كله! ومن بعد

خلقه له! واذ كان قيوما على إصلاحه! سبحانه وتعالى، وإلا أنك أيضا، وحين قد رأيت من ذلك، رهبة إيجابية. تدفعك إلى الإخلاص، وإلى العمل الصالح، وكما قد دفعتك دفعا إلى هكذا إخبات له تعالى.

وإلا أنك أيضا قد استدعيت دالات الرحمة كلها أيضا، ولم يتركك ربك من مسافة، طويلة، تبحث فيها عن رحماته، بل هكذا: ﴿**الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، ومن غير فاصل محسوس! أو غير محسوس، في هكذا الأداء القرآني الفريد.

وحين إذ قد انتهيت من ذكرك: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، وبما أسبغته من هذه الهالة، العظمى، القصوى، الكبرى، عليك! وأنت إذ ترهب، وحين كان ربا لأولاء العالمين. وما علمت منها، وما لم تعلم، وإلا أنك أيضا تعيش هذه الهالات، من الرحمات، والرحمانيات، واللائقة بالله ربك الرحمن سبحانه!

وإذ، وأكرر، من غير فاصل: ﴿**الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، هذا الرب، العظيم، التواب، القهار، الغفار، الحليم، الرؤوف، اللطيف، الخبير، بك وأنت إذ تستدعي ميثاق ربك الرحمن، وحين قال ربنا الرحمن: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٧٢].

في هكذا أداء عظيم جليل الشأن: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾؟ وحين قد **استلهمت** ذخر من هذا الأداء، ولما قد وقفت على هكذا درر من هذا الخطاب.

وحين كان أيضا مختوما بهذه ميم الجمع؛ ليأتي في هكذا جمع فريد عظيم الشأن أيضا.

وحين قد خيمتك هذه الربوبية، وأنت إذ، كنت أول خلقك. خلقك ربك الرحمن، وحين خلق، يوم خلق أباك آدم عليه السلام، ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف:١٧٢و١٧٣].

وإذ كان يمكن أن يكتفى بهذا الإشهاد، وحين قد أشهدنا ربنا، ومن أنفسنا، على أنه هو ذلكم الرب، الكريم، الأحد، الفرد، الصمد، الذي استقل بخلقه خلقه.

وهو ذلكم أيضا الذي استقل بأمره خلقه. وكمسلمة حتمية لهكذا تسليم مطلق أيضا؛ مقتضى عقل سديد، وحكم رشيد.

وحين قد أشهدنا، ونحن في مثاقيل الذر، وإلا أن نستدعي شيئا، وبعضا، وجزءا، من رحماته تبارك وتعالى.

وإذ كان يكفي هذا الميثاق، الذي فطرنا ربنا عليه، من توحيده، وإفراده تعالى بالأمر والنهي.

وإلا أنه؛ ولأنه كان، ويكون، بالمؤمنين رحيما، بل ولغير المؤمنين، ومن عموم كونه تعالى الرحمن الرحيم، وأنه تعالى أنزل إلينا كتبا، وبعث فينا رسلا؛

ليبينوا لنا، ولنقف من سببهم على جادة الطريق، فلا نحيد عن هذا الطريق يمنة، ولو واحدة، أو يسرة، ولو واحدة أيضا، في تحقيق منهجي لهذه الربوبية، التي قد استشهدنا عليها، وأقررنا بها، ونحن إذ كنا في مثاقيل الذر، ثم، وبما قد منَّ به ربنا علينا، من إنزال كتبه، ومن بعث رسله.

ومنه أيضا نستجلب، ونستدعي، هذه الرحمات الربانية بنا، وعلينا؛ ومن شأننا، ومن أجلنا. وحين كان ربنا الرحمن الرحيم، لم يترك عبيده هملا، ولا سدى، بل بين لك، وأحاطك بعنايته، وحفظه، وكلائه، ورعايته، وبحيث قد دفع عنك المضار، ومن إنزاله، هذا السبيل، ومن إيضاحه هذا المنهج.

وبهذه العناية، المحكمة، الضبطة، وحين قد دفع المضار، ولما كان قد جلب المنافع، وقضى الحاجات أيضا.

في هكذا استدلال عظيم الشأن، على كم كانت هي رحمة ربك بك! سبحانه وتعالى في علاه.

وحين تستحضر أيضا هذا الأداء القرآني الفريد، العظيم الشأن، ومرة أخرى، ومن قوله تعالى: الحمد لله ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾،

فصل

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢)

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وهذا اسمان، حسنيان، من أسماء ربنا، الرحمن، العليم، الغفار، سبحانه وتعالى.

وأنت تعلم كيف كانت ألطاف رحمة ربنا الرحمن بنا، وحين نقف هذه الوقفة، السنية، الرضية، اللطيفة، أيضا.

ومن لطف ما نحن بين يديه، وليس الذي بين أيدينا، فنحن بين يدي رحمته تبارك وتعالى، أبدا، وفي كل حال من أحوالنا، وعند كل شأن من شؤونا.

وما أكثر هذه الألطاف الربانية، بالعبيد، وحين كان بهم ربهم رحمانا رحيما، ومعهم، بل ورحيما أيضا.

وعبد يعرف أن له ربا ليس رحمانا وحسب، بل رحيما أيضا.

ويحسن أن نقول رحمانا رحيما، على هكذا وصف القرآن، وتنزيل ربنا الرحمن، وبدون فاصلة بينهما.

كيما نعيش هذا المعنى العظيم، من هكذا اللطف الرباني، والرضا، والحنو، الإلهي بنا؛ ولضعفنا، وحين علم ربنا عنا ضعفنا، فقد تنزلت بنا ألطافه تبارك وتعالى.

وحين جاءنا هذا الوصف المضاعف، من مبناه، ومن معناه، مستقلا وحده، ثم من اتصاله، بما يؤدي هذا المبنى، وهذا المعنى أيضا.

وحسبك أن تقف عند هذا الإعجاز، السني، الرضي.

ولما كان كل من اسمي الرحمن، الرحيم، قد اشتق كل منهما، من مادة واحدة، وهي الفعل الثلاثي (رحم)، ولتقف على كم كان لطف ربنا بنا، تبارك وتعالى في علاه.

وحين كان ربنا الرحمن، وأكرر قد جاءنا بهذين الاسمين، الرحمن، الرحيم.

ودل هذا الابتناء، على هذه الغاية، في الدلالة، على مطلق رحمته، ولطفه، تبارك وتعالى بنا.

وإن قلت: وكيف قلت إن هذه الألطاف الربانية، وإنما تخيم علينا، وتظللنا نسائمها، وسحائبها؛ من مقتضى أن ربنا بنا لرؤوف رحيم، وأنت تعلم، وتدرك، وترى، وليست هذه الحيثية، بحاجة إلى كثير بحث، وحين قد أعدت النظر، مرة، أو مرتين، بل ومرات أخر! وحين قد عمتك هذه السحائب، من الرحمة، والألطاف الربانية، وفي كل شأن، وأيما كان هذا الفرد، مسلما كان، أو غير مسلم! وإنما تكتنفه هكذا ألطاف رحمة ربه، وعنايته به، وكفالته، وحفظه، تبارك وتعالى. وحين قد وقفت على قول ربك تعالى ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنبياء:٤٢].

﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم**﴾؟ كلكم! مسلم، أو كافر، ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم**﴾ كلكم! ﴿**بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾! فأنت نائم، محفوظ، بحفظه، وأنت قائم، أو مستيقظ، معتنًى بك، ومراعًى!

وهناك قيوم، اسمه، الحي، القيوم، يلطف بك، حين نومك، وحين يقظتك.

وأكرر، وأقول، وأردد! كم من حالة، وحادثة، وواقعة، قد تعرض لها، وبها، أحدنا، من حياته؟!

وإذ كانت ألطاف عناية ربه به، لتنقذه!

وكم كانت شآبيب رحمة ربه به، وحين تلقفته، ولئن جاز القول، وانقاذا، ومن غير استغاثته! أستغاثه! ومن موجب هذا، وسواه، وكم نحن بحاجة إلى رفع أكف ضراعتنا، ليل، نهار، لربنا، وحده، تبارك وتعالى!

وانما وحين قد اغمضت طرفا، سهوا، أو نسيانا، أو حتى عمدا، وإنك لتجد أن هذه الألفاظ، وتلك المفردات، قد أنقذتك، إلى بر أمانك.

وأكرر أيضا، وكم من حدث تعرض له أحدنا، وإن بغير إعمال عقله، بل وبلا آلة منه، وإذ تخيم عليه هذه السحائب الرحمانية، وتحوطه تلك الشآبيب الرحيمية، من لدن هذا الرحمن الرحيم، تبارك وتعالى. فتعلو به عن مكامن الخطر، وعن مظانه أيضا.

أذكر يوما كنت صحبه أخ لي في الله تعالى، وإذ كنت أقود السيارة، وإذ جوبهنا معا، بسيارة قادمة، وجها لوجه! وكيف لك أن تفعل، وحين تتقابل وجها لوجه بسيارة! ولربما كان السائق المجابه في حالة، ليست هنية، وإلا ولربما ما فعل ذلك! وإلا أنه يفعل ذلك اضطرارا؛ كيما نستخرج نحن هذا اللطف بنا، من ربنا.

وحين كان بنا الرحمن رحيما، والذي حدث مع هذه المواجهة، وكلنا بسرعته، في طريق ممهد، معبد، ليس به مطبات، ولا منحنيات، قد تعوق سير أحدنا!

ليأخذ مقود السيارة، يمنة، قليلا، ثم اتجهت السيارتان، في سبيلها، في خط مستقيم! في سرعه خاطفة!

وإلى الآن لست أدري كيف تم ذلك! وإلا أن الأخ باركه مولاه، وكل مريد خيرا، قال: يا شيخ، قلت له نعم، قال: هذه ليست عبقرية منك- وأنا أعلم بطبيعة الحال- هذا لطف ربنا بنا، ثم أضاف إضافة، يقشعر منها البدن، قال لا أنا، ولا أنت كقائد، ليس من مكنته، أن يتصرف هذا التصرف! قلت له: كيف؟ قال: هذا شيء آخر، ربما لم يكن أنت، هو الذي أخذ بهذا الانحراف، اليميني قليلا! وليس كثيرا! حتى لا تنقلب السيارة بنا! ثم تأخذ السيارة طريقها المستقيم!

أنا أقول: ليس هذا حدثا قد حدث لي وحدي، نحن نعيش هذه الأحداث، ليلا نهارا، وكيف قد تنزل بك ملمة، أو حاجة ملحة، أو ضرورة ملجئة، قد بلغت حد الإلجاء، والاضطرار، وإلا أنك تجد نفسك، وكأنما قد تلقفتك مظلات ربانية، دفاع- مدني- رباني! يخرجك بطريقة، لا علاقة لك بها، ولا خبرة ولا دربة لك بها أيضا! فتنقلك من مكان الخطر ومظانه! إلى حقيقه الأمن وواقعه!

ومن كمثل هكذا خلل معيشي، أو حادثي، أو ألم، أو مرض.

وكلنا ذلك النفر، وإذ ليس وقفا على أحدنا دون أخيه.

وأكرر قول ربي تعالى ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾.

وكذا قوله سبحانه، الله، عز وجل، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩].

فإن هذا الطير نراه! يطير في السماء، وحين يقولون يرفرف، أجل أن يأتي، ويحوز، الهواء! ولأن الهواء غني بغاز الهيدروجين، ذي الكثافة، القليلة، المنخفضة، فيعمل على رفع الطائر، أو الطائرة، إلى أعلى! فلا تهبط!

وهذا تأويل طيب، ولما يأت، فبقى الإعجاز الرباني.

وهكذا يقول لك ربك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، وها هي إذ تلمحها، تروح واقفة، بالسماء! هكذا، وتشوفها أنت، ويراها كلنا! ومن غير ما ترفرف! تروح صافة أجنحتها! واقفة، لا حراك لها! وهي ثابتة في السماء! لا تسقط!

ولذلك؛ قد كان حريا بنا، أن نقف على هذه الألطاف.

ولكن ربنا تعالى، قد ساعدنا، ويسر لنا، وقال لنا: إن كنتم قد عجزتم أن تدركوا الكنه، والمعنى، فها أنا ذا أوقفكم عليه، وبقولنا هذا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، ما يمسكهن، ونكرر، ليست هنالك رفرفة؛ لتجيب الهواء، أو تحضره، أو تأتي به! ليرتفع الطير هكذا لوحة تصويرة معجزة في جو

السماء! ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾، لماذا؟! لأنه تعالى ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾!

ونقف عند اختيار اسم الرحمن، ها هنا؛ لنربط بينه، وبين قوله تعالى ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ وكيما نعلم أن تسيير هذا الكون، بما فيه، مما منه قد علمنا- وهو الأقل- ومما منه قد جهلنا- وهو الأكثر- وإنما هو مسير؛ من ألطاف اسمه تبارك وتعالى، ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

هذه الألطاف بعيدة، كل البعد، عن ما يسمى بالانفعال الداخلي، والفرق بينهما، أن اللطف الرباني، لا دخل لك فيه، وأما الانفعال الذاتي، فلربما كان قد تحرك في داخلك تفاعل، مع الحدث، ليلزمك إلزاما، وليضطرك اضطرارا، و ليلجئك إلجاء، وإلى أن تخرج من مكامن خطر ما، ومظانهن إلى بر أمانك، وأمنك، وسلمك، وسلامك.

يمكن أن نقول يمكن إن هذا الانفعال أيضا رحمة، وإلا ما تولدت فينا هذه الرغبة الشديدة، نحو فطرتنا إلى جلب المنافع، ودفع المضار، ردها أيضا إلى أنها لطف من ربك عز وجل.

وإلا أننا وقد علمت وأيقنت، وعند وقفت على خبر قارون، وعندما تجرأ، ومن قوله تعالى عن هكذا طاغية ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ

وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٩-٨١].

لأنه قد ظن أن له إفلاتا من هذه الرحمانية، الرحيمية به، وحين قال له ربه تعالى **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾** [القصص:٧٧].

فالذي آتاه هو ربه ومولاه، وكانت هذه الحيثية سببا مقنعا، أن يقف أحدنا عند حده، وليعلم أن ما قد جوزي به، أو منحه، أو منَّ به، أو تفضل به عليه، وإنما هو كله من سابغ رحمته ورضاه ورحمانيته ورحيميته سبحانه.

وأما حين يتجرأ عبد ما، ويقول، أو يشعر، من دلالة نفسه، وحين **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي...﴾**. فذلكم داء ووبال.

وأنت تعلم، وترى ،كم كان امرؤ حاذقا في الطب، ولم ينفعه حزقه، وعلمه، وطبه، وحين قد ظن، ظن السوء أن له ومن مكنة هذا العلم، وأن يسير سير قارون، وأن ينهج نهجه.

ومنه فتراه متخبطا، حيران، مضطربا، آناء الليل وأطراف النهار، وأنه لم يتعلق بحبال الرحمة، وشآبيب الرحمانية، وسحائب الرحيمية الربانية الكريمة اللطيفة.

وكم كان حريا من كان هذا شأنه، أن يرد النعمة إلى منعمها تعالى.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. هذان اسمان حسنييان، وهاتان صفتان حسنييان، قد اشتقتا منهما، أو هذه صفة الرحمة، وحينما استقيناها من هذين الاسمين ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأكرر، ومن دون فاصل تراه بينهما! وحين تستشعر بهذا التركيب الرحيمي، وهذا التضاعف الرحماني، الذي يلفك، ويحوطك، بسياج رحمانية ربك، الرحيم بك.

وهذه الألطاف الربانية، وإنما نشعر بها، يقظتنا، ومنامنا.

وإن قيل: كيف قلت، ولربما كان أحدنا في ضائقة ما، صحية، مالية، علمية، وكثيرا ما يأتيه لطف ربه، ومن نومه، فيرى رؤيا بها سببا، ومن فضله تعالى، تحل مشاكله.

وهذا واقع، كلنا نعيشه، وحين نرى من رؤيا، ترياقا لأدوائنا، وأوجاعنا وأحوالنا، ومن حال يقظتنا أيضا. وحق لعبد منيب، أن يسند إليه تعالى، فقهه، وعلمه.

وهذا الذي حكاه الإمام الفخر الدين الرازي رحمه الله تعالى وحين قال: وقال جالينوس: إن طحالي قد غلظ فعالجته بكل ما عرفت فلم ينفع، فرأيت في الهيكل كأن ملكا نزل من السماء وأمرني بفصد العرق الذي بين الخنصر والبنصر(١).

ونحن نرى كثيرا أيضا بأعيننا، وحين نذهب إلى أطباء حذق، فيمسك بأناملك، أو يفتح عينك، أو يقول لك: أخرج لسانك، يشوفها جميعا، ولما

(١) تفسير الرازي، الرازي: ج ١ / ٧

كانت لديه، وعندهم أمارات، ودلالات، يعرفون منها من مظهر اليد، أو لون العين، أو اللسان، فيستكشفون شيئا ما تشخيصيا، فيصف لك منه.

وهذه حقيقة، يوقف عندها حق الوقفة، ولنعلم مدى هذه الألطاف. وحين نقف على هكذا مادة الإسبرين؛ دواء للصداع مثلا!

وهذا شيء بسيط، نراه بأم أعيننا، ليل نهار، في حياتنا.

وهذه المركبات الهيدروكربونية كلها، من أوقف الناس على هذه الحقائق، المعجزة، المبهرة، وهذه ذرة كربون واحدة، بينها أربع روابط من الهيدروجين، أحادية مرة، وثنائية مرة، وثلاثية مرة...، ليعطيك هذا كربونيلا، أو ميثاننا، أو إيثانا، أو ميثانولا، أو ميثيلا...إلخ!

وفي هكذا مشهد، ليس من موجبه إلا القنوت والإخبات.

ولما كان اختلاف البنية التركيبية لهذه الكربونات، متصلة، حلقية، متفرعة، كل هذا لطف من ألطاف ربك، وحين هداك إليه؛ لتستخرج، وتستكشف، بعونه، ولطفه، وجوده، وإكلائه لك، وحفظه، ورعايته.

وهكذا كان اختلاف حرف مكانا ووجودا مؤديا إلى هكذا إنتاج مركب آخر تماما! ولسنا نقول أمام ذلكم وضع وإلا: سبحان الله تعالى ربنا الحق المبين.

وسبحان ربنا تعالى القائل أيضا ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [الزخرف:٣٢].

وهكذا يسخر ربنا تعالى بعضنا بعضا؛ كيما نتساعد، ونتعاون في إعمارها هذه البسيطة، وكل مما قد من به عليه ربه وأولاه، ومن موجب قوله تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾ [الفرقان:٢٠]. ومن مقتضى قول رب العزة والجلال: ﴿**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

فصل

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]. (١)

وقوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة:٤]. هذا هو شأن القرآن العظيم، وحين أتى ببيان كهذا. وإن الله تبارك وتعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

والوقفة ها هنا، بل الوقفات، ومنها، هو ذلكم استحضار هذا الطمع، والرجاء، فيما عند ربك الرحمن تبارك وتعالى.

ويكأن المعنى يتخلله، هو ذلكم الرجاء، والطمع فيما أعده ربنا الرحمن تبارك وتعالى، من نعيم مقيم، وحين كان ذلك مستتبعا لادخار تسعة وتسعين جزءا، من رحمته تبارك وتعالى، لأولاء العباد المساكين، ويوم يلقون ربهم، فرحين.

هذا معنى يشيع في الوجدان هذا التعلق بيوم الحساب أكثر، وهو الذي يشي أيضا بانتظار الجزاء على الأعمال أوفر وأعز.

وكما قد حكينا، ولأن الله عز وجل، وحين ادخر تسعة وتسعين جزءا؛ من رحمته؛ ليرحم بها خليقته، من إنسه، ومن جنه، يوم لقائه، فكان هذا الاستشراف الذي نستشرفه، من قول ربنا الرحمن عز وجل ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

وأنت إذ تستحضر ذلك، وإنما تستدعي معك أيضا هو ذلكم الخوف، والرجفة، والرهبة، مقابل ذلك الطمع والرغبة.

وكما قد رغبت فيما أعده الله تبارك وتعالى للمتقين، من نعيم، مقيم، في جنات النعيم، وهذا يدفعك دفعا، إلى العمل الدائم، المستمر، غير المنقطع؛ لأداء ما أوجب ربنا الرحمن علينا، من طاعاته، وتحصيل، وتحقيق أوامره، والانتهاء عن نواهيه، وزواجره.

وهو أيضا ذلكم الذي ينم عنه، وهو ذلك استحضار هذه الخشية، وهذا الخوف، وهذه الرهبة أيضا.

ومما أعده ربنا الرحمن عز وجل، القهار، الجبار، لهكذا صنوف من العذاب.

ويكأنها، وحين يستحضر معها فقط، كلمة نار، وهي هذا المخلوق الذي نرى منه اتفاقا في الاسم، ودون المسمى، على حقيقته، وكنهه، وعظمه، يوم لقاء المولى.

وإذ كان ذلك الخوف استدعاء أيضا لمناجم الخير، ومكامن الهدى، في النفوس.

وكيما لاتطغى، أو تتكبر، أو تتعاظم، فتخمد ناصيتها، وأزيزها، وأجيجها أيضا.

وحين ذلكم، فينبت زرعا، زاهيان مثمرا، غدقا. كان منه هو ذلك التعلق برحمة ربك، العزيز، الوهاب.

وزيادة الانتظار، وإنجاز التعبير، في تألق تعبدي، يشي بانتظار هذا.

وإذ يكون في حس المؤمن، ألا ينتظر من ربه إلا خيرا.

وهذا هو مطلق إحسان ظننا بربنا الرحمن عز وجل.

وحين قد لف هكذا إحسان الظن برب العزة والجلال، بلفائف الهدى، والتقوى، والطاعة، والمعروف.

والانتهاء أيضا عما يمكن أن يسمى، أو أن يدعى منكرا أيضا.

ولتجتمع من هاتين الجهتين: فعل المأمور، وترك المحظور، وهذا الذي يمكن منه أن يكون قمنا بتحقيق إحسان الظن على وجهه بهذا الرب العظيم المتعال، مالك يوم الدين.

﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾: ويكأنك تستشعر خصوصية، من هذا السياق اللفظي، وحين يمنحك هالة، عظمى؛ للفرار إلى هذا الرب العظيم؛ بملكه يوم الدين!

واذ ليس يشاركه فيه أحد غيره.

دلالة هذا اللفظ، الذي ليس يشي الا به كون ملك تام لهكذا يوم الدين!

ونستشرف من ههنا أيضا، معنى جليلا، عظيم الشأن، واسع العطاء، والمن من الله تعالى، ذي العطاء والمن، والخير، والجود، والبركة.

وأنت اذ تستشعر هذا المعنى، فإنما يلفك برداء الطمأنينة، ولباس الأمنة!

ولما كان ربك الرحمن عز وجل- وحده- هو المنوط به، هو ذلك ذلكم يوم الدين، وحده.

وأنت، ونحن، وكيف يمكن أن تتداخل الأضداد، في مسألة قضائية، معروضة أمام ذوي الشأن، ولربما كان أحدهم الحن حجة من أخيه فيقضى له.

وهذا الذي نص عليه حديث نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، وحينما قال: إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار. [صحيح البخاري: ٧١٦٩].

ومنه فلا يأخذن أحد، إلا ما هو له، ولا يدعن أحد، وإلا ما كان ليس له.

وأنت في هذه الدائرة' وإن أنت إلا في طمأنينة، تامة تامة. يوم لقاء ربك.

واذ لا قول، ولا مجال للقول، بأن أحدنا، أو أحدا من الناس ألحن حجة من غيره!

ولأننا أمام قضاء عدل.

ولأنك أمام قسطاس مستقيم.

بل، ولأن ألحن حجة من أخيه، لا محل لها من الإعراب، في ذلكم اليوم!

ولأنه: يوم تنطق عليهم السنتهم وايديهم وارجل وارجلهم بما كانوا يعملون، وكما قال الله تعالى ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور:٢٤].

فأنت خلي، عن جوارحك، الناطقة، عنك، وعليك.

وبما قد أسرفت.

ومنه أيضا يستحضر هذا الخوف، وهذا الوجل، وحينما نقرأ مرة أخرى ومرات أخر أيضا قوله تعالى: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

لأنك، وفي هذا اليوم، وإن كنت أمام قضاء عدل، وقسطاس مستقيم، نحيت فيه، وخليت عنه، لحن الحجج، ودقة البيان، وسحره، وبلاغته!

وإلا أنك محصور بين يوم تشهد عليهم، أي: يشهدون عليك جوارحك! ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

هذا الاستحضار، وكما أنف، وكما قلت، يشي بأمنك، جد الأمن، يوم هذا اللقاء المحتوم.

وحين أيضا قد استحضرت، هذا الجزاء العدل، وهذا القضاء السمت، وهذا القسطاس المستقيم، بين يدي ملك الملوك.

وكما قال الله تعالى رب العزة والجلال سبحانه وتعالى ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر:٦٧].

وحين قال نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض([1]).

ولأن الملك، في غلبته، مظنة الحيف، ودالة الجور، وعلامة الظلم، وبرهان هذا الذي يمكن أن تستشعره النفوس، من كبوتها، ومن ذلها، ومن إخضاعها، ومن حزنها، وحين تغلب على أمرها.

وكما هو حادث، قائم، كائن، في دنيا الناس.

---

(١) صحيح البخاري: ٧٣٨٢

ولكن ربك عز وجل، أراد أن يشيع في فؤادك الأمن والطمأنينة، وحين كان من وصفه تعالى أنه يقبض الأرض، وعلى كيفية يعلمها هو وحده، لا سواه.

وحين تطوى السماء بيمينه، وعلى شأن، وكيف، يعلمه سبحانه وحده أيضا.

ومن مقتضى قوله سبحانه وتعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١].

فيبعد بذلك عن التشبيه، والتمثيل، والكيف، والتعطيل ايضا.

ولا يفعلن فعلا، بما يشي بتقريب، كان منه هو ذلك التمثيل، أو تمثيل لمعنى الطي.

ولأن كل ما يفعله مخالف لحقيقته، وإن إنك أمام قدرة ربانية، تقبض الأرض قبضا.

وهذا الذي تقف عنده، وتطوي السماء طيا.

وهذا الذي ترهب منه، وليس لك أن تحيد عنه، يمنة، أو يسرة. حول تأويل لذلكم قوله تعالى الآنف ذكرا. وكذا قول نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الآنف ذكرا أيضا.

هذا المعنى يبعد عنك، أية دعة، وإلا من عدل. وأي ظن، وإلا من قسطاس.

ولأنك قد خلي عنك ملوك الأرض، ومن حاشيتهم، ومن مواكبهم.

وحين خُلُّوا هم أيضا- كلهم- عن هذه الحواشي، وتلك الحاشية، وهذه المواكب، وهذه الركبان، ويخلون بين يدي عظيم، كريم، قدير، جبار، قهار، متكبر.

وليأخذ من كل ظلمه، فيرد عليه كساء من نار، وثوبا من سعير.

وهذا الذي تستحضر منه الرهبة، وتكون منه الخشية.

وألا يحاولن أحد أن يلج نحو هذا الملك الدنيوي، وهذا السلطان الزائل؛ ولأنه سوف يسمع: ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر:١٦].

ولأنه سوف يسمع: : أنا الملك أين ملوك الأرض.

وإذ كان هذا المعنى، مستحضرا، بدقائقه، وجلائله، ومعانيه، وفحواه.

وإنما في هذه النسبة، الكبيرة، العظمى، من حث الناس- جميع الناس- أن يكونوا على السواء، وأن يكونوا على الصراط، وأن يكونوا على الجادة.

فيخافون ظلما، ويهابون جورا.

ولأن مقدمات يوم القيامة نفسها، ومن نوم مصفح على الأرض، في باطن قبر، وملفوف بثياب، اسمه الكفن، ولينظره الناظرون، وليشهده المشاهدون، ثم إدراجٌ في لحد، طوله على الأكثر متران، وعرضه على الأكثر نصف متر!

هذه مقدمات، توجب رهبة، وخوفا، ووجلا، وخشية

ولما كان هذا المصير مرسوما بين أعيننا، وان نراه كل يوم غير مرة، وما بالك ب ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾؟!

هذا الانفراد لله تعالى، على أن يأخذ كل نفسه، على أهبه الاستعداد، لهذا اليوم الأجَلِّ، الأعظم.

وحين لم يكن فيه إلا قاض واحد.

ولكيما تزاح السواتر، والحواجب، والموانع!

وكيما يقف الناس على يقين العدل؛ وإنما يوم تشهد عليهم ألسنتهم، وايديهم، وأرجلهم، بما كانوا يعملون!

فليس هناك محاماة، وليس هناك رشا، وليس هناك إلحان حجة، أو أن أحدا ألحن حجة لدى أحد.

لا عبد، ولا سيد، ولا مولى، ولا قيم، ولا رئيس، ولا مرؤوس، ولا قائد، ولا مقود!

وإنما، ولا مالكن ولا مملوك، ولا مطاع، ولا مطيع، إلا هذا السوق، الأجل، الأقوم، الأعظم.

وحين تستحضر أنت هذه الأبهة، وهذه العظمة، وهذه القدرة، وهذا الملك، وهذا الملكوت.

وأنت إذ تستحضر كل ذلك، ما استطعت إليه سبيلا، وحين تلاوتك قول ربك تعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾؟!

فصل

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]. (٢)

وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؟! فإن هذه آية، وكما قد رأينا، مؤلفة من ثلاثة أفراد، أي ثلاث كلمات.

وهذا هو الإعجاز الرباني، وحين تختلف هذه الكلمات، التي هي أجزاء، فإن كل كلمة جزء مستقل؛ لتكون هذا الكل! لذي أسميناه آية!

وكونها آية مستقلة، محبوكة، مرتبطة، متضامة، تحكي هذا العز، وهذا الجبر، وهذا القهر، لربنا الرحمن سبحانه وتعالى.

وكيما نقف على هذه الحقيقة الأزلية، السرمدية، الأبدية، ومن إحقاق سلطانه تبارك وتعالى، ولما خلق، ولما برأ.

وكان هذا السلطان، ويكأن هذا السلطان، وإذ يحكي- لنا معاشر البشر- لا جناحا واحدا، بل جناحين! هما: جناح رحمته، وجناح عزته.

وانت قد استصرفت هذه الرحمة، ومعانيها، ولما كان قد مضى منها، ومن هذه المقدمات، التي أنفت، وسلفت، وسبقت.

ومما أنف ذكره، منه أربع إيرادات لمفردات هذه الرحمة: في البسملة مرتان. وهكذا ومن قوله تعالى وسبحانه (بسم الله الرحمن الرحيم)!

ثم في آيات أخر، مستقلة، يأتي هكذا أيضا ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم يأتي بعدها حكاية هذه السلطنة، وهذه العزة، لربنا الرحمن سبحانه.

وكيف نقف على هذين الجناحين؟

وحين قد بسط ربنا الرحمن عز وجل بساط رحمته على كونه كله!

وحين أيضا كان من عزته، وقهره، وسلطانه، وتفرده، بهكذا الملك الموجب، والمستدعي، بل والمستلزم لأمره تعالى، ونهيه أيضا.

وهذا هو مطلق توحيدنا لربنا، وهذا هو معنى تعبدنا لربنا، تبارك وتعالى.

وحين قال ربنا الرحمن، وأمر، ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء: ٣٦].

وهكذا، بهذا الأمر الحاسم، الحازم، الجازم.

أي خلوا عن أنفسكم، وعن ذوات عقولكم، وأذهانكم، وتخيلاتكم، انخلعوا من كل ذلك.

وقفوا عند مقتضى قولنا، وأمرنا لكم، ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾، أي أن: أمرنا وحده، هو ذلكم الذي كان واجب النفاذ، وكذا نهينا وحده هو الذي له حق وجوب هذا النفاذ أيضا.

وإنما، وما قد ينتجه عقل ما، ومن هذه التي تسمى عقلانيات، أو ذهنيات، ، أو خيالات، كل ذلك وإنما تطرحوها!

فإن الله عز وجل، لم يهمل عقولنا، ولم يهمل العقلاء.

لأنه الله تبارك وتعالى، أعز، عن ذلك.

ولكن ربنا عز وجل، يعلم وسواس هذا الشيطان الرجيم، الذي أقسم يوما، ومن قوله تعالى عنه: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الأعراف: ١٦].

ومن خزيه، أنه أسماه الصراط المستقيم!

ولما كان هو الصراط المستقيم! فلماذا تقعدن عليه أيها الشيطان الرجيم ؟!

لماذا وهكذا تنفثن سمك الناقع علينا معاشر البشر المساكين؟

ولهذا السبب، تتلقفنا، وتتجاذبنا، هذه العناية الربانية، ومن ضير هذه الوسوسة الشيطانية!

وهذا إعجاز! وكما أقول وأكرر، فإنه هو ذلكم الشيطان، ولما قد أسماه الصراط المستقيم، وهو ذلكم الذي لا عوج فيه!

إذًا، حينما يقول الشيطان ذلك. فنحذر وسوسته إذًا.

لأنه شهد بالحق، شهد شهاده الحق، وإن صراط الله، هو ذلكم الصراط المستقيم، أي الذي لا عوج فيه البتة.

ولهذا السبب، فلما أقول، وأذكر، ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، فإن هذا الملك، وحين نقف عند هذه الآية، وقفات ثلاث: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، نستحضر هذا المالك، وكما قلت من استحاضر جناحي الرحمة والعزة.

فان ربك تعالى، وإذ كان بك رؤوفا رحيما، وكفاك أنه قد بسط من مائة جزء رحمة، جزءا واحدا في الارض؛ يتراحم به الخلائق، وحين كان منه أن تنزع الدابة حافرها عن ولدها، ومنه أن تلقمه الأم ولدها ثديها، لفلذة كبدها.

ومنه، ومنه، ومنه، ومن هذه الدالات الرحيمية، العظيمة.

وإلا أنه سبحانه قد ادخر تسعة وتسعين جزءا لنا- معاشر البشر- يوم قيامته، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إن هذا البسط لهذه الرحمة، وإن هذا البسط لهذا السلطان، هما اللذان، يشيان بقوله تعالى، ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، ومما أنف كثيرا.

وقلت: إن تفرد رب العزة والجلال بأمره ونهيه؛ إكرام لنا، وحين لم يدع غيرنا، يحكم سيطرته، وقبضته، على رقابنا. فيذلنا، ويمرغ انوفنا في التراب.

وحين قد جعلنا الله تبارك وتعالى؛ ومن مقتضى خلقته، لنا، أعزاء؛ ومن ديننا، ومما ندين به، لربنا الرحمن عز وجل، بالوحدانية، والعبودية.

وهذان هما الجناحان، وهما المقتضيان لهذا الملك، لربنا الرحمن عز وجل.

والله عز وجل في علاه، وحين قال ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، وإنما قد استوقف الناس أنفسهم، عند هكذا قوله تعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ أيضا؛ لكي تعلم أن الملك له، ملك السماوات والارض. وما بينهما.

ولهذا السبب أنت تستحضر هذا المال، وحين يقول لك ربك، ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ [الحديد:٧]. ويكأنك مستخلف على كل شيء.

ولئن كان في ظاهره، أنك قد ملكته، هي هكذا ابتلاء منه تعالى، ورحمة من الله تعالى بك أيضا.

ولكنه يعود قوله تعالى بك أيضا ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾، فدل على استحضار هذه الملكية، وهذا الجبر لربك تعالى. وكما قلت رحمة بك.

بين مالك وملك: وحين وقف الناس عند قوله تعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، ولما كانت هنالك قراءة(مالك)، وقراءة (ملك)، وكلتاهما قراءتان، ثابتتان.

فدل على هذه السعة من ديننا، وحين اختار جمهور القراء قراءة مالك.

وحين قال قوم (ملك)، ومن تصريفاتهم، أنها أربعة حروف، ميم، ألف، لام، كاف.

ومن حيث إن هذا يدل على عظم المبنى، وتعدده، وتراكبه، فدل على عظم المعنى، وتعاظمه، وتراكبه أيضل.

وهذا التصريح، تصريف آخر، وهو تصريف وجيه.

وعلى أية حال، فإن كلمة (مالك)، ولما كانت هكذا مبتناة من أربعة حروف، وإذ نستحضر ذلكم الأجر العظيم، ومن الله تعالى رب العرش العظيم، وحين كان من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى، فإن له بكل حرف عشر حسنات، ومن قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف. [صحيح الترمذي، الألباني: ٢٩١٠].

ومنه هذا.

ولما كانت مفردة (مالك) أربعة حروف، ومما أنف ذكره حالا، وكل حرف لك به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فضربنا في أربعين.

وأما كلمة (ملك) وحين كانت مؤلفة من هكذا ثلاثة حروف. ومن قياس، فكان أولى عنده اختيار قراءة كلمة (مالك).

ومن حيث- ونؤكد- قد ثبتت القراءتان، وإذ يتحصل منه سعة امر ديننا وكما أنه هكذا دين يسر وسعة ورفع حرج أبدا.

غير أنه وعند تصريفات الآخرين لكلمة (ملك)، وعندما اختاروها عوضا عن كلمة (مالك).

قالوا: إن كلمة (ملك) أدعى، وأولى بالاختيار؛ لأن فيها جناحات:

الجناح الأول: هو الموافقة للآية، والموافقة للحديث.

وأما الموافقة للآية فإنه قول الله تعالى﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الحشر:٢٣].

وأما الحديث، فهو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض. [صحيح البخاري: ٧٣٨٢].

فأسمى الله عز وجل نفسه بالملك.

وهنا تصنيف أريد أن أقف عليه.

فإن هذا الملك في الآية، وفي الحديث، جاء معرفا باستغراق الملك والسلطان لربنا الرحمن، مالك يوم الدين.

وها هنا في فاتحة الكتاب، جاءت معرفة بالإضافة.

فإن هذا تعظيم للمضاف، وتكريم للمضاف إليه، وإظهار شأنه، الذي هو اليوم.

فكانت منه أيضا هذه الحبكة البلاغية، الدلالية، من سياقها، وحين تضمنت، أو جاءت هكذا تركيبا إضافيا.

واذ لا يخلو هذا التركيب، من معاني البلاغة، والاتقان، والبيان، وسحره.

ومنه جاء تركيبا قرآنيا كريما، عظيم الشأن، وحين جاء التعبير به وعلى هذا الوجه الرباني المعجز، وهو ذلكم الذي قال عنه ربنا ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

ومرة أخري أقول: ومن حيث قد ثبتت القراءتان، وإنه لا منافاة بينهما، في الحقيقة، وإن جاء اللفظ مختلفا، فغنهما لفظان يشيان بهذين المعنيين.

فإنه لا مالك الا من ملك، وإلا من أمر ونهي.

فإنه يعز، ويندر، بل يحال عقلا، أن يوجد من ملك، وإلا كان مخولا له؛ ومن مقتضى ملكه هذا، ولو ورقة، وإلا كان صاحب أمر ونهي عليها.

وكذا الله تعالى، الملك، وذلك هو ذلك المتصرف، فيما لا طاقة لأحد منازعته فيه. ومن هكذا كون واسع، مترامية أطرافه. وهكذا نراه بينا، واضحا، باديا، ظاهرا، عيانا، ومن أم أعين رؤوسنا ماثلا!

فأثبتنا له تعالى الملك، والمالك، مشتركا.

وذلك هو ذلك المتصرف، ومن قوله تعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

وحين كان من إثباتنا له تعالى الملك، ودالة التصرف فيه، فدل على أنه، وفيما نرى، والله أعلى وأجل وأعلم، أنه خلاف لفظي، وإن كان المعنى بينهما واحدا مشتركا.

ولما كان قوله تعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾. مسبوقا، وبقول ربنا الرحمن: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والدنيا عوالم، والآخرة كذلكم عوالم، ومنها يدخل فيها، هكذا العوالم أيضا.

وحين نقول إنه يدخل فيها هكذا عوالم كلها ومن عوالم الدنيا ومن عوالم الآخرة أيضا، وإذ يمكن أن يبدو سؤال مقتضاه: وإذ كيف يقال إنهم صرفوا هذا؟

وإذ يمكن أن يقال لك أيضا إن هذا تكرار!

ومن حيث كان القرآن، ومن بُلْغَتِه أن يكرر، وأن نعم، وإنما يكرر، بمعنى الإعجاز، والهدف، والغاية.

ومن ثم، ويمكن أن يقال أيضا وإذا سلمنا جدلا، انه يمكن قبول التكرار، ولكنه، وهل يمكن تسويغه، وقبوله، في هكذا التقارب المكاني؟!

وحين كان من قوله تعالى هكذا متقاربا معناه أيضا، وحين قال سبحانه: ﴿**الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وهذه آية واحدة، ثم قوله تعالى ﴿**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، وهذه آية واحجة مستقلة أيضا، ثم قوله تعالى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، وهذه آية ثالثة أيضا!

ولما كان قد قال لك نفر من الناس: إن هذا مسلك يخل بمعنى القرآن!

وأقول لك: إن هذا ليس يخل، بل يعجز! بل يبهر! بل يدهش!

وحين قد كان ممكنا معه أن يصرف هذا على هكذا وجهين:

الوجه الأول: هو وجه هذا التخصيص! ولئن كان رب العزة سبحانه، هو رب العالمين، وان نعم، وإلا أنه خص يوم الدين؛ ولأن في الدنيا جبروت، ولأن في الدنيا ظلمة، وأئمة جور، وحيف!

وهؤلاء وإن رأوا من ذوات أنفسهم، وكما ادعى فرعون، وحين قال ربنا تعالى حكاية عنه ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٤].

وحين قد حسب، وزعم، أنه يمكن أن يفلت، وإنما ليغرق على رؤوس الأشهاد! جزاء وفاقا!

وهذا شأن كل عتو، متكبر، جبار!

وكم حكى التاريخ هذا!

وكيف انقلبت الموازين، على أهليها، وذويها، وأصحابها، وعتاتها!

ويوم ظن سوئهم، أنهم يمكنهم، ومن إفلات، من هذه القبضة، الربانية، على ملكه تبارك وتعالى، كله.

وإذ كان مقتضى القول: أنه وإذا كنتم وحين سولت لكم أنفسكم أمرا وحين كنتم جبابرة الأرض، فقد خصصنا ذلك اليوم، ومن مقتضى قولنا: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، ومما يعني بتملكنا به، وحدنا، وحين يقبض ربنا الرحمن عز وجل الأرض قبضة، تليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، ويطوي السماء بيمينه، بطي يعلمه تبارك وتعالى، ثم يقول: أنا الملك!

وهذه سلطنة ربنا تعالى.

ولكنه فيها: أنه وإن كان هنالكم ظلم، فليس هنا ثمة ظلم، بل عدل، وقصاص، وقسطاس.

ولأننا ومما أنف ذكره، قد أقمنا عليكم، شهداء، من أنفسكم، ومن مقتضى قولنا هذا ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور:٢٤]. **ومن مقتضى قولنا أيضا** ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [فصلت:٢١].

هنا تشهد، وهنالك لما شهدته، والشهادات تكون عن معاينة!

وهكذا، ويكأن ربنا تعالى يقول للناس: نحن لم نكذب، وإنما هكذا قول جوارحكم أنتم! وحين كان قولها: نحن الذين فعلنا، نحن كنا الجوارح، الأيدي، وحين بطشت، والأرجل، حين سعت، سعيها الحثيث، المرير، لتحدي سلطان الله تعالى، في أرضه، وهذه ألسنتهم تحكي لهم الكذب الذي كان منها! أن لهم الحسنى!

وهكذا، وحين افتروا على الله تعالى الكذب، وحين يبدلون، ويغيرون، ويزينون، ويلبسون، وينفثون.

ويكأنهم يعلمون، أن هكذا رب، مطلع، محيط بهم، سبحانه وتعالى.

ومنه؛ فكانت هذه القيومية، لله، ربنا، الرحمن، وحين أفرد نفسه، بملك هذا اليوم، وحده، وإن نازعه غيره سلطانه في أرضه! في دنياهم! فهذا هو الاستفراد، وهذا هو السلطان، وهذا هو الملك!

ومن ذا الذي من مكنته أن ينازعه فيه؟! ومما أنف، ومن قوله تعالى يوم الدين: أنا الملك، ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ**

لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [فصلت: ١٦]. ومن قوله تعالى أيضا ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

هذا هو كينونة يوم القيامة: إن الله سريع الحساب، مالك يوم الدين.

وكلمة يوم هذه ظرفية، تشي بمحدودية الزمن، وتأقيت الوقت.

وأنت ظرف، وغيرك ظرف!

فنحن وحين نعيش يوما يمر، ولربما كان من لمح البصر.

ولما كان من علامات الساعة، هو ذلكم تقارب الزمان. **ومن قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج -وهو القتل القتل- حتى يكثر فيكم المال فيفيض.** [صحيح البخاري: ١٠٣٦]. وكذا قوله صلى الله عليه وسلم أيضا: **لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كالضرمة بالنار.** [صحيح الترمذي، الألباني: ٢٣٣٢].

فهذه الإضافة، من هذه الظرفية، تحكي لنا هذا الحكم، والسلطان، والقبضة، والإحاطة لله تعالى.

وإن كنتم ترون هذه الأيام، التي هي بنظركم، وإلا أن الأمر عنده تعالى، له مقاييس أخر، ومما أنف بيانه حالا.

ولما كان الله تعالى مالك يوم الدين، فدل على أن هذا الملك، من مطلق هذه القيومية، ومن سببها، ومن موجبها.

ودل على هكذا إحكام السلطنة لربنا الرحمن تبارك وتعالى، وخاصة، ولا سيما أنه قد حكى لنا، عن هذا اليوم أوصافا، بل وصفا منضافا آخر، يجود به الذكر، والضمير، والوجدان.

وحين قال ربك الرحمن سبحانه وتعالى: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤].

هذا اليوم ولما كان ممكنا أن يعبر عنه وبقوله تعالى ههنا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وهو ذلكم اليوم الذي يعدل، ويساوي مقدارا خمسين ألف سنة!

واضرب خمسين ألف سنة، من ثلاث مائة وخمسة وستين يوما، وكم يعطيك من عدد؟!

وهذا أمر ووصف حالة، ولما كان وحده يمكن أن يدل على هذه القيومية، وهذه الإحاطة، وهذا الشأن العظيم، لربنا تبارك وتعالى.

وحين كان أيضا، من اتساع هذا اليوم، مما يمكننا أن نستحضره، وإلا فقد كان يمكن لربنا تعالى أن يأذن بحساب الناس ذلك اليوم. هنالك اليوم. ومن قوله تعالى: كن، فيكون!

ولكنه تعالى أتى بهذا اليوم الظرفي، ثم استحضرنا نحن، أنه لا كمثل بل هو مقدارا بالغ خمسين ألف سنة!

لتتوج عقيدتنا بهذا الاتساع، وهذا الانفتاح، لعدل هذا الرب العظيم، الفتاح، سبحانه وتعالى في علاه.

وحين قد أفسح مجالا، وحين يقولون: وقد قالوا لجنودهم: لما شهدتم علينا؟! وهكذا أيضا في إفساح مجال للمداولة!

لكنها مداولة، وإذ ليست ومن حضور محاماة!

وإلا أن يفسح المجال، لهذه الجوارح، التي- هي- أذنبت، وأثمت، وفسقت، وشردت، وخرجت عن الجادة.

﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾، هكذا: بما شهدتم علينا! ويكأنهم قالوا: نحن ما لدينا سلطان! على أنفسنا!

اليوم، ﴿**قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾، هكذا، وكان، ويكون حكما، نهائيا، باتا، واجب النفاذ، والتنفيذ معا.

وهذا فيه استحضار لكم معاشر العبيد، أنها وهذه هي عظمة ربكم، تبارك وتعالى.

وحين كان من شأنه تعالى، أن يأتي بهذه الظرفية، التي فيها هذه المحدودية الزمانية، والمكانية أيضا.

وبرهانا على هكذا عظيم سلطانه تبارك وتعالى أيضا.

ومن منظومة تحكي هكذا إخباتا، وخوفا، ووجلا أيضا!

ولكي يستصحبك أيضا إلى أن هذه الظرفية، لا بل إن أمدها واسع، ممتد، فسيح.

ولأن هذا اليوم بخمسين ألف، أي مقدار خمسين ألف سنة! لتستحضر معك هذه العظمة، وهذه القيومية ايضا.

وهذا العدل، والقسطاس الرباني، وإلا كما، ومما أنف أيضا، كان يمكن أن يحاسب الله تعالى الناس، ومن قوله تعالى: كن، فيكون!

وإنما هذا فيه استحضار للسببية، أن يتخذ الزمان، وقتا فسيحا، فاسحا، منفسحا، للمداولة، بين الجوارح، وبين ذوات أنفسها.

وحين ينتصب الرب عز وجل، هكذا بقسطاسه، وعدله، تبارك وتعالى، وليقول الشهود ما يقولون! ثم يحكم الله أمره، ومن خلال ما قد شهدوا على أنفسهم.

فصل

حسن المطلب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. (١)

وعبادته تعالى مقصوده من خَلْقِهِ خَلْقَهُ. ولا تكون إلا على أساس شرعي خال من الابتداع ناء عن إعتمالات العقول، ومآلات الظنون. وإنما من وحي لا تكون معه إلا صافية، ومن نص لا تشوبه معه شائبة.

وليس يكون ذلكم إلا اتباعا لرسول، أخبره ربنا الرحمن خبره عن مسالك العابدين، ومدارج السالكين لربهم الرحمن سبحانه، أو انتهاجا لقول نبي أنبأه الله تعالى خبرا عن أولاء المخبتين.

ومنه كانت العبادة توقيفية، لا مجال لإعمال الرأي فيها.

ومنه أيضا كان لزوم الرسالات كيما لا يتأتى لمتقول قول، ولا يبقى لزاعم حجاج.

وما وقع في الناس من بدع إلا لسبب عدم علمهم بذلكم أصل. أوقَلَّ اهتمامهم به، إن شئت فقل.

وقوام ذلكم الأصل، أن الناس مربوبون لربهم، وهو سبحانه وحده الذي يعلم صلاحهم، فدلهم عليه، وهو سبحانه وحده الذي يعلم فسادهم فنهاهم عنه. بعد أن قد بينت شريعته أسباب الصلاح دقها وجلها، وكذا ما أبانته من مسببات الفساد، فأبانته أطلق بيان، إراحة للأذهان، وتيسيرا على الإنسان!

لكن الإنسان هو الإنسان! أبى إلا أن يحشر نفسه فيما قد كفاه الله تعالى مؤنته! ذلك لأنه سوف يكون كحاطب ليل فيجمع غثا بسمين، ويخبط بينهما خبط عشواء، فلا هو قد اهتدى، ولا هو نفسه قد كفى ما قد كُفِيَهُ؛ لينهض؛ أداء لرسالته المرسومة، عبدا، موحدا قائما بالحق، وبه يعدل. ذلكم الحق الذي قد أبانته الشريعة، وذلكم العدل الذي قد فصلته الديانة.

وعبادته تعالى بدليل. ومن أجل ذلكم أرسل رسله، وأنزل كتبه، رحمة بالعباد.

ومنه لا يسوغ ادعاء بجهالة كيفية العبادة، ومقصودها التوحيد، كما أنه لا يسوغ أيضا زعم بسلوك سبيل التنكب والابتداع.

وتقدمة الثناء على الله تعالى ضرورة. إذ كان أدبا معه تعالى أن يتقدم ثناؤه على دعائه. فذلكم قمن أن يستجاب لعبد قد انطرح بين يدي خالقه تعالى، راجيا رحمته، ومبتغيا هداه. كما في قوله تعالى (**الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**)[الفاتحة:٢-٤].

ومنه أفيد تقدمة ثناء على المخلوقين؛ ائتلافا لنيل المرغوب، أو دفع المرهوب.

وتقدمة الثناء، والانطراح بين يديه تعالى إنما يكون بأسماء الرحمة والثناء والجمال ومنها (الرحمن، الرحيم، العفو، الغفور)،لا بأسماء الكبرياء والجلال ومنها(العزيز، الجبار، المتكبر).

ومنه أفيد ذكرا حسنا لمن كانت لديه حاجتنا، وثناء جميلا لمن نخاطب. فذلكم أدعى للتأليف، وهو قمن بالجواب بإذن الله تعالى.

وتعداد أسمائه تعالى، وتضافر دعائه بها أقوم. وتكاثر الذكر بها أرجى لإجابة الرب الرحيم عبده. ألم تر أن الله تعالى قدم بذكر أسماء (الرب - الرحمن - الرحيم).دليلا على اللهج بها أمام بابه، والانطراح بذكره بين يديه سبحانه. ليجيب بذلكم مضطرا، أو أن يغيث بذلكم ملهوفا؟!

والتوسل إليه تعالى بعبوديتنا له أرجي للقبول، وأدعى للإجابة. كما أن توسلنا إليه تعالى بأسمائه وصفاته دال على كمال الصدق في الطلب، وصدق الانطراح بين يديه سبحانه.

والهداية أسمى المطالب، وأعلى الرغائب. ومنه تقدم ذكر ثنائه تعالى على طلبها، والدعاء بها.

وإنما تقدم بين يديها ذكر اختصاصه تعالى بالعبادة، وبيان تخصيصه تعالى بالاستعانة به وحده.

وليست التقدمة بالثناء كانت بكافية إذن. وإنما لزم تدعيمها بإجراء عملي. وكان ذلكم الإجراء العملي هو اختصاصه تعالى بعبادة العبد له، وكذا استعانته به تعالى وحده، إمعانا في توحيده، وإمعانا في صدقه فيه معا.

وما كان لعبد أن يعلم ذلك من تلقاء نفسه. فلزمه إذن الدليل ووجب في حقه ذلكم التنزيل، بإلهامه أن يقول(**الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**)[الفاتحة:٢-٧].

فصل

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢)

قوله تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: هذه هي الآية الوسطى، في سورة فاتحة الكتاب.

وهي من ذلكم الذي قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خبرا عن ربنا الرحمن تبارك وتعالى: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: {الحمد لله رب العالمين}، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرحمن الرحيم}، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: {مالك يوم الدين}، قال: مجدني عبدي، وقال مرة فوض إلي عبدي، فإذا قال: {إياك نعبد وإياك نستعين} قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**. [صحيح مسلم: ٣٩٥].

والحاصل أن هذا التعبد لله تبارك وتعالى، وإن هذه الاستعانة به سبحانه، وإنما كان مقصود رب العزة والجلال، أو مقصودا من خلق ربنا الرحمن تبارك وتعالى، لعباده، أن يعبدوه، وحده، لا يشركون به شيئا.

وهذا من مقتضى قول ربنا الرحمن تبارك وتعالى أيضا، ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦].

وكان هذا الذي توسطت به سورة الفاتحة، عنوانا على إعلان العبد، هذا التوجه، لربه الرحمن تبارك وتعالى، بإفراده بعبوديته له، تبارك وتعالى وحده، دون ما سواه.

والحق إن ههنا لفريدة، ومن تفردات هذا القرآن المعهودة، ولما كانت هذه الفريدة، وإنما تعلقت بهذا المعبود.

وحين قد رأيت هذه المبادرة من العبد، تجاه رب العبد. وبدون أمر، بل طواعية، واختيارا.

وهذا أصل قمن بالوقوف عنده.

وكان من مقتضى قوله تعالى هذا ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، أي: إياك نعبد، أي: إياك نلزم أنفسنا بعبادتنا إياك، وحدك، لا شريك لك.

هذه مبادرة تعبدية، من العبد تجاه ربه تبارك وتعالى.

وأكرر، ودونما أمر منه تعالى لعبيد به، على الأقل في الموضع، ومن هذه السورة المباركة.

وهذه المبادرة، ولما كانت هكذا، اختيارا، لا إجبارا، وإنما تتخطى بذلك آفاقا عبودية، للعبد إلى ربه تعالى، رحبة، واسعة.

ولما كان العبيد، ومن حيال ذلك؛ ولعلمهم كعبيد، وماذا إذ يجب عليهم تجاه رب العبيد وفي هكذا منظومة تحكي هذا الاستحقاق التعبدي لله تعالى.

وهي إذ تحكي أيضا شهادة الحق، الذي لا ريب فيه.

وإذ كان هذا هو علم العبيد عن ربهم تعالى اختيارا، ولست أقول- فقط- اضطرارا، بل استحقاقا، لهذا الرب سبحانه.

وحين قد علموا، من دواخل أنفسهم، وقلوبهم، وعقولهم، وأذهانهم، وهو هذا السوق إلى ربهم تعالى، ودون أمر منه تعالى أيضا.

وهذه فريدة، جميلة، حق الجمال، ومعتبرة، حق الاعتبار.

ويكأنهم وجدوا في دواخل أنفسهم، أن ذلك الرب، العظيم، المتعال، وحين قد خلقهم، وأوجدهم، وأكرمهم، وصورهم، وعدلهم، وجملهم، وحسنهم.

وحين قد أغدق عليهم بجميل نعمه، وجليل أفضالهن ومنه، وكرمه، حتى وجدوا بكل ذلكم، ومن دواخل نفوسهم، جبرا لهم، أن يتوجهوا اليه تعالى، بعبادتهم إياه، وحده، دون شريك.

وإن شئت فقل، ولعله من نوع رد الجميل، والثناء بحق، واستحقاق، لهذا الرب، وحين وجدوه، من تلقاء أنفسهم، في أنفسهم.

وحين كان هذا الرب وحده جديرا به، مستحقا له.

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، وأنت إذ تخاطب، واحدا، أحدا، فردا، صمدا، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

وانظر إلى هذا التوحيد الخالص، غير المشوب، ولو بشائبة واحدة.

وحين قد خصصته، ومن خطابك، وبهذه الكاف الخطابية الدلالية، ومن تلاوتك قوله تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، وحدك ربنا.

وأيضا، هذا من الاضطرار الداخلي، الذي تنطق به فطرة العبيد، نحو رب العبيد تبارك وتعالى.

وإن هذه القلوب، قد وجدت من تلقاء أنفسها، استحقاقا لهذا الرب، وحده، بعبادته، وحده، لا شريك له.

وكذا، ومن إفراده تعالى بصنوف العبادة أجمعها.

وانظر، لم يأت لها حصر، في السياق؛ دلالة الإيجاز، ومما أنف، ودلالة ما علمناه، وما لم نعلمه، وما قد أمكننا إحصاءه، وما لم يمكننا إحصاءه أيضا! وما عد، وما لم يعد!

هذا كله في الجملة، وتوجه به إليك وحدك، ربنا، لا شريك لك.

ومنه، هذه الدلالة عليه، والبرهان له.

وذلكم هو شعورنا؛ لأنه ليس يأمرنا إلا ربنا، عز وجل، وليس ينهانا، إلا ربنا عز وجل أيضا.

وأكرر، ولما وجد العبيد، هذه الحاجة، الداخلية، الملزمة، من قلوبهم، تجاه ربهم الحق، تبارك وتعالى، ومن دون أمر منه لهم.

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: وقفوا وقفة، عند هذه الكاف، الخطابية، الدلالية، وقالوا: هل هي ضمير متصل ب (إيا)، أو هي حرف؛ لتجميل الكلام؟

ويكأنه، ولو حرفا واحدا، وحين أتى في هذا القرآن العظيم، وإنما قد كانت له دلالته اللغوية، وعلامته التشريعية.

ولأن هذا القرآن، وكما قد حكى ربنا تبارك وتعالى عنه، ﴿**الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود:١]. وهكذا كان هذا الكتاب محكما، مفصلا، ومن هكذا الضبطية، الربانية، المتقنة، المحكمة أيضا.

وحين لم يأت فيه حرف واحد، وإلا وكما قلت لغاية لغوية، وأخرى معنوية، دلالية أيضا.

وأما غايته اللغوية، فذلك هو حسن وترتيب وكمال وتجميل المظهر العام للسياق.

ولكي تعرف ذلك، فاحذف هذه الكاف، وكيف اختل نظام التركيب أصلا، من أمام عينيك، وفي داخل فؤادك، ولبك.

ولما كان منه أن المعنى لايستقيم، والا بوجود هذه الكاف، وهذه واحدة.

وحين يقال إنها حرف، تجد بابا من الاعتراض الداخلي أيضا، حول هذا، وإذ هي ومن حيث مبتناها حرف، وأن نعم، ولكن معناها، هو ذلكم الخطاب بالإفراد لربك الرحمن عز وجل.

وحين قد وجدت من داخلك هذا الانفطار، وهذا الانطباع بمخاطبته تعالى وحده.

وأنت في مدارج العبودية والسلوك والمنهج والسبيل الى ربك الرحمن تبارك وتعالى.

ومنه كانت هذه الكاف في هذا الأسلوب التجميلي لهذا التركيب، ومما دلت عليه أيضا دلالة حتمية، ومن وجودها، وبما اقتضته من هذا الإفراد.

وحين قد توجهت إلى ربك وحده بعبادتك له تبارك وتعالى.

ويكأنك قد ألزمت نفسك بأن لا تأتمر إلا بأمره طواعية واختيارا.

ويكأنك قد نفطت وتخليت وخلوت عن كل معبود آخر سواه.

وتلك كلية، قمنة بالدرس والوقوف عندها أيضا.

ولنرى، ولنعلم، ولننقب، وننجم، أين نحن من مسألة الأمر والنهي.

وحين كان هذا الخطاب الذي قد ألزمت نفسك به. ومنك أنت، وحجة منك عليك.

وحين قد أفردته بأمر، فلا أمر إلا أمره.

وحين قد أفردته بنهي، فلا نهي إلا نهيه.

ومن مبادرة منك.

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: ونحن إذ نستجيش رائحة الأمر فيها، وعلى أنها ليست بموجودة لفظا.

بل معنى، بل فيها رائحة هذه المبادرة، ومما أنف ذكره.

وهذه تذكرة عليك أيها العبد. وحين قد وجدت هذا الإلزام.

وأكرر الإلزام الفطري، الجبلي، الطبعي.

وألا معبود بحق إلا إياه.

ومنه فانظر، ولينظر كل منا سلوكه، تجاه هذا الإلزام، الذي قد ألزم نفسه به.

وإياك نعبد، تقدمت على نعبد إياك.

والمعروف أن الفعل يتبعه فاعله ثم مفعوله.

وحينما يأتي نسق على غير ذلك، وهو ايضا من بلاغات، وطلاقة هذه اللغة العربية الجميلة.

وحين قد أجيز، بل وجب في هذه الحالات التي نحن بين يديها.

وحين جاءت هكذا على هذا الضمير المنفصل ﴿إِيَّاكَ﴾، وإنما تتقدم فعلها وجوبا.

دلالة على أنها وقعت في هذا المفعول، أي لا نفعل عبادتنا، ولا نقوم بها، إلا لك وحدك يا ربنا، من توحيدنا، ومن خوفنا، ومن رجائنا، ومن عبادتنا.

وحين لسنا نتلقى إلا أمرك، وحين لا ننتهي إلا عن نهيك.

هذا التقديم الذي يشي بهذا الاختصاص التعبدي منك أيضا أيها العبد لربك الرحمن، وحين قد وفقت إليه طواعية، واختيارا أيضا، ومن قولك أنت؛ لأن حكاية القرآن عنك؛ تكريما لك.

وهذه هي الأمانة في النقل، إن هذا التعبير، ولله المثل الأعلى، وحين قد حباك ربك، وبتقدمتك إياه، وبتخصيصك إياه.

ومن تقديم الضمير المنفصل، الموجب لهذا الاختصاص، في العبادة لربك وحده، دون سواه.

ولتقف أيضا عنده.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أنت تخاطب ربا، بكاف الخطاب، وتتحدث عن نفسك مع الله.

وحين تخاطب الرب بالإفراد! وتتكلم أنت بجماعة المتكلمين، وحين كان لهذا السياق دلالة بلاغية، عظمى، تنشر طيبها، ورحيقها، ونسيمها، في الأفق كله.

وكيما يتعبق، ويتنسم، ويشتم أحدنا هذا الرحيق المعبق بهذا البيان المعجز.

وحين دل على دلالات منها: هو ذلكم الإفراد، ومما أنف، ومن خطابك إياك، وحدك، لا سواك، نتوجه بعبادتنا، وبخوفنا، ورجائنا، وتوحيدنا، لك، وحدك، لا شريك لك.

وكيما ينصرف الذهن، عن أية خيالات تصورها هذه الوساوس، الإبليسية، الشيطانية، الطريدة، الرجيمة، من رحمه الله تعال.

وكيما لا يسلك العبد هذا السلوك الإبليسي، فتسول له نفسه أن يخرج عن جادة السبيل، أو أن يحيد عنه.

ولأن القطار إذا حاد عن قضبانه انهار، وخار، وسقط، وتحطم، وبمن فيه!

وهذا الذي نراه، ونحسه، وحين قد خرجت البشرية عن قضبان، ومنهج، وسبيل ربها الرحمن.

فتراها مرة إلى اليمين، ومرة إلى اليسار، ومره إلى الشرق، وأخرى إلى الغرب، وتالية إلى الجنوب. ومن بعدها إلى الشمال.

وهذا هو طريقها المرسوم لها، ومن حيث قال الله تعالى ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨].

وحين قد رأيت الأمم، وحين قد حادت، وإنما قد ألصقت ظهورها، وبطونها، وجنوبها، بهذا الذي أوقعت نفسها فيه، من مشاكل، أوحلت نفسها فيها أيضا، وحتى غرقت لا إلى أخمص قدميها، وحسب بل وإلى رؤوسها أيضا.

والنجاة النجاة، الفلاح الفلاح، والسبيل السبيل.

أيها الناس، ألا فليدعو بعضنا بعضا إلى إياك وحدك لا سواك، إليك وحدك ربنا نتوجه، بعبوديتنا هذه إليك. فلا نخص أحدا غيرك بأمر، ولا نأخذ عن غيرك نهيا.

وإنما أنت المختص، وحدك، ربنا، بذلك الاختصاص، ومن عبادتنا لك، وحدك، دون سواك.

فأمرك أمرك، وحسب، ونهيك نهيك، وحسب، وكذا عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأن في ذلك صلاحنا، وفلاحنا، ونجاحنا، واستقامتنا، وعدلنا، وقسطنا، وراحتنا، وأمننا، وسلمنا.

وقال الله تعالى ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢]. حتى ولو كان ظلما واحدا! ا

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: وإذ قلنا: إنه كان الخطاب منك إلى ربك، بالإفراد، ومن قولنا هذا: ﴿إِيَّاكَ﴾.

ودلالتك في الخطاب، وقد حكيت أنت ﴿نَعْبُدُ﴾: بضمير الجماعة، فهل يستقيم ذلك؟

وأقول: بل يستقيم ذلك، وحين كان هو ذلكم استشعار هكذا معنى، قمنا بالوقوف عنده.

أليس ربك عز وجل يقول. ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[الإسراء: ٧٠].

فربك كرمك، ومن تكريم ربك لك، انك قد شعرت بهذه الهالة، من العزة، والإباء.

وأنت إذ هكذا متبديا، بين يديه تعالى، فرحا، مخبتا، قانتا.

حتى وجدتك عزيزا، بلا ذل! أبيا، بلا إخضاع، او طأطأة رأس لغيره تعالى.

ومن كان، ومن ثم كان هذا الشعور، الذي قد خرج عليك، ومنك، وبقولك، ﴿نَعْبُدُ﴾، استشرافا لاعزاز ربك لك،

وحين قد شعرت بهذه النفس الأبية، المرفوعة الهامة، وأنت بين خلجات العبودية، لربك الرحمن تبارك وتعالى.

ومنه كان ربك عز وجل، مستحقا لهذا الحمد، الذي به أوليته.

وحين قد وجدت من نفسك، هذه العزة، وتلك الاباءة، وأنت منطرح بين يدي ربك الرحمن تبارك وتعالى.

وهذا تصنيف معقول، وتصريف جميل جليل الشأن.

وان أضفت إليه، أن هذه الأمه أمة واحدة، ومن مقتضى قوله تعالى ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء:٩٢]. وكذا قوله تعالى ﴿**وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وإنما جماعة المؤمنين، ولما كان الفرد عزيزا لإخوانه، جميلا بهم، قويا بهم.

وهذا أيضا استحسان عقلي، ودلالة، تدلنا على أننا نحن الأمة الواحدة.

وحين قد توجهنا كلنا، لربنا بعبادتنا اليه وحده.

فصل

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]. (١)

هذه الآية التي جاءت بعد قوله تبارك وتعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأنت إذ تشتم منها رائحة وعبق الدعاء، بإلهامك ربك الرحمن عز وجل، أن يهديك الصراط المستقيم، ومن بعد أن تنسمت أيضا هذا الزكاء، الندي، الزكي، العطر العبق، من فحوى خطابك ربك تعالى وحين قدألهمت قولا أسنده ربك لك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وحين لم تكن فصول العبادة، وأركانها، وشرائطها، وصروفها، وأنواعها، مبينة، موضحة.

وإنما أنت في الجملة، قد دعوت ربك الرحمن عز وجل، أن يهديك، لما قد سبقت إليه، ومن قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإن هذه جملة، فيها عموم الانقياد، وإسلاسه لرب العزة والجلال تبارك وتعالى، ولكنك؛ ولجهلك، وعدم إحاطتك، وكما أنت بصنوف هذه العبادة، وأنواعها، وإنما قد تعديت ذلك، ومن دعاء ربك تبارك وتعالى، أن يهديك، إلى صنوف هذه العبادة، وأنواعها، وأرجائها، ونواحيها، وزقاقها، وحواريها!

ولأنها ذات فروع، وأصول شتى.

وهذه هي العبودية، وكيف يتجرد العبد، من هواه؟ وكيما يسند هذا التلقي إلى ربه، وخالقه، ومولاه.

ويكأنه يقول، ومن دخيلة نفسه، ومن عقيدة قلبه، ولبه: يا رب، إن كنت قد توجهت إليك بالعبادة، والاستعانة، وإلا أنني أجهل أنواعها، وصنوفها، فوفقني اللهم، وألهمني رشدي نحوها!

وهذا هو التجرد، وهذا هو حقيقة الإخلاص لربك الرحمن تبارك وتعالى.

وهو حقيقه اليقين، والتوكل، والانقياد، والإسلاس لأمره، ونهيه، سبحانه.

ولأنك قد أفضيت إلى ربك، بالتخلص من شائبة الهوى، والعقل، والخيال، والتصور، وأخلدت إلى دعائه تبارك وتعالى، أن يلهمك ما تعبد به ربك.

وهذه حقيقة، وكلية، وقاعدة هامة. بل أهم.

وفيها -وكما أنف- تخلص العبد من هواه، وإسلاس قياده لربه ومولاه.

ثم هذا الاستقبال، والاستعداد الداخلي، لحسن التلقي عن الله تبارك وتعالى.

ويكون حسن التلقي عن الله عز وجل تبارك وتعالى، بهذين الأمرين:

١- بطلب الهداية، من الله تعالى وحده، وإذ ليس يهدي إلى الحق، في الحقيقة، والحق، إلا هذا الرب الحق تبارك وتعالى في علاه.

وهذه حقيقة، وأصل الأصول، ألا يتلقى الحق، وإلا من ربه تبارك وتعالى الحق المبين.

وهذا أيضا فيه إشعار للقلوب، وللعقول، وللأفهام، وللأذهان، وللقرائح الزكية، والعقول الندية، الرضية، أنها تفتح آفاقها، وضلوعها، وصدورها، وأوتارها، وكلها، وجزأها، وبعضها، إلى هذا الاستعداد، أن

تتلقى عن ربها وحده، أمره، ونهيه. خالعة، قالعة، تاركة، كل ما يزينه لها هذا إبليس الشيطان الرجيم.

ولأن له وساوسه شتى!

ومنه، فقد خلعت نفسها، عن نفسها، وعن إبليسها، وارتمت في رعاية ربها، وعنايته، وكفالته، وحفظه.

وحين أعلنت هذا الإعلان، الصادق، الصريح: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾، مذعنة حق هذا الإذعان، وإنها إذ تقول، إنه لا هادي في الحقيقة إلى هذا الصراط المستقيم سواك ربنا.

ومنه ما توجهنا بدعائنا الهداية إلا إلى إياك.

وهذه هي حقيقة العبودية للرب العظيم، المتعال، سبحانه وتعالى، في علاه.

﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾، اهدنا، وهذا هو شأن المسلم دائما، ينطق بلفظ الجماعة: اهدنا كلنا، ذكرانا وإناثا، رجالا ونساء، وشيبة وشبابا، وصغارا وكبارا.

وهذه هي محبة الخير للناس أجمعين، وكما يحب العبد الخير لذات نفسه، وهكذا لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان إلا أن يحب لغيره ما يحب لنفسه.

واي شيء يحبه الانسان لنفسه أكثر وأعظم من هداية ربه له الصراط المستقيم؟

ومنه، وكما قد أحب لنفسه أن يهديه ربه تبارك وتعالى الصراط المستقيم، فها هو يعلن على الملأ أنه: اهدنا كلنا يا ربنا، ولا يستثنين أحدا من هذا

الدعاء، بأن يعم الله تبارك وتعالى البسيطة ومن عليها، الأرض وما أقلت أن يعمهم الله جميعا بهذه الهداية، وهذا التوفيق، وهذا الإلهام.

وحينما قد قصرت قواهم، ومناشطهم، وطاقاتهم، ومهما بذلوا، قصرت عن أن تعرف الحق فتتبعه، و أن تعرف الشر فتجتنبه.

وهذا الأمر عظيم الشأن والقدر، يشي بسمو هذا القلب، وحين كان متصلا بربه ومولاه

الحق المبين تبارك وتعالى في علاه.

ولكنه يخلع، وكما قلته، كل التصورات، والقيم، والأوامر، والنواهي، التي قد يسدد الشيطان بها رمحه في صدر العبد، فيقع، رديا، هاويا، ساقطا في قعر بئر ليس له منه من خلاص!

وحين قد رأينا هذه البشرية، قد أوقعت نفسها في بئر سحيق عميق.

وحينما تنكبت طريق ربها، وصراط خالقها، الى سبل متعرجة! ويكأنهم ليسوا وإلا في ضلالة، وإلا أن يخلعوا عن أنفسهم هذا الغبش، وهذا الدخان، وإلا أن يرجعوا إلى حقيقة قولهم هذا: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾!

والفعل هدى، من جماله، ومن بلاغته، ومن حلاوته، ومن صفاء لغته، من الأفعال المتعدية، وكون أن الفعل متعد بنفسه، هذه لم تأت هكذا، وإنما قد جاءت، واعتبرت لما يحمله الفعل من تعد إلى مفعول أول، بل وثان، بل والى ثالث أيضا.

وكلما كان الفعل متعديا إلى مفعول، أو أكثر من مفعول، وإلى ثلاثة مفاعيل! فاعلم أن وراء ذلك غاية لغوية، مبهرة، مدهشة.

وحين قد اختير هذا الفعل خصيصة، في هذا المكان خاصة أيضا.

اهدنا، وهذا هو الضمير المتصل (نا) الفاعلين، مفعول به أول، وهذا هو الضمير المستتر وجوبا (أنت) ربنا وهذا هو الفاعل، ومفعول به ثان هو (الصراط).

وبه فكان الفعل هدى متعديا إلى مفعولين، دلالة هذا الارتباط بينك، وبين ربك الرحمن، وحينما قلت: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾، فلم تكتف بذلك التوفيق والإلهام، والرشد، والبيان. لذات نفسك وحسب.

وإنما عطفت على ذلك بأنك تدعو ربك الرحمن أن يهديك الصراط المستقيم.

وهذه كلية بلاغية حق البلاغة؛ وحين قد علمت أن الصراط المستقيم ليس يدعى به وإليه إلا من ربك الرحمن عز وجل.

وهذا- والحق يقال- هو مطلق العبودية لهذا الرب العظيم المتعال.

ويكأنك تقول: إنه ليس أحد أقدر ولا أعلم بهدايتي فيسندني ويهديني ويلهمني ويوفقني إلى هذا الهدى سواك ربنا!

وليس أحد أعلم بما يضرني أيضا في معاشي وفي معادي وفي دنياي وفي أخراي إلاكَ!

ومنه؛ فقد تجردت من نفسي إلى حضرة هذا العون الرباني اللطيف الحاني الرضي، وأن تلهمني ربي رشدي وتوفيقي وإلهامي إلى هذا الحق الذي هو الصراط المستقيم الذي لا يعلم حقيقته إلاك وحدك لا شريك لك!

ومنه أيضا ينخلع العبد عن كل الوساوس والخطرات التي ربما اودت به المهالك والموارد وأشرفت به على وإلى المهالك.

وحين قد تخلى ولو شيئا من الزمن عن هداية ربه تعالى.

وإذ ليس هذا وحسب وإنما الصراط المستقيم، أي: اهدنا الصراط المستقيم أبدا، وعلى قدر وطَول هذا الصراط.

ويبدو هذا جليا واضحا أكثر وأوضح وأعظم وأوفر، وحين تجد الفعل هدى قد جاء في القرآن العظيم مرة حين قال الله تعالى ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ٤٣].

وحين قد رأيت مجيئ حرف الجر اللام ملتصقا باسم الإشارة ﴿لِهَٰذَا﴾ التصاقا! ودون تعدية بحرف الجر (إلى)!

وهذا في الوقت الذي جاء متعدا بحرف الجر إلى ومن مناسبة أخرى كان المناسب لها هو هكذا حرف الجر (إلى) لا حرف الجر اللام! ومن قوله تعالى ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾ [الصافات:٢٤].

ويكأن هناك شيء من الفصل بين الفعل (هدى) وحين عُدِّي بحرف الجر(إلى) وكما قد رأيت.

وحين كان هكذا فصلا ولو معنويا، وبه فقد وضعت في دائرة الفصل والتأقيت.

وعلى كلا الوجين فقد وضعتك هذه الدائرة من الفصل والتأقيت الزمني قل أو زاد، لكنك قد تجردت عن هذين الحرفين(اللام وإلى) أو ما خلاهما، وحين خلا نص الهداية إلى الصراط من هذين الحرفين (اللام وإلى)!

فدلك على هكذا الالتصاق المعنوي بجناب الربوبية الحاني الرضي، وحين قد خلعت نفسك وإلا من عون ربك وتوفيقه وهداه وإلهامه ورشده وإعانته لك أيها العبد الهني الرضي.

ولما قد استسلمت وأذعنت هذا الاستسلام وأعلنت هذا الإذعان لربك الديان تبارك وتعالى في علاه.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢)

ونريد أن ندخل في جانب أهل القراءات، وحين قد جاء فيها الصراط بصاد خالصة (الصراط)، أو زاي (الزراط) أو سين خالصة (السراط)، أو الوسط بين الزاي والصاد وغير ذلك.

وان كانت القراءة المعتمدة هي قراءة المصحف العثماني بالصاد الخالصة هكذا ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

إن كلمة الصراط نفسها تؤدي معنى الاستقامة، وكان يمكن ألا تردف بوصفها (المستقيم)!

ولكن هذا أيضا استدعاء من العبد لربه الرحمن الرحيم أن يهديه ويلهمه، وإلى هذا الصراط، الذي هو المستقيم، الذي لا عوج فيه البتة.

وصراط الله المستقيم الذي لا عوج فيهم البتة هو ذلك الدين الاسلام الحنيف القويم الخالد، وحين قد ارتضاه ربك الرحمن لأولاء البشر أجمعين.

ومما قد هداهم إليه وبه ومن خلال قرآنه الذكر الحكيم، ومن قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم **عن هذا القرآن وأنه هو: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**(١).

إنه لا خلاف بين أن القرآن الكريم، وحين كان هو الصراط المستقيم، وبين أن الاسلام هو الصراط المستقيم؛ ولأنه وقد هدانا الله تعالى بهذا القران الذكر المجيد الكريم العظيم الصراط المستقيم، وإذ كان بمثابته أيضا.

ومنه نستقي هدانا، ومنه نعرف طريقنا، وسبيلنا، وشرعنا، ونهجنا، وحين قد اتخذناه مسلكا أوحدَ، نحو إرضاء ربنا؛ ولسعادتنا في معاشنا، وفي معادنا، ومن أخرانا، وكما قد ارتضيناه لنا منهجا أيضا في دنيانا.

---

(١) الجامع الصغير، السيوطي: ٦٢٠٢. خلاصة حكم المحدث: حسن.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(٣)

وهذا قول ربنا الرحمن تبارك وتعالى، ومن دعاء عبيده له سبحانه أن يلهمهم رشدهم، وحين أوقفهم على الصراط المستقيم، الذي لا عوج فيه البتة، وحين كان هذا الصراط المستقيم، وحين بينوه بأنه يا ربنا ألهمناه، ووفقناه.

إن قوله تعالى ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: ٧]. فيه حكاية لهذا البدل المطابق، وإذ وحين يتلو تال هكذا قوله تعالى ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾: وإذ لسوف يظل في فؤاده سؤال مقتضاه: ما هو هذا الصراط المستقيم؟

وحين يسعفه النص، وليس يترك أمامه من هنة منها يروح خياله!

وإذ ها هو نفسه صراط الذين أنعمت عليهم' وهذه هي المطابقة، ومن البدلية، فإن البدل هو قوله تعالى ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾، ولما كان المبدل منه هو الصراط المستقيم.

إن هذه المطابقة، في كل الجزئيات والكليات معا تشي بحرص العبيد واهتمامهم وتعبدهم لربهم تبارك وتعالى.

وحين قد علموا أن الصراط المستقيم ذو تبعة، وذو عمل، وذو مجاهدة، ومن قوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إنه إذا علم الله تعالى من عبده مجاهدته نفسه، هداه مولاه، وهداه، ووفقه، وأعانه، على أن يسلك هذا السبيل، وحين قد عُلِمَ حسن قصده وإرادته واخلاصه لمولاه تبارك وتعالى ربي الحق المبين، وحين كان مخلصا، ومن قوله ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

فصل

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

ثم حدد هذا الصراط المستقيم، بأنه فقط ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾؛ دلالة أن هذا الصراط المستقيم، الذي هو صراط الذين أنعمت عليهم يا ربنا، وذلكم الذي يتوافر على أصلين:

أما الأصل الأول: فهو ذلكم العلم: فنحن لدينا أمر بالعلم بربنا الرحمن تبارك وتعالى، ومن قوله تعالى ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾ [محمد: ١٩].

إن لدينا علما من ربنا تعالى بالأمر بالعلم، ومنه فكانت القاعدة الأساسية الأولى، والتي يكون منها المنطلق، والمنهج، والطريق، والسبيل، هو العلم.

وأما الأصل الثاني: فهو العمل: ومنه قوله تعالى أيضا ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة:١٠٥].

ولما كان هكذا الأمر، فأنت عندك أمر من ربك الرحمن، لنبيك المصطفى العدنان، أن يستقيم، وكما أمر، وكان منه أن ينسحب هذا الأمر علينا معاشر البشر المساكين أيضا، وأن نستقيم، وكما أمرنا من منهج ربنا، وسنن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مستبعدين، تاركين خيالاتنا، واستحساننا، تلكم التي تطربها عقولنا!

إن هذه العقول التي ومع الاحترام الكامل لها، وإلا أنها تكون في زيغ وضلال، وحين تبعد عن منهج الرب الكريم المتعال، وحين قد أعملت نفسها، وأجهدت نفسها، وأتعبت نفسها، فيما ليس مطلوبا منها، وما لا طائل تحته أيضا.

فإنها تغوص وتغرق وتمخر في عباب ليس لها فيه من نصيب. وليست مدركة له وأبعاده معه.

وكما نكرر دائما، إن القوم يجلسون، ويتحلقون دوائرهم المستديرة؛ ليقولوا وليفكروا بعيدا عما قال ربهم ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم. وبه يتيهون تيها، ومن بعد تيههم، ويضلون ضلالا، ومن بعد ضلالهم؛ ولأنهم حرموا أنفسهم من هذا الخير؛ لأن رسولهم صلى الله عليه وسلم قال: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة، أو: حتى يأتي أمر الله(١).

إن هذا الدين العظيم الجميل، وحين كان من جماله حاجة العبيد ان يداركوا شيئا من جماله، وليسهروا، وليكبوا، ويجتهدوا، ويجدوا، ويتعلموا؛ كيما يكون عمل العبد موافقا لمراد ربه وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولأنه من هنا يكون الفلاح.

ونحن نقول بقول ربنا تعالى ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩]. مستصحبين نهجنا وسبيلنا وطريقنا، ومن أولاء الذين قال الله تعالى فيهم قوله هذا، وحين أثنى ربهم

---

(١) صحيح البخاري: ٧٣١٢

عليهم، ومنه يستصحب عبد معية ربه له، وحين يجاهد في الله حق جهاده، تاركا جانبي الشبهة، والشهوة.

وحين يجاهد العبد نفسه في هذين الأمرين، ليهدينه ربه، فانه وحين يكون العبد محسنا، وحين يجاهد لعلم، ويجاهد لعمل بمقتضى هذا العلم، وإلا فإنه يكون كما دعوا ربهم تعالى، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

المغضوب عليهم: ولما كان أولئك المغضوب عليهم؛ ولأنهم علموا ولم يعملوا بمقتضى ما علموا، فكان مغضوبا عليهم.

ثم، ونحن إذ نستحضر هذا وإنما نذكر أنفسنا بضرورة من شيء؛ ولأننا وما توفيقنا إلا بعون ربنا، فنستلهم ونستمطر عطاءه، ورضاه، ومنه، وفضله، بتوفيقنا هدايته لنا ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾.

لأن العبد وحين لم يستصحب معية مولاه وإنما قد يضله ويغرقه ربه ومولاه!

لماذا؟ لأنه لم يستصحب إخباتا، وقنوتا، واستسلاما، ورضا، وإخلاصا؛ وكيما لا يكون من أول من تسعر بهم النيران، وحين يتلقى العلم؛ ليقال عنه إنه عالم، وإنما يتلقى العلم؛ ليزداد لله خشية؛ ولأنه الله تعالى قال ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾.

كان من مقتضى هذا العلم هو خشيته تبارك وتعالى؛ ولأن العلم الشرعي يعلم الانسان بربه ويعرفه بخالقه، وليس العلم الشرعي وحده، بل كل علم

يقف العبد عليه ويستحضر في هذا مرضاة ربه تبارك وتعالى يهديه ربه سبيله.

ولكن العلم الشرعي هو الأولى وهو المقدم على غيره من العلوم، وإنما تكون العلوم الأخرى تابعة، وإنما العلم الشرعي هو هذا الذي يعرف الإنسان بربه أولا، ألا وإنه علم الكتاب والسنة.

وعلم الكتاب والسنة واسع فضفاض، فيهما تلذ الأعين، وتبهر العقول، ويقف بهذه النفوس ويطهرها ويزكيها، وحين يقربها من مولاها تبارك وتعالى.

ولما كان أيضا فيه من كافة العلوم ما علمنا منه وما لم نعلم.

ولسنا نريد أن نخوض في ها هنا من تفصيلات، وإن اللبيب بالإشارة يفهم، وحين قال الله تعالى ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس:٤٠].

إن هذه العلوم، وإنما تكون في مرحله تالية للعلم بالله تبارك وتعالى، أسماؤه وصفاته واوامره ونواهيه، حتى نلزم أنفسنا بهذه الجادة، وحين نكون عبيدا حقا لربنا الرحمن، قال الله تعالى فيهم ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾.

إن المغضوب عليهم هم أولاء الذين علموا، ولم يعملوا بمقتضى ما علموا، فاستحقوا أن يكونوا مغضوبا عليهم.

ومن هذا العاقل الذي يريد أن يقع تحت طائلة وسواس شيطان رجيم، فيخرجه من هذه التبعية لربه الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، ليقع فريسة لهذه الوسوسة، فلا يعمل بمقتضى ما علم، ثم ليكون من المغضوب عليهم.

إلف ورحمة: ونحن إذ نترضى هذا الجو بظله الوارف، ومن هكذا المعنى اللطيف الفضفاض السياب السيال لمعاني الإلف والرحمة والرضا، وحين كان الاختيار هو لفظ الإنعام، ومتوجها به بلفظ الخطاب إلى ربك الرحمن التواب الوهاب؛ ولأن اللفظ الذي تلاه خلى؛ عن ذلك تمجيدا لربك.

ولأنه وحين قد أسند النعمة لربنا الرحمن، ومن هذا اللفظ الجلي الحني الرضي السهل السياب السيال.

إن الإنعام ومن مجيئه من الفعل (أنعمت) ثم بالتصاقه بتاء الخطاب؛ دلاله على أن الله عز وجل ينعم علينا بنعمه الجليلة، الجميلة، الوفيرة، الكثيرة.

وانظر كيف كانت التأدب مع الله ربك الرحمن، وحين اختار العبد الصالح لفظ المغضوب عليهم، ولم يكن غضبت عليهم، بنفس السياق الذي جاء به الفعل (أنعمت)!

وهذا غاية الأدب مع الله تبارك وتعالى، وحين كان بهذا اللفظ الحني الرضي، باسم المفعول، غير المغضوب عليهم، خطابا جليلا، وتضرعا سنيا، من هذا العبد الرضي، لربه الرحمن اللطيف الخبير.

وحين كان من دلالات الفعل(أنعمت) هو هذا الستر وهو هذه البسطة عليهم، ومن رداء النعم والرحمة والرضوان.

ولأنك ربنا أهل ذلك كله، ولأنه تعالى ﴿**هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [المدثر: ٥٦].

وأيضا، وحين يفر المرء، ويتنكب، ويستدبر، فلا يمنين نفسه، وحين أيضا تخيم عليه ضلالات وظلمات غير المغضوب عليهم.

وكأنهم قد اكتسوا بظلام حالك، من هذا الغضب، وحين قد فروا من عملهم، ومن مقتضى علمهم.

فإن هذا العلم أمانة، وحين يقوم العبد على هذه الأمانة، وأداء هذه الأمانة، هو عملها، وهو فعلها. وبئس الوصف، وبئس المثل، ولأنه وليس إذ ومن كمثله، بل هو نفسه!

إنه بئس الوصف الذي وصف الله تبارك وتعالى به أولئك الذين يعلمون وليسوا يعملون، ومن مقتضى ما علموا، ومن قوله تعالى ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة: ٥].

فالله عز وجل رغم أنه هو الذي ضرب المثل، وإلا أنه مثل بئيس؛ لأنهم وحين، ولأن العبد حين يستحضر هذه الصورة، وإن الحمار يحمل ولا يدري ما يحمل، فكان حريا أن يكون مغضوبا عليهم، وبهذا الكساء أيضا من ظلمات هذا الغضب.

الضالون: وقفوا عند الضالين أيضا، فإنهم يعبدون، وعلى غير مقتضى العلم الصحيح، وهذه مشكلة، في العقد أن يقع العبد فريسة جهله، ولذا كان من الذين أنعمت عليهم، وكما أنف، هو ذلك وصف بأنهم الذين يعلمون أول شيء، ثم يعملون بمقتضى هذا العلم.

وإذا ما انفكت إحدى الجهتين عن الأخرى، فلا ثمة دين قد وقع!

وأما في المغضوب عليهم، وحين لم يعمل بما علم أو وقع في طائفة وطائلة الضلال، وحين قد عمل مستجمعا قواه، وعقله الفاسد، وقياسه الطالح، ويكأنه يستدرك على ربه ومولاه، وهذا هو الضلال بعينه، وحين يجد الإنسان من نفسه فسحته أن يتحلل من ربقة عبوديته لمولاه تعالى، وحين يتيه في الارض حيران، ليس له منهج أو سبيل محدد يسلكه.

وانما هو ذلكم الذي، وحين هوى شيئا اتبعه وركبه.

إن هذا الدين ذو كلفة، ودين ذو نظام، ودين ذو أمر ونهي، لانتظام هذا الكون، وعدم انفراط عقده.

ومنه يكون الناس كل الناس على جدة من منهج ربهم وحده لا شريك له سبحانه وتعالى في علاه.

اما انفصال هاتين الجهتين، وكما قلت العلم عن العمل، أو العمل عن العلم، فهذا هو شأنه أحد الجهتين الأخرين غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ولسنا نريد أن نقول إن الموضوع عليهم هم اليهود المغضوب عليهم، أو هم النصارى الضالون، وبقدر ما نقوله إن كل من توافر فيه فقدان العمل وتحقق العلم فقط هذا مغضوب عليه يهوديا كان أو غير يهوديا،

فأيا كان وصفه، وأيا ما كان نعته ووسمه.

وكذلك الذي يتوافر فيه عمل غير صالح؛ لأنه غير مستند إلى علم صحيح، فإن هذا ضال، وليكن ما يكون أيضا رسما ووصفا واسما ونعتا.

إن هذا ما يعنينا كثيرا.

إن الذي يعنينا هو هذا الضبط، تحقق شرطي العلم والعمل معا؛ ليكون العبد من أنعمت عليهم ولا يكون غير المغضوب عليهم. ولا يكون من الضالين.

وقفوا وقفه هنية، رضية ها هنا: وحين لم يقل النص غير الضالين، لأن ممكن واحد متفلسف يقول إن غير الضالين تنسحب على الذين أنعمت عليهم! يدخل فيهم الضالون؛ دلالة أنك أنت قلت غير المغضوب عليهم، وإنك لو قلت غير الضالين فقد أوقعت الضالين في طائفهة المنعم عليهم!

وهذا سياق لا يستقيم؛ ومنه حذف اسم الاستثناء غير.

اسم الاستثناء هذا ولما كان مقتضاه أن يا ربنا عافنا ولا تشملنا، لا أن نكون من المغضوب عليهم، ولا أن نكون من الضالين.

فصل
آمين

آمين: والخلاف قائم في (آمين).

فصل
خاتمة واجبة

وبه قد وقفنا وقفات حول هذه السورة المجيدة فاتحة كتاب ربنا الرحمن،

وقد قلنا، وقد اسهبنا، وقد أطنبنا، وقد عجزنا أن نقول قولا يفي لهذا القرآن من حق، كان واجبا علينا تجاه.

وإنما نستشعره من ذات أنفسنا؛ ولأن هذا القرآن معين خالد، وفيه من الذخر، والجواهر، والعلم النافع، ما الله تبارك وتعالى به عليم.

وإنما هذه وقفاة، وعلى قدر ما قد حبانا به ربنا الرحمن تبارك وتعالى، وإن ربنا لذو المنة والفضل على أن وفق لنا وعلينا ولغيرنا وحين قد قلت، وحين قد سمع، وحين قد دعا لدى من سمع، ووقف على هذا القول الذي نحتسبه على ربنا الرحمن، ومن وقفات قد وقفناها، ومن أول قولنا: ﴿**بِسمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلحَمدُ للَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ۞ ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ**﴾ [الفاتحة: ١ – ٧].

فصل

العلاقة بين سورة البقرة وسورة الفاتحة

وهذه نظرات في العلاقة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة وهذا أولا.

وثانيا: وهذه العلاقة بين الآيات الأول من سوره البقرة بعضها بعضا، وهن الآيات من الآية الثانية إلى الآية الخامسة.

تلكم العلاقة الشديدة القوية بين سورة الفاتحة أم الكتاب، القرآن العظيم، وسورة البقرة، التي ليست تستطيعها البطلة، وهم السحرة الكفرة الفجرة.

هي ذلكم العطاء الرباني الكريم، والإتحاف الإلهي السني العظيم الرقيق الندي اللطيف، وحيثما كنت تقرا فاتحة الكتاب، وتثني على ربك الرحمن تبارك وتعالى مدحا وثناء وتنزيها وتعظيما؛ ولأنه تبارك وتعالى هو أهل الثناء كله، والمجد كله، والتنزيه كله، والتقديس كله.

وحين قلت وبدأت ب: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

في هذه المنظومة الثَّنَائية على رب العزة والجلال، ثم وكان ربك يقابل ثناءك بثناء جميل أيضا هني رضي، يجعلك مأخوذا أخذا، وحيثما كان عطاء ربك لك موفورا.

ويكأنه من باب رد الثناء بثناء مثله، أو أعظم قيلا.

فأنت اثنيت على ربك الرحمن وحمدته ونزهته وقدسته ومجدته، وهو ذلكم الرب الكريم يبدأ سورة البقرة؛ ردا على هذا الثناء لك، منه بثناء منه لك، أو إليك.

وكما قال ربنا الرحمن في هذه المنظومات المتتالية، ذكرا: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

في هذه الثناءات المتتالية المتظافرة، والتي تأخذ اللب أخذا، ويكأنك أثنيت على ربك الرحمن: **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ**

فإن هذه أربع آيات من أول سورة البقرة، مقابلة ثلاث آيات في سورة الفاتحة!

وانظر ما بين هذه وتلك، من وكأن قولك تنزيها يقابله قول ربك عليك ثناء ومدحا وإثراء.

إن هذه العلاقة البينية بين هاتين السورتين ملفتة، أيما لفت، وموجبة أيما إيجاب؛ للوقوف عند هذه الحيثية، وقوفا يجعل من القلوب هادئة، ومن الأفئدة ساكنة.

ومن الأنسنة لاهفة، بذكر ربها، والثناء عليه تبارك وتعالى، آناء الليل، واطراف النهار.

ومنه يفاد ذلكم رد الثناء بثناء مثله، وكما قلت أو أقوى قيلا.

وحين يسدي إليك آحاد من الناس ثناءً، فرد عليه ثناءه، على الأقل بثناء مثله، أو أشد ثناء.

وهذه هي أخلاق ديننا، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ [النساء:٨٦].

هذا هو، رد الثناء بأحسن منه، أو على الأقل ردوها.

فبدأ ربك تعالى بذكر الثناء الحسن الجميل أوفر وأكثر، وإن لم تطق، وإن لم تستطع، وإن لم ترد، فعلى الأقل أو ردوها.

وهذا من هذا، يقدمه ثناء في بدايات الفاتحة، فيغمرك ربك بثناء أكثر وأعظم وأوفر؛ ولأن ربنا هو الواسع سبحانه وتعالى، وهو اللطيف، وهو الخبير، وهو الذي يعلمنا هذا الفضل، وهذا الجود، من القول الحسن، والثناء الجميل، على أهل الثناء الجميل أيضا.

فهيا نتعلم هذه المنظومة الأديبة الأريبة، وكيف كانت هكذا مهداة إلينا- معاشر العبيد- من ربنا سبحانه وتعالى؛ وكيما نكون أدباء حنفاء، تنجذب قلوبنا بعضها إلى بعض انجذابا، وتحاب أفئدتنا بعضها بعضا محبة، وإلفا وولاء. **وهذه قاعدة.**

وأما قاعدتنا التالية: فهي هذه الخمس الآيات الأولى من سورة البقرة المباركة.

وحين تضامنت كلها في ذكر صفات فريق هم المؤمنون، وأنت ترى كم وكيف جاء هذا الحشد هائلا، وان تضمن في خمس آيات فقط وحسب!

فإن هكذا حشد هائل، ووصف غزير، فتميزت به أيها المؤمن من ربك.

فكن عند قول ربك سبحانه وتعالى، وعلمه بك، وحيث ما كنت متصفا بهذا الوصف الجميل العزيز.

وفيما أنف ذكره لك أيها الحبيب، فإن هذه كلية أيضا جديرة بالاهتمام.

وثمة كلية أخرى منبثقة عنها: ومنها ذلكم هو، وإن كانت خمس آيات، في هكذا الإيجاز الرباني البياني.

وإن هذه اللوحة التصويرية، ولما يجب أن يكون عليه المؤمن، من خلق حسن، وسمت جميل، وهدي فضيل. متوجها به إلى ربه العزيز الغفور الجليل.

وهذه خمس آيات أوقفتنا على هذا الكم الغزير الوفير، وصفا لعباده تعالى المؤمنين وحين قد وقفت عليه كله- ما أمكنك- لوجدت الكثير من هذا الطراز الحسن الجميل، حين يقاس أو تقاس المساحة الكلية، لوصف المؤمنين، أمام المساحة الكلية لوصف الكافرين، على مدار القرآن الكريم كله، لوجدتك في ذهول وتعجب أيضا.

وانظر كيف تضمنت هذه السورة نفسها- سورة البقرة- هذا العداء السافر من بني إسرائيل لربهم ولرسل ربهم وأنبياء خالقهم وبارئهم، في مساحة عريضة تبوأت من سورة البقرة، هذه التي نحن بين يديها؛ دلالة شفافية قلب المؤمن، وإنه ليست فيه هذه الحارات والزقاق والمضائق! بل إن صدره لمتسع واسع فسيح أبيض شفافا تراه متصلا بربه الرحمن تبارك وتعالى.

وهذه قاعده حسن الوقوف عندها: فإن سورة البقرة متضامة مع سورة آل عمران، وكما أخبر نبينا المصطفى العدنان تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو ظلتان تحاجان عن صاحبهما.

فعن النواس بن سمعان الأنصاري: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد؛ قال: كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان، بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما(١).

ومنه يوقف هنا، ويتدبر هنا، محاولة تدريب القلوب، وتأهيل الألسنة على هذا الذكر الحسن الجميل، ومن تلاوة، وقراءة، وتدبر لسورتي البقرة وآل عمران.

وحين قد خصهما نبينا المصطفى العدنان وبهذا الوصف الكريم الحني الرضي اللطيف الجميل الفضيل.

إنه ولو لم يكن من هاتين السورتين إلا أنهما تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة لكفى بهما فضلا.

ومنه كان هذا المعنى الذي تركه لنا هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحين أسماهما زهراوي القرآن، في إشارة خالدة ناطقة بذكرهما والثناء عليهما أيضا.

---

(١) صحيح مسلم: ٨٠٥

فعن أبي أمامة الباهلي: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة. قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة. [وفي رواية]: غير أنه قال: وكأنهما في كليهما، ولم يذكر قول معاوية بلغني(١).

وكفاك أيضا أن سورة البقرة لا تطيقها ولا تستطيعها البطلة، وهم السحرة الكفرة الفجرة.

إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أثنى ومدح القارئين لخواتيمها وابتدائها أيضا.

بل قف عند قول ربك الرحمن تبارك وتعالى واعتبر: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٣٠].

أي تكريم لك يا ابن آدم، وحين قد جعلت خليفة لربك، في ارضه؟!

وكيما تقيم ميزان العدل، الذي ما قامت وما خلقت السماوات والأرض وإلا من شأنه، ومن موجبه ولسببه.

---

(١) صحيح مسلم: ٨٠٤

وحين كان هذا العدل المطلق وحده وحسب، وغيره معه، ليس يسمى عدلا، ولو من جانب، وإلا هو ذلكم إقامة توحيد الله تبارك وتعالى في أرضه.

ذلكم التوحيد المقتضي شيئا واحدا هو ألا أمر إلا أمر ربنا تعالى، وألا نهي إلا نهي ربنا تعالى.

إن هذا الاصطفاء من الله تبارك وتعالى لبني البشر عنوان تكريم لنا معاشر البشر.

ويكأن القرآن الكريم يقول لنا: كونوا عند حسن الظن بكم، ولما جعلكم ربكم خلفاءه في أرضه.

إن هذه الوقفات العامة أمام سورة البقرة، والعلاقة بينها وبين سورة الفاتحة، تجعلنا مخبتين شاكرين قانتين خاضعين خاشعين لهذا الرب العظيم المتعال.

وحين كان هذا القرآن موحيا هذا الإيحاء، ومنزلا هذا التنزيل، من سعة برحمة ربانية كريمة.

ومن عدل مطلق من رب كريم أيضا.

وحين قد جعلنا خلفاء له في أرضه؛ نقيم ميزان عدله، وقسطاسه المستقيم، على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون.

مصادر البحث

١- بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية.

٢- تفسير الطبري.

٣- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ابن القيم.

٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق/العظيم آبادي.

٥- حاشية ابن عابدين.

٦- المجموع، النووي.

٧- تفسير ابن كثير.

٨- التسهيل لعلوم التنزيل، الغرناطي الكلبي.

٩- تفسير الرازي، الرازي.

١٠- صحيح البخاري.

١١- تفسير القرطبي.

١٢- درء التعارض، ابن تيمية.

١٣- سنن أبي داود.

١٤- فيض القدير، المناوي.

١٥- صحيح أبي داود، الألباني.

١٦- الفتاوى، ابن تيمية.

١٧- تحفة الأحوذي، المباركفوري.

١٨- عون المعبود، العظيم آبادي.

١٩- الموطأ، الإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، أبي عبد الله مالك.

٢٠- صحيح الترمذي، الألباني.

٢١- الأذكار، النووي.
٢٢- صحيح مسلم.
٢٣- الأذكار النووية، النووي.
٢٤- مصابيح الجامع الصحيح، الدماميني.
٢٥- بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية.
٢٦- الروح، ابن قيم الجوزية.
٢٧- فتح الباري، ابن حجر.
٢٨- مجموع فتاوى ورسائل، ابن العثيمين.
٢٩- بدائع التفسير، ابن القيم.
٣٠- أضواء البيان، الشنقيطي.
٣١- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي.
٣٢- تحفة الحبيب على شرح الخطيب، البجيرمى على الخطي.
٣٣- لسان العرب، ابن منظور.
٣٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية.
٣٥- تفسير الرازي.
٣٦- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم جوزية.
٣٧- تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بطاقة الكتاب	
كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة	أ
التعريف بالمؤسسة	ب
مقدمة	1
فصل البرهان في بركة القرآن	4
فصل:حكمة تسمية الفاتحة بهذا الاسم	16
فصل:اللّيَاذَةُ في الاستعاذةِ	21
فصل:رفع الباس بالاستعاذة من الخناس	27
فصل:﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٨]	35
فصل:الحكمة من الاستعاذة	41
فصل:الفرقان في بيان عداوة الشيطان	46
فصل:محل الاستعاذة	52
فصل:الحكمة من الأمر بالاستعاذة قبل القراءة	56
فصل: فضل التعوذ	59
فصل:مواضع الاستعاذة	66
فصل:الاستعاذة (١)	78
فصل:الاستعاذة (٢)	83
فصل:الاستعاذة (٣)	89
فصل:الاستعاذة (٤)	94
فصل:وأما المسألة الثانية: هل الاستعادة آية من القرآن العظيم؟	96
فصل:بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [الفاتحة: ١].	98
فصل:بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(٢)	102
فصل:بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(٣)	109
فصل:بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(٤)	123
فصل : بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(٥)	127
فصل : بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(٦)	131

فصل :بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٧)	138
فصل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٨)	144
فصل:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٩)	150
فصل:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١٠)	154
فصل:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١١)	155
فصل:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. (١)	158
فصل:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)	168
فصل:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)	175
فصل:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤)	186
فصل:هل (الرب) اسم من أسماء الله تعالى الحسنى؟	190
فصل:﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. (١)	197
فصل:﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢)	205
فصل:﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]. (١)	215
فصل:﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]. (٢)	223
فصل:حسن المطلب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. (١)	237
فصل:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢)	240
فصل:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]. (١)	251
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (2)	257
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿اهْدِنَا (3)	259
فصل:﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة: ٧].	261
فصل آمين	269
فصل : خاتمة واجبة	270
فصل:العلاقة بين سورة البقرة وسورة الفاتحة	271
مصادر البحث	278
الفهرس	280